



الخلفاء المسلمون: الواقع والنموذج بعيداً عن السياسة

## Muslim Caliphs: Reality and Example Far from Politics

رسالة ماجستير مقدمة من الطالبة  
أسمهان خميس ثابت

تاريخ المناقشة  
18/كانون الثاني/2007م

لجنة النقاش  
د. محسن يوسف (رئيساً)

.....

د. عامر بركات "عضواً"

د. نظمي الجعبة "عضواً"

.....

.....

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في التاريخ العربي الإسلامي من كلية الآداب-الدراسات العليا في جامعة بيرزيت-فلسطين

2007

## الاهداء

إلى المعلم الأول

إلى النور الذي أضاء هذا العالم

إلى محمد صلى الله عليه وسلم

أهدي رسالتي هذه

## الشكر والتقدير

### إن كلمة الشكر الأولى

أوجهها إلى أسرتي الصغيرة  
أبي الذي علمني كيف تكون الثقة بالنفس  
وأمي التي علمتني كيف تكون الشجاعة  
إلى إخواني وأخواتي  
"ميسون، محمد، سوسن، أحمد، عماد، إيمان، حنين، أسماء، إبراهيم"  
كنتم دائماً وأبداً السند والداعم لي

### كلمة الشكر الثانية

أوجهها إلى معلمي ومعلماتي  
إن الكلمات لتعجز عن شكر أساتذتي ومعلمي في جامعة بيرزيت وبالتحديد  
في دائرة التاريخ ...  
لكم مني كل الشكر والتقدير

### كلمة الشكر الثالثة

أوجهها إلى زميلاتي وصديقاتي

### كلمة الشكر الرابعة

أوجهها إلى طلابي وطالباتي ... لكم مني كل الحب والتقدير  
فقد منحتوني الحب دوماً

ولانني أحبكم جميعاً أهديكم خالص محبتي وتقديري

## الفهرس

رقم الصفحة	الموضوع
ث	الملخص
ذ	Abstract
ش	المقدمة
21-1	الفصل الأول: خلفية تاريخية
140-22	الفصل الثاني: العوامل المبكرة لشخصية الخليفة
22	❖ النشأة، التربية، والسمات الشخصية
263-141	الفصل الثالث: العلاقات الأسرية داخل بيت الخليفة
141	❖ الأسرة النووية للخليفة (الخلفاء الراشدون كنموذج)
209	❖ علاقة الخليفة بأسرته (نماذج من الفترة الأموية، والعباسية)
337-264	الفصل الرابع: المحطة الأخيرة في حياة الخلفاء
264	❖ أعمار الخلفاء
283	❖ نهايات الخلفاء
338	الخاتمة
353	المصادر والمراجع

## المخلص

إن دراسة موضوع "الخلفاء المسلمين الواقع والنموذج وبعيداً عن السياسة" هي محاولة لكشف اللثام عن طبيعة العلاقات الاجتماعية داخل بيت الخليفة المسلم منذ عهد الخليفة الأول أبو بكر الصديق وحتى نهاية عصر الخليفة المعتصم الذي كان ما زال يحتفظ بهيبة الخليفة، أي الفترة التي يصفها ابن خلدون بالعصر الذهبي للخلافة العباسية.

يتعرض هذا البحث للحياة الشخصية للخليفة المسلم، وهو محاولة لعرض صورة مقارنة للواقع الذي كان يعيشه الخليفة وليس ما هو متخيل من قبل البعض منا عن هؤلاء الخلفاء.

ولعل السؤال الأهم الذي تحاول الدراسة الإجابة عليه هو: "ما هي أهم العوامل التي لعبت الدور الأساسي في بلورة شخصية الخليفة؟ وهل وصف المؤرخون الخلفاء "بالعظماء" لأنهم تمتعوا بصفات قيادية عظيمة أم أن ذلك كان لأسباب وعوامل أخرى؟"

تتكون الدراسة من مقدمة وأربع فصول وخاتمة حيث جاء الفصل الأول تحت عنوان **خلفية تاريخية**. تتناول هذا الفصل مسألة الخلافة كمصطلح وعالج رؤية الخلفاء لمفهوم الخلافة وكيفية تعاملهم مع منصب الخليفة، وكيفية تعامل المسلمين مع هذا المنصب وكيفية تولي كل خليفة لهذا المنصب والظروف المحيطة بتتصيبه. يعتبر هذا الفصل الإطار النظري للدراسة.

ومن البديهي القول بأن الخلافة لم تقم وفقاً لشرع أو قانون إسلامي موضوع مسبقاً وإنما نشأت وفق الحاجة والتجربة العملية التي عاشها النظام الإسلامي. ولعل اختلاف طرق تنصيب الخلفاء الراشدين عن بعضهم البعض مما يؤكد عدم وجود نص ديني واضح يحدد آلية تولي

ال خليفة لمنصبه، كما أن الخلافة نشأت وفقاً للظروف التي عايشها المسلمون، ووفق المصالح العائلية للخلفاء، خاصة في الفترتين الأموية والعباسية. ولعل تنصيب الخليفة في هاتين الفترتين سار على نهج النظام الوراثي الذي كان معروفاً في تلك الفترة خاصة في الدول المجاورة للدولة الإسلامية.

تتوالى الفصل الثاني الصورة النمطية للخلفاء كما صورها لنا المؤرخون. وجاء هذا الفصل تحت عنوان "العوامل المبلورة لشخصية الخليفة" يمكن القول بأن هذا الفصل وضّح بأن العظماء من الخلفاء هم من وفرت الكتب التاريخية تفاصيل كثيرة عن حياتهم حتى ولو كانت مدة حكمهم قصيرة، ومن هؤلاء الخليفة عمر بن عبد العزيز. ومن الملفات للنظر أن المصادر تعرضت لحياة خلفاء حكموا لفترات قصيرة مثل عمر بن عبد العزيز حيث تعرضت المصادر بشيء من التفصيل مثل تعليمه ومعلميه ونشأته. في حين أن تلك الكتب لم توفر القدر نفسه من التفاصيل والدقة عن خلفاء عاشوا في نفس الفترة وحكموا لفترات طويلة مثل أبناء عمه عبد الملك بن مروان.

ومن الخلفاء من توفرت معلومات عن نشأتهم لكون آباءهم وأجدادهم من الخلفاء، ومثال ذلك هارون الرشيد، المأمون والأمين وغيرهم. ومن الواضح أن المعلومات المتوفرة عن تربية ونشأة الخلفاء في الفترة العباسية هي أكثر تفصيلاً من تلك المتعلقة بخلفاء الفترة الأموية علماً أن المعلومات متوفرة بكثرة عن تفاصيل حياة الخلفاء الراشدين. إن المعلومات عن الفترة الأموية قد تكون فقدت بسبب ما تعرض له إرث الأمويين من طمس وتهميش على يد العباسيين وبسبب تحيز كتب التاريخ لأعدائهم العباسيين.

جاء الفصل الثالث تحت عنوان "العلاقات الأسرية داخل بيت الخليفة"، وتم التركيز في هذا الفصل على علاقة الخليفة الراشدي بأبنائه وزوجاته، كما عرض نماذج مماثلة من الفترتين الأموية والعباسية. قد بينت الدراسة أن الخلفاء لم يتبعوا نهجاً واحداً في التعامل مع أبنائهم وزوجاتهم وجواريتهم، ولم نجد صورة نمطية واحدة لطبيعة العلاقات الأسرية داخل بيوت الخلفاء. فهناك من تعامل بحزم وشدة مع أبنائه وزوجاته مثل عمر بن الخطاب وعبد الملك بن مروان. وهناك من تعامل بلين بل وسمح لزوجته بالتدخل في شؤون الحكم مثل المهدي وزوجته الخيزران. ومن الملفت للنظر أن عدداً من الخلفاء العظام كان لهم زوجات تميزن في عدد من المجالات مثل الحكم والبذل والعطاء والحكمة، نذكر منهن عاتكة زوجة عبد الملك، والخيزران زوجة المهدي، وزبيدة زوجة هارون الرشيد.

أما الفصل الرابع فحمل عنوان "نهايات الخلفاء" ركز هذا الفصل على أعمار الخلفاء وحياتهم وموتهم، وقد تكون هذه المحطة هي الكاشفة عن طبيعة المجتمع المصغر الذي عاشه الخلفاء والتي كثرت فيها المؤامرات. واهتم البحث بأعمار الخلفاء الذين تناولتهم الدراسة، ولعل قراءة سريعة لأعمارهم تشير إلى أنهم عاشوا أعماراً متوسطة إن لم تكن قصيرة مقارنة، على الأقل، بأعمار العلماء الذين عاشوا في عصرهم.

أما من حيث النتائج التي توصلت لها الدراسة فتتمثل بالعديد من النقاط ولعل أهمها تشير إلى أن الخلفاء لم يحظوا "بقُدسية" عند المسلمين الذين عاصروهم بالعكس من القدسية التي حظوا بها في فترات لاحقة، وقد انطبق هذا على الخلفاء الراشدين "المبشرين بالجنة" وأصحاب الرسول محمد ﷺ كما انطبق على الخلفاء الأمويين والعباسيين، بل ربما كان العكس من ذلك

خ

فكلما ابتعدنا عن فترة الرسول أضعف الخلفاء على أنفسهم هيبة وقدسية وأحاطوا أنفسهم برهبة أكثر وذلك لترهيب وإخضاع الرعية.

هناك تفاوت واضح في المعلومات المتوفرة عن الخلفاء، فهناك خلفاء تتوفر تفاصيل كثيرة عن حياتهم الشخصية، مثل: عبد الملك بن مروان، والمنصور، وهارون الرشيد، والمأمون، علماً أن العامل المشترك بين هؤلاء الخلفاء هو استمرارهم في الحكم لفترات طويلة، وبالتالي فإن مكوثهم فترة طويلة في الحكم جعل الناس يألفونهم ويعتادون عليهم ويتناقلون أخبارهم. وهناك بعض الخلفاء من خفتت الأضواء عن فتراتهم، كون من سبقوهم كانوا أعظم منهم، ومن هؤلاء نذكر الوليد بن عبد الملك، والمهدي والمعتصم.

رغم أن المؤرخين لم يحكموا على خليفة معين بأنه عظيم بسبب مدى تقيده والتزامه بالدين، وأدائه للعبادات، إلا أننا نرى في بعض الأحيان أن المؤرخين يشيرون إلى ذلك من باب تمييز بعض الخلفاء على بعضهم، ومن ذلك ما يقال عن خليفة مثل هارون الرشيد الذي كان يحج سنة ويغزو سنة، وخليفة مثل المهدي الذي كان يختم القرآن 30 مرة في رمضان، وكان حريصاً على أداء العبادات، وبالمقابل نرى أن بعض الخلفاء تم الانتقاص من مكانتهم بسبب خروقاتهم الدينية، وعلى رأس هؤلاء الخليفة الوليد بن يزيد.

هناك ارتباط واضح بين نجاح الخليفة في الحكم، ونجاحه في حياته الشخصية واهتمامه بأسرته، فمن الخلفاء الذين ربوا أولادهم تربية حسنة واهتموا بأسرهم، وكانوا في الوقت نفسه ناجحين إدارياً وسياسياً، نذكر عبد الملك بن مروان والمنصور، الذين خصصوا وقتاً جيداً لعائلاتهم، وحرصوا على تربية أبنائهم بطريقة جيدة. وفيما يتعلق بالنساء، إن ما يسترعي الاهتمام



إن الوضع الاجتماعي للمرأة لم يكن مهماً عند ارتباط الخلفاء بهن بل وربما كان يطمع بعض الخلفاء للارتباط بنساء من سبقوهم من الخلفاء وكأن النساء جزء من تركة الخلفاء السابقين، ومما يلفت النظر أن بعض الخلفاء تزوجوا بمن يصغرهم سناً بشكل كبير حتى أن بعضهم تزوج بنات لم يبلغن سن العاشرة عندما كانت أعمارهم أكثر من ستين عاماً، ومن الأمثلة على ذلك زواج عمر بن الخطاب من أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب.

هذه الدراسة تبين أن هناك نماذج مختلفة للخلفاء المسلمين وكل نموذج يختلف من حيث النشأة والتربية والتعامل مع أبناء الأسرة التي ينتمي لها كل خليفة. ولكن ما يجمع خلفاء عظام مثل عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان والمنصور هو نشأتهم العربية والدولة القوية التي أنشأوها، ونضيف لهؤلاء هارون الرشيد الذي ورث دولة قوية عن آباءه وأجداده وأحاط نفسه بالعلماء والكتاب الذين لم يتورعوا عن مدحه وتقديمه على أنه خليفة عظيم، وكذلك الحال فيما يتعلق بابنه الخليفة المأمون.

## Abstract

The Study of the subject: “**The Muslim Caliphs, the reality, the model, and away from politics**”, is an attempt to reveal the mask from the nature of the social relationships inside the home of the Muslim Caliphs since the Caliphate of Abu Bakr until the end of the Caliphate of Al-Mu'tasim who still had the awe of the Caliph, that is the period which Ibn Khaldoun describes as the golden age of the Muslim Caliphate.

This research deals with the personal life of the Moslem Caliph. It is an attempt to see deep inside the real and delay life of the caliphs

The most important question which the study tries to answer is: What were the most important, factors that played the basic role in shaping the Caliph's personality? And examine why the historians described some caliphs as “great” while others were not described so.

The study consists of an introduction, four chapters and a conclusion. The first chapter entitled: **A Historic Background**. This chapter dealt with the subject of the Caliphate and caliphs and how they ruled and how the Muslims reacted to their rule. This Chapter is considered to be theoretical framework of the study.

It is taken for granted that the caliphate was not set up by a legislation or Islamic Law, but rather was set up by the need to rule. The difference in the ways of the accession of each of the Orthodox caliphs confirms the non-existence of a clear religious text of the mechanism of the accession of the caliph to the post. Also the caliphate arose according to the conditions that the Muslims had and according to the family interests of the caliphs, especially in the Umayyad and Abbasid periods. The accession of the caliphs to the throne of these two periods was based on the inheritance system that was known in that period, especially in the neighboring.

The Second chapter deals with the images of the caliphs as the historians depicted to us. This chapter comes entitled: “**The factors that shaped the caliph's personality**”. That this chapter clarified that the great caliphs are those whom the history books collected a lot of details about their lives even if their rule was short. Such as Umar Ibn Abdel al Aziz. The

Books mentioned in some detail his education, tutors, and growing up, While those books did not mention in details and accuracy other caliphs who lived in the same period and ruled for long periods such as his cousin Abd al Malik Ibn Marwan.

There is a lot of information about some caliphs because their fathers and grandfathers had been caliphs such as: Harun Al-Rashid, Al-Ma'mun, Al-Amin and others. It is clear that the information available about the education and bringing up of the caliphs in the Abbasid period is more detailed than the information about the caliphs in the Umayyad Period. We should mention that we have a lot of information about the lives of the Orthodox caliphs. The information about the Umayyad period could have been lost because of the obliteration and marginalization which the Umayyad legacy suffered at the hands of the Abbasids and because of the bias to their Abbasid enemies.

The Third Chapter comes under the heading: “**The family relationships inside the caliph’s family**”. The focus in this chapter was made on the relationship of the Orthodox Caliph with his sons and wives. Also gives similar models from the Umayyad and Abbasid periods. The study indicated that the study did not adopt one system of dealing with their sons, wives and woman slaves; we did not find just one model of the nature of the nature of the family relationships inside the Caliphs’ homes. Some of them were firm with their sons and wives such as Omar Ibn Al-Khattab and Abdel Malik Ibn Marwan. There were also some who were not firm and even allowed their wife’s to interfere with the ruling affairs such as Al-Mahdi and his wife Al-Khaizoran. It is noteworthy that a number of the great caliphs had wives who distinguished themselves in some fields such as the effort and wisdom such as Aatika wife of Abdel Malik, Al-Khaizoran wife of Al-Mahdi and Zubeida wife of Haroum Al-Rasheed.

The fourth Chapter comes under the title: “**The ends of Caliphs**”. This chapter focuses on the ages, lives, and deaths of the caliphs. This stage could be the revealer of the nature of the minor society which the caliphs lived, in which there were a lot of plots. The research also focused on the ages of the caliphs whom the study included. A quick reading of their ages might indicate that they lived medium ages if not short ones compared with to the ages of scholars who lived in their age.

As to the **results** which the study reached, there are several points the most important of which indicate that the caliphs had no holiness among the Moslems who lived in their ruling periods, unlike the holiness which they had in later periods. This applied to Orthodox caliphs, “Promised with Paradise”, and the companions of Prophet Mohammad (peace upon him- as it also applied to the Umayyad and Abbasid Caliphs). But also against all this, the more we were distant from the Messenger’s, period they conferred upon themselves some awe and holiness, and surrounded themselves with more horror in order to frighten and suppress the community.

There is a clear variance in the information available about the caliphs. There is a lot of details about the personal life of some caliphs such as: Abdel Malik Ibn Marwan, Al-Mansour, Haroun Al-Rasheed and Al-Ma’moun, given that the common factor among these caliphs is their long ruling periods, Consequently, their long rule made them popular and familiar to the people who narrated their biography. But there are some caliphs whose rule had a faint light cast on them as their predecessors were greater than them. Of these we mention **Al-Waleed Ibn Abdel Malik, Al-Mahdi** and **Al-Mu’tasim**.

Although historians did not judge a certain caliph to be great because of his commitment to religion and worship, we sometimes see that the historians point this out by way of the distinction of some caliphs over others. An example is what is said about Haroun al-Rasheed who made pilgrimage one year and engaged in invasion another year. Also Al-Mahdi caliph who used to read the whole Quran (30) times in Ramadan. He was also careful to perform worships, whereas we see some caliphs were discredited for their religious defaulting. At the head of these caliphs is the caliph Al-Waleed Ibn Yazeed.

There is a clear connection between the success of the Caliph in his rule and his success in his personal life and interest in his own family. Of the caliphs who brought up their sons very well and were interested in their families and were as the same time successful in administration and politics, we mention Abdel Malik Ibn Marwan and Al-Mansour who devoted good time for their families and cared to bring up their sons in the best way.

As to women, it is noteworthy that the social position was not important few caliphs wished to marry the women of their predecessors as if women were a part of the legacy of their predecessors. It is noteworthy that

some caliphs married women much younger than themselves, some even married girls under the age of ten when they were aged sixty years and over.

An example of this is the marriage of Umar Ibn Al-Khattab with Um Kulthum bint Ali Ibn Abi Talib.

This study indicates that there are various models of the Muslim caliphs. Each model differs as to bringing up, education and treating of the members of their family. But what is common among great caliphs such as Umar Ibn Al-Khattab, Mu'awiyah, Abdal Malik Ibn Marwan, and Al-Mansur is their Arab education and the strong state they established. We add to them Harun Al-Rashid who inherited a strong state from his father and forefathers, and surrounded himself by scientists, and writers who praised him and pictured him as a great caliph. Also this is the case with his son, Al-Mamun.

## المقدمة

قد يجد الكثير من العرب والمسلمين غصة في قلوبهم وهم ينظرون إلى غيرهم من الشعوب المتحضرة حيث يقوم هؤلاء باختيار زعمائهم وقادتهم بكل حرية وبطريقة ديمقراطية. وتتمتع تلك الشعوب بمقدار كبير من الأمن كونها لا تربط مصيرها بمصير شخص واحد، مثلما يحدث في البلاد العربية والإسلامية. حيث يرتبط مصير شعب بأكمله بمصير شخص أو رئيس أو ملك، مع أنهم ورغم تمجيدهم لهذا الزعيم أو ذاك فالشعوب العربية والإسلامية تلقي بتبعية كل ما يحدث لها على عاتق هؤلاء الزعماء ويحملونهم مسؤولية كل شيء. ويتسابق المثقفون في تحميلهم مسؤولية تخلفهم في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ويبدأون بتصويب الاتهامات لهم. ولا يكتفي البعض عند هذا الحد، فهناك من يعطي النصائح لهؤلاء الزعماء بضرورة الإقتداء بالخلفاء المسلمين الأوائل أمثال عمر بن الخطاب، وعمر بن عبد العزيز وهارون الرشيد والمأمون. وفي أغلب الأحيان ينادون على المعتصم ويستثيرون في نفوس الزعماء نخوته التي أنقذت امرأة مسلمة، حيث قاد المعتصم جيش المسلمين بكامل عدته وعتاده لإنقاذ شرف امرأة عربية مسلمة. وتكثر مثل هذه النداءات في ظل ما يعيشه العالم العربي والإسلامي من ويلات. ولا تقتصر نصائح العرب والمسلمين لزعمائهم على فئة واحدة بل تتوزع بين خطباء المساجد من جهة وتتعداها لتشمل الفئة المثقفة، وليس أدل على ذلك ما تشتمل عليه الفضائيات العربية والتي تتغنى بسيرة هؤلاء الخلفاء، عن طريق ما يتم بثه من المسلسلات التاريخية التي

ص

أصبحت مجالاً رحباً ومرتعاً خصباً لتوجيه الرسائل إلى القادة الحاليين والإقتداء بالخلفاء. والتمثل بسيرهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

والسؤال الذي يطرح نفسه: هل كانت صورة الخلفاء المسلمين مشرقة كما يتصورها الكثيرون. وهل النماذج المطروحة حقاً تمثل صورة الخليفة المثالي. وما الذي يدفع العرب والمسلمين لانتقاء فترات معينة وأسماء خلفاء معينين دون غيرهم لطرحهم كمثال ونموذج.

في هذه الدراسة سيتم طرح حياة الخلفاء على طاولة البحث بدءاً بالخليفة الراشدي الأول أبي بكر الصديق وحتى الخليفة العباسي الواثق. ووقع الاختيار على هذه الفترة لأنها تمثل فترة الازدهار في الدولة الإسلامية وهيمنة الخلفاء على القرار السياسي. وسيتم التركيز في هذه الدراسة على حياة الخليفة الاجتماعية والثقافية، وعلى عائلته ومدى تأثيرها عليه. ولن يتم التطرق للجانب السياسي بشكل مباشر وذلك لاكتناظ الكتب بالحديث عن هذا الجانب، وعدم اهتمامها بالجوانب الأخرى، خصوصاً أن الحكم على هؤلاء الخلفاء سيكون من وازع إنساني ومن حيث تصرفاته الشخصية وليس السياسية.

### إشكالية الدراسة:

تحاول هذه الدراسة الإجابة على العديد من التساؤلات والقضايا، لكن القضية الرئيسية تتمثل في الإجابة على السؤال التالي "هل الواقع الذي عاشه الخلفاء المسلمون في الفترة التي تم تناولها بالبحث هي الصورة ذاتها التي يرسمها أو يتخيلها الناس عن حياتهم التي يتغنون بها، وهل يمثلون بحق النموذج للقائد المسلم في كل وقت سواءً على المستوى السياسي أو الاجتماعي أو الشخصي، وبالتالي اعتبار المسلمين للكثير منهم عظماء ويجب الإقتداء بنهجهم، أم أن هناك من

ض

النماذج التي غيبت لأسباب قد نجهل بعضها ولم تقدم على أنها نماذج مثالية ليس لشيء سوى أنها ظلمت من قبل المؤرخين ومن دونوا لتلك الفترة".

### فرضية الدراسة:

تقوم فرضية الدراسة على "أن الحياة التي عاشها الخلفاء المسلمون لم تكن مثالية بتاتاً كما يظن الكثير من المسلمين، كما أن هؤلاء الخلفاء لم يلتزموا بالشرع الإسلامي في حياتهم دائماً، بل تأثر كل خليفة بالبيئة المحيطة به وبالواقع الذي تربوا وعاشوا فيه، وبمن تلقوا العلم على أيديهم.

### تساؤلات الدراسة:

سأحاول في هذه الدراسة الإجابة على الكثير من الأسئلة المتعلقة بموضوع البحث والتي تدور في بال الكثيرين، ومن أهم هذه الأسئلة الآتي: ما هي الخلفية التي شكلت الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للخلفاء المسلمين. وبكلمات أخرى كيف عاش الخلفاء المسلمون حياتهم اليومية على مختلف الأصعدة؟ هل كان هناك حدود واضحة بين حياة الخليفة الخاصة وحياته العامة.

وعلى الصعيد الاقتصادي فسننظر في لوائحهم المالية ومعرفة سياستهم بالنسبة لتعاملهم بأموال الدولة والمسلمين، كما سنعالج موضوع علاقتهم بأسرهم النووية، وهل وجد الخلفاء متنسحاً من الوقت لممارسة طقوس الحياة الاجتماعية، أم أن اكتظاظ حياتهم بمسؤوليات الأمة قد أشغلتهم عن ممارستها بطريقة لائقة؟ ويشمل ذلك اهتمامهم بأبنائهم وبشؤونهم الخاصة ومشاركتهم عائلاتهم بهمومهم وأفراحهم. وربما يشير البعض إلى سؤال معاكس يتمثل في كون البيئة التي عاش فيها الخلفاء وفرت لهم جواً من الترف واللهو مارسوا فيه ما يريدون بل وبشكل لا يليق بهم



كخلفاء، وبالتالي أخذت ملذاتهم نصيب الأسد من حياتهم اليومية. وهل يجوز أن نطلق أحكاماً عامة في هذا المجال على كل الخلفاء، بأن نقول مثلاً أن الخلفاء عاشوا حياة مترفة ملؤها المجون، وكانوا يشربون الخمر، ويقتنون الجواري، أم أنه يتوجب علينا وضع كل خليفة في زاوية خاصة والحكم عليه بشكل منفرد عن الآخرين.

على صعيد آخر، فإن هذه الدراسة تحتوي على موضوع قد يكون جديداً من حيث الطرح، ويتمثل في أعمار الخلفاء ومعدلات أعمارهم؛ والسؤال الذي يطرح نفسه هل تأثرت أعمار الخلفاء بطبيعة أعمالهم وهل مات معظم الخلفاء موتاً طبيعياً أم كانت نهاياتهم سياسية فكان نصيبهم "القتل والاغتيال والسم"؟ أما السؤال المحوري فهو كيف أثرت نشأة الخلفاء على عملهم السياسي وإلى أي مدى؟ وهل كان لتقافتهم وبيئتهم العلمية دور في بلورة شخصيتهم وممارسة وظائفهم؟ وهل كان لهم إسهامات وإنجازات علمية؟.

ومن ثم نتطرق الدراسة لواقع الخلفاء الذين يعتبرهم الكثيرون نماذج للخلفاء المسلمين بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، وفحص فيما إذا كان هؤلاء الخلفاء يختلفون عن غيرهم من الخلفاء في حياتهم وتصرفاتهم؟ وما هو الشيء الذي جعلهم يُتخذون كنموذج يحبذ أن يقتدي به الجميع؟ ولماذا تطرح أسماء بعض الخلفاء دون غيرهم؟ هل من كان مثقفاً يعتبر أفضل من غيره، أم أن ثقافة الخليفة لم تُشكل العنصر الأساس لشخصيته، أم أن الجانب الديني هو الذي يجعل الخليفة نموذجاً أم لا، أم أن هناك جوانب أخرى تلعب دوراً في بروزهم كشخصيات فرضت نفسها في الكتب التاريخية؟ فعلى سبيل المثال لماذا يوضع خليفة مثل عمر بن عبد العزيز في

ظ

قالب غير ذلك الذي يوضع فيه خليفة مثل هشام بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك، مع أن عمر لم يحكم إلا لفترة بسيطة.

## أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة في التركيز على حياة الخلفاء اليومية، وتسليط الضوء على هذا الجانب من حياة الخلفاء دون غيره. إن التركيز على واقع الخلفاء الاجتماعي والعلاقات التي كانت تسود بيوت الخلفاء، وما يتعلق فيها من إحصائيات حول أعداد أبناء الخلفاء وزوجاتهم، لهو محاولة لرسم صورة واقعية لأسرة الخليفة، والتعاطي مع الخلفاء كأشخاص وليس كمناصب. هذه الدراسة هي محاولة لإنصاف الخليفة الإنسان والنظر له على أنه فرد وليس مجرد منصب سياسي، لأننا عند الحكم على أي شخص نحكم عليه من خلال أعماله، التي تكون في الغالب مرآة تعكس حياته الاجتماعية والاقتصادية والفكرية.

وتأتي أهمية الدراسة كذلك من اعتمادها بالأساس على المصادر التاريخية العربية الأولية، مثل تاريخ الطبري، وكتاب مروج الذهب للمسعودي، ومؤلفات الذهبي مثل تاريخ الإسلام، وسير أعلام النبلاء وغيرها من كتبه، وابن عساكر الذي كثيراً ما ذكر معلومات متعلقة بالخلفاء وأبنائهم وزوجاتهم.

الدراسة تحاول أن ترسم صورة أوضح عن حياة الخلفاء الشخصية والعائلية وهي دعوة لكل من يقرأها ليقارن بطريقته الخاصة بين حياة خلفاء المسلمين وبين حياة رؤساء وملوك العرب

والمسلمين اليوم. مع العلم أن هذه الدراسة هي أيضاً نتيجة لرغبة شخصية بهدف الإطلاع على واقع الخلفاء المسلمين اليومي والمعاش وبعيداً عن أجواء السياسة.

## محتوى الدراسة:

أما عن هيكلية الدراسة فقد تم تقسيمها إلى أربعة أقسام: جاء القسم الأول كمقدمة عن كيفية نشوء مفهوم الخلافة في الإسلام خلفية تاريخية لظهور النظام السياسي الإسلامي وتمت عنونته بـ "خلفية تاريخية". في حين جاء القسم الثاني تحت عنوان "العوامل المبلورة لشخصية الخليفة المسلم"، وتتناول نشأة الخليفة المسلم، وتربيته، "ثقافته" والمقصود بذلك مستواه التعليمي. أما الفصل الثالث فقد تم تخصيصه للحديث عن أسرة الخليفة، وتم التركيز فيه على العلاقات الأسرية داخل بيت وقصر الخليفة، والوقت الذي خصه الخليفة للاهتمام بعائلته، كما تم اعداد إحصائية عن عدد أبناء وبنات وزوجات الخليفة. وجاء هذا الموضوع تحت عنوان "العلاقات الأسرية داخل بيوت الخلفاء". أما الفصل الرابع فخصص لدراسة موضوع أعمار الخلفاء المسلمين ودلائل هذه الأعمار وما يمكن أن نستنتج من خلال الإحصائية التي تم اعدادها في هذا الفصل، وتتاول الجزء الثاني من الفصل الرابع نهايات الخلفاء وكيف كانت هذه النهايات، وحمل هذا الجزء عنوان "المحنة الأخيرة في حياة الخلفاء المسلمين". هذا إضافة للمقدمة والخاتمة وقائمة المراجع والمصادر.

## منهجية الدراسة:

تقوم هذه الدراسة على المنهج التاريخي، فالاعتماد فيها بشكل أساسي على المصادر التاريخية الخاصة بالتاريخ العربي الإسلامي، وذلك بسبب قربها من الفترة المدروسة.

ف

وتم فحص المعلومات التاريخية هذه وتحليلها قدر الإمكان، وتم رصد مواضع التحيز لدى بعض المؤرخين، وبالتالي الحكم على هؤلاء المؤرخين ومدى تحيزهم ودقتهم في البحث عن المعلومات عن الخلفاء، ومدى تمييزهم بين خليفة وآخر "إن وجد مثل هذا التحيز". إن الفصول الأولى يغلب عليها المنهج الوصفي، لكن ذلك شر لا بد منه لتتبع نشوء نظام الخلافة. وكذلك طرح الصورة النمطية كما تصفها لنا الكتب التاريخية.

كما تم الإشارة بين الفينة والأخرى إلى من اعتبرتهم المصادر النماذج المنتقاة ومن يمثلون النموذج الأبرز بين الخلفاء.

### صعوبات الدراسة:

إن الصعوبة الأبرز في هذه الدراسة أنها تناولت في جانبها الأوسع البحث والتنقيب عن حياة الخلفاء الخاصة، وبالتالي لن يكون من السهل الوصول إلى معلومات كافية لتشكيل صورة واضحة، خاصة أن الدراسة ركزت على الجانب الأسري ومعالجة دور الخليفة كأب وزوج، إضافةً لتناثر هذه المعلومات هنا وهناك بين صفحات المصادر الكثيرة. من جانب آخر كان هناك صعوبة كبيرة في التوصل لإحصائيات معينة متعلقة بأعمار الخلفاء وذلك بسبب تضارب الأرقام المتوفرة عن سنوات الولادة والوفاة، وكذلك الحال فيما ينطبق على أعداد أبناء الخلفاء وزوجاتهم، فقد كان من الصعب إعداد قائمة احصائية بأعداد أبناء الخلفاء وزوجاتهم بسبب قلة اهتمام المصادر بهذا الجانب. أما المشكلة الأكبر فتجلت في طول الفترة الزمنية المدروسة، الأمر الذي تطلب الكثير من العمل والتنقيب. لقد أثر طول الفترة الزمنية على نوع المعلومات التي احتوت

ق

عليها الدراسة. وبسبب طول الفترة الزمنية التي عالجتها الدراسة تم التركيز على بعض الخلفاء أكثر من غيرهم ليكونوا أمثلةً عن باقي الخلفاء.

### تقييم المصادر:

لقد تم الإشارة سابقاً إلى نوعية المصادر التي تم الإعتماد عليها بشكل أساسي في الدراسة، فالاعتماد الأكبر سيكون على المصادر في التاريخ العربي الإسلامي، مثل كتب المؤرخين العظام أمثال الذهبي والطبري وابن الأثير وابن خلدون والمسعودي وابن عساكر واليعقوبي، إن هذه المصادر رغم غناها بالمعلومات إلا أن هناك تغييباً واضحاً لبعض المعلومات التاريخية التي تهمنها، كما أن معظمها لا تقوم بالتحليل والتمحيص في المعلومات التي تذكرها، مع أن البعض منهم يذكر أحيانا بعض الإشارات التي ترجح رواية على أخرى أو معلومة على معلومة. لا بد من الإشارة هنا إلى أن كتاب ابن سعد "الطبقات الكبرى" قد وفر مادة خصبة لفترة الخلفاء الراشدين. وكتاب مروج الذهب للمسعودي وفر معلومات جيدة عن كل الخلفاء، وأعطى معلومات قيمة عن طبيعة العلاقات داخل بيوت وقصور الخلفاء، إلا أن المسعودي كان يكتفي بين الحين والآخر بالجملة "وهذه المعلومات موجودة في كتابي الأوسط" الذي لم يصلنا وبالتالي جاءت الصورة غير مكتملة في بعض الأحيان عن بعض الخلفاء. وقد أفرد كتاب تاريخ الخلفاء للسيوطي صفحات كثيرة عن بعض الخلفاء، في حين نجده يترجم لخلفاء آخرين ترجمات مختصرة جداً ومن المستغرب أنه اختصر ترجمة خلفاء مهمين مثل هشام بن عبد الملك وأخيه يزيد. قد نفهم أن السيوطي لم يرد الاستفاضة في الحديث عن ملاهي يزيد، لكن كيف لنا أن نفهم تغاضيه عن فترة

هشام التي استمرت عشر سنوات مهمة جداً شهدت أحداثاً كثيرة وكبيرة تستحق الوقوف عندها. ولسنا ببعيدين عن تأثير الهوى الهاشمي "الشيوعي والعباسي" على اليعقوبي الناقم على معظم الخلفاء الأمويين، وهذا ما جعله يكيل بأكثر من مكيال عند الحديث عن الخلفاء الأمويين والعباسيين. فهو يبالغ في مدح العباسيين ويقلل في الوقت نفسه من شأن الأمويين.

إن بعض المصادر الأدبية وفرت معلومات جيدة عن الفترات الإسلامية المختلفة. صحيح أن الطابع الأدبي غلب عليها إلا أنها شكلت مصدراً هاماً من مصادر التاريخ الإسلامي. فهناك مصادر مثل كتاب الأغاني للأصفهاني تعرض لكثير من النقد بسبب مبالغتها في وصفها بللهو والترف داخل قصور الخلفاء، ومع ذلك فإن ما ذكره الأصفهاني في كتبه ذكرته كتب تاريخية كثيرة تناولت أيضاً مواضيع مثل زهد أبناء الخلفاء، وهجرهم لبيوت الخلافة بسبب ما شهدته هذه القصور من لهو وترف وابتعاد عن الجوانب الروحية للإسلام. تجدر الإشارة إلى أنه تم التعاطي مع كل الروايات المتوفرة في الكتب التاريخية والأدبية وغيرها في هذه الدراسة دون نقدها.

بقي أن أشير إلى ما يحمله عنوان البحث "الخلفاء المسلمون الواقع والنموذج وبعيداً عن السياسة" من مضامين، فهو يحمل مضمونين: المضمون الأول يشير إلى النموذج بين الخلفاء المسلمين في الفترة المدروسة، فمن منهم يمثل النموذج للحاكم العربي، ومن منهم يماثل واقعنا المعاش اليوم، ومن منهم نجح في خلافته في الوقت الذي نجح فيه كرب للأسرة. وهل يمثل الخلفاء بحق نموذجاً يمكننا الإقتداء به أو نطمح إلى الوصول إليه في وقتنا الحاضر؟. أم أن ما عرفناه عن الخلفاء من نخوة وشجاعة كان تبعاً لظروف تاريخية معينة. وبالتالي فهذا البحث محاولة لبيان حال النموذج الذي نطالب جميعاً كمسلمين بإعادة المجد له والإقتداء به.

## الفصل الأول

### خلفية تاريخية:

تمركز النظام الإسلامي حول مفهوم الخلافة بعد وفاة الرسول محمد "ص"، حيث شكل نظام الخلافة أحد أقوى أسباب الصراعات التي ظهرت في التاريخ الإسلامي، ودفاعاً عن حق الحصول على منصب الخليفة تمحورت أفكار أهم الحركات السياسية في الإسلام، وقبل الحديث عن الخلفاء لا بد من العودة إلى بداية ظهور الخلافة في التاريخ الإسلامي، وإلقاء نظرة خاطفة على وجهة نظر الخلفاء بمفهوم ومصطلح الخلافة، وإعطاء لمحة عامة عن الخلفاء الذين حكموا خلال الفترة الخاضعة للدراسة.

لعل مفهوم الاستخلاف الذي ظهر في بداية تشكيل الدولة الإسلامية في المدينة المنورة هو البذرة، أو الأساس لمفهوم الخلافة. والاستخلاف عنى الإنابة عن الرسول محمد "ص" الحي، أثناء وجوده خارج المدينة المنورة لفترة زمنية معينة. واستخلاف الرسول لأحدهم كان يهدف إلى تسيير شؤون الحياة العادية إضافةً لرعاية أسرة الرسول محمد "ص" وإقامة الصلاة. وتجدر الإشارة إلى أن الاستخلاف لم يكن متصلاً بالأمر الديني، لأن أمر الدين وشؤون العقيدة كانت من اختصاص النبي وحده بمراقبة الوحي، وكان الرسول يباشر هذه الأمور من أي مكان يوجد فيه، وفي أي وقت يمر عليه سواء داخل المدينة أم خارجها<sup>(1)</sup>. وكان الرسول حريصاً على قضية الاستخلاف. ومن الأمثلة على ذلك خروج الرسول "ص" إلى غزوة تبوك، حيث قال لعلي قبل خروجه، "لا بد من أن



أقيم أو تقيم"، وسار جيش المسلمين بقيادة الرسول إلى تبوك غازياً، فقال الناس: ما خَفَّ عَلَيَّ إِلَّا لشيءٍ كرهه منه، فبلغ هذا الكلام علياً، فاتبع رسول الله "ص" حتى انتهى علي إليه، فقال الرسول "ص" لعلي: "ما جاء بك يا علي؟ قال: يا رسول الله إني سمعت أناساً يزعمون أنك خَلَفْتَنِي لشيءٍ كرهته مني، فتضاحك رسول الله "ص"، وقال: يا علي أما ترضى أن تكون مني كهارون من موسى غير أنك لست بنبي؟ قال: بلى يا رسول الله، فقال الرسول عليه السلام: فإنه كذلك"<sup>(2)</sup>. وكان محمد عليه السلام يمثل السلطتين الدينية والدينيوية، فكان نبياً ورجل دولة في آن واحد، وجاءت رسالته السماوية الموجهة للناس كافة، لتبني إمبراطورية جديدة ولم تأت لتنافس أي نظام سياسي بعينه<sup>(3)</sup>. لقد اعتقد المؤمنون أن محمداً عليه السلام يسوسهم عن طريق الوحي بالرغم من أن الرسول نفسه كان ينفي هذا الاعتقاد، فعندما سئل عن إحدى القضايا الدينيوية أجاب الرسول عليه السلام: "أنتم أعلم بشئون دنياكم".

يصعب الحديث عن نظام سياسي متطور في فترة الرسول محمد "ص" لأن الدولة لم تكن قد تشكلت بعد بالوضع الذي أصبحت عليه بعد الفتوحات وانتشار الإسلام. كان محور عمل المسلمين الأوائل تجسيد النظام السياسي الذي عمل على بلورة الشرع الإلهي كشرع وشرعية أو كقانون اجتماعي<sup>(4)</sup>.

ولعل مسألة خلافة الرسول سياسياً شكلت القضية الأكثر إثارة للجدل في التاريخ الإسلامي. حيث اختلف المسلمون على المؤهلات التي يجب أن تتوفر في الشخص الذي يرشح أو يعين كخليفة للرسول "ص". ومثلت سقيفة بني ساعدة بداية لتشكيل قيادة تنوب

عن محمد عليه السلام الذي غاب جسداً وبقي روحاً، ووقع الاختيار على أبي بكر الصديق ليكون أول الخلفاء وسط تأييد معظم المسلمين لهذا الاختيار، وقد تم هذا الاختيار لاعتبارات كثيرة<sup>(5)</sup>. فقد اشتهر بسابقته إلى الدين وجهوده الكبيرة في الدعوة حيث أسلم على يده عدد كبير من الصحابة منهم عثمان بن عفان والزبير ابن العوام وآخرون. كما أنه شهد المعارك كلها مع الرسول "ص". وكان أبو بكر تاجراً أنفق رأس ماله والبالغ أربعين ألف درهم، في سبيل الله وخاصة في عتق رقاب الأرقاء من المسلمين ووضع ما بقي معه من مال تحت تصرف الرسول "ص"، وترك خوخة داره مشرعة على المسجد دون بقية الصحابة، ولكي يوثق الرسول "ص" صلته بأبي بكر، قام بمصاهرته حيث تزوج الرسول بعائشة ابنة أبي بكر<sup>(6)</sup>، وأما كنيته الصديق فهو اسم لقبه الله به، فقد ردد علي على مسامع الصحابة أكثر من مرة قوله: "إن الله سمى أبا بكر على لسان نبيه صديقاً"، وفي مرة أخرى روي عنه قوله: "أنزل الله اسم أبي بكر من السماء الصديق"<sup>(7)</sup>. أما أهم الأسباب التي شجعت المسلمين على اختيار أبي بكر خليفة للرسول اختيار الرسول "ص" لأبي بكر كي يئم المسلمين في الصلاة أثناء مرضه، ورغم أن المسلمين طلبوا من الرسول "ص" أن يضع شخصاً آخر بدلاً عنه لإمامتهم في الصلاة إلا أن الرسول "ص" أجابهم بقوله: "لا ينبغي لأمتي أن يؤمهم إمام وفيهم أبو بكر"<sup>(8)</sup>. وقاس الصحابة الخلافة على الصلاة حيث يذكر ابن خلدون قول الصحابة في سقيفة بني ساعدة عن اختياره بقولهم: "ارتضاه - أبا بكر - رسول الله "ص" لديننا، أفلا نرضاه لديننا"<sup>(9)</sup>. وتمّ تنصيب

أبي بكر الصديق قبل دفن الرسول محمد "ص" كقائد للأمة الإسلامية وكخليفة للرسول "ص".

ورغم أنّ الرسول عليه السلام لم ينصب أحداً خليفة على رأس الهرم السياسي قبل وفاته. إلا أن أبا بكر اتخذ نهجاً مُعابراً، حيثُ قام قبل وفاته بتتصيب عمر بن الخطاب وذلك من خلال وصيّةٍ مباشرةٍ بتعيين عمر خليفة له، رغم بعض الاحتجاجات من الصحابة بسبب شدة عمر عليهم. وتولى عمر أمر المسلمين وأصبح خليفة خليفة رسول الله "ص"، ولُقّب بأمرير المؤمنين وحكم مدة عشر سنوات. وعندما طُعن في المسجد، سأله الصحابة في العهد فقال: "إن أعهد لقد عهد من هو خير مني يعني أبا بكر، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني يعني النبي "ص"<sup>(10)</sup>. أرسى عمر بن الخطاب قواعد الشورى في اختيار الخليفة فشكل لجنة سداسية، واختار عمر هذه اللجنة من المبشرين بالجنة لتختار أحدهم خليفةً جديداً للمسلمين. وتمّ بهذه الطريقة اختيار عثمان بن عفان<sup>(11)</sup> الذي وقع الاختيار عليه بعد المفاضلة بينه وبين علي بن أبي طالب. وكان سبب هذا الاختيار يرجع إلى كون عثمان أكبر سناً ولأنّه أجاب عندما سأله عبد الرحمن بن عوف بماذا ستحكم أجاب بسنة الرسول وبسيرة الإمامين أبي بكر وعمر. وبعد مقتل عثمان بن عفان في العام خمسٍ وثلاثين ببيع لعلي بالخلافة وبايعه طلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعمار بن ياسر، وأسامة بن زيد... وجميع من كان بالمدينة من أصحاب رسول الله "ص" وغيرهم. وقد بايع طلحة والزبير علياً كارهين غير طائعين، وخرجا إلى مكة.

وحدثت في فترة علي وقعة الجمل حيث انتصر علي على طلحة والزبير. ثم حدثت صفيين بين جيش علي وجيش معاوية بن أبي سفيان<sup>(12)</sup>.

يحتج البعض بأن الخلافة كمفهوم يقتصر على فترة الخلفاء الراشدين محتجين بما رواه أبو داود والترمذي من حديث سفينة<sup>(13)</sup>، ان رسول الله "ص" قال: "الخلافة في أمتي ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك". فأحصى المسلمون "خلافة أبي بكر و خلافة عمر و خلافة عثمان ثم قال: خلافة علي و خلافة الحسن، فوجدوها ثلاثين سنة"<sup>(14)</sup>.

رغم وجود تعريفات متعددة لمفهوم الخلافة من قبل علماء الفقه الإسلامي والمؤرخين إلا أنها لا تخرج عما ذكره العلامة أبو الحسن الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية بأنها "موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدولة"<sup>(15)</sup>. وكان للخلفاء الراشدين نظرة خاصة بمفهوم الخلافة، فقد سئل أبو بكر الصديق من قبل أعرابي: "أنت خليفة رسول الله "ص"؟ فقال أبو بكر: لا، قال الأعرابي: فما أنت؟ قال أبو بكر: أنا الخليفة بعده أو قال: أنا خالفه ولست خليفته"<sup>(16)</sup>. بمعنى أنه خلفه بالزمان، أو تبعه بالوقت، ولكنه ليس بدلاً عنه أو خلفاً منه. وقد سأل عمر بن الخطاب طلحة والزبير وكعباً وسليمان عن الفرق بين الخليفة والملك، فقال طلحة والزبير: لا ندرى، فقال سليمان: "الخليفة الذي يعدل في الرعية ويقسم بينهم بالسوية، ويشفق عليهم شفقة الرجل على أهله، والوالد على ولده، ويقضي بينهم بكتاب الله تعالى". فقال كعب: "ما كنت أحسب أن في هذا المجلس من يفرق بين الخليفة والملك، ولكن الله تعالى ألهم سلمان حكماً وعلماً"<sup>(17)</sup>.

ولعل هذا يشير بوضوح إلى فهم الصحابة لمعنى الخلافة بأنها استمرارية لما كان يقوم به الرسول. وبما وضعه من أسس العدالة، والرحمة بين رعيته والحكم بشرع الله.

تلازم فهم الخليفين أبو بكر وعمر لمفهوم الخلافة مع ممارستها العملية لمسؤوليات الخلافة، حتى اعتبرت معظم الكتب التي تحدثت عن هذه المرحلة في التاريخ الإسلامي أنها إمتداد لفترة الرسول محمد "ص"، حيث جمع أبو بكر وعمر بن الخطاب بيدهما مختلف الصلاحيات المتصلة بالدين والدنيا معاً، بسبب شخصيتهما ومهابتهما في نفوس المسلمين. وقد اختار أبو بكر عمر بن الخطاب خليفة للمسلمين قبل وفاته لأنه رأى فيه تلك الشخصية القوية المهابة والمؤهلة لحكم المسلمين الذين أنهوا حروب الردة ليوحدوا الأمة الإسلامية من جديد. ولم تكن هذه نظرة أبي بكر وحده وإنما كانت نظرة غالبية المسلمين، فهو من قال عنه الرسول محمد "ص": "لو كان نبي بعد النبي لكان عمر"<sup>(18)</sup>. يمكن القول بأن معظم المصادر التاريخية التي تتحدث عن فترة عمر تشير بوضوح إلى أن عمر وضع مصلحة الإسلام والمسلمين نصب عينيه، وغلب مصلحة المسلمين على مصالحه الشخصية، بل أنه في بعض الأحيان غيب بعض التشريعات تحقيقاً لمصلحة المسلمين، نذكر منها إغائه زواج المتعة وحقوق المؤلف قلوبهم من الصدقات، كما أنه منع الفاتحين من الاستيلاء على الأراضي المفتوحة، رغم اختلاف غالبية المسلمين معه واستنادهم إلى آية الغنائم، وإلى سنة النبي محمد "ص" في تقسيم أراضي خيبر بعد فتحها<sup>(19)</sup>. وكان عمله يهدف إلى تحقيق مصلحة المسلمين وسكان البلاد

المفتوحة في آن واحد. فعمر بن الخطاب الذي كان يؤكد دائماً على أهمية مصلحة المسلمين وأرواحهم، كان دائماً يقول: "أن رجلاً مسلماً هو عنده أعلى من ألف دينار"<sup>(20)</sup>.

وبالانتقال إلى فترة عثمان بن عفان نجد أن الكثير من المؤرخين يميزونها عن فترة أبي بكر وعمر. فقد اتخذت فترة عثمان منحىً آخر خاصة في نصفها الثاني، علماً أن عثمان حكم 12 سنة. ويعتبر بعض المؤرخين بأن عثمان غير في بعض الأمور التي سادت عصر النبي وخلفائه الاثني عشر من بعده. وسبب ذلك ما قام به عثمان بن عفان من أمور جعلت الناس ينقمون عليه خاصة عندما تأكدوا من خروجه عن خط من سبقوه، بل واستحدثه أشياء في الدين لم يسبق لأحد أن أمر بها أو فعلها، ومخالفته أحياناً أوامر مباشرة للرسول "ص" مثل إعادته لعمه الحكم بن العاص للمدينة بعد أن كان الرسول قد نفاه ولم يقبل بشفاعة عثمان له، كما أنه أول من خفض صوته بالتكبير، وأول من أمر بالأذان يوم الجمعة، وأول من أقطع القطائع، وأول من أخذ الزكاة على الخيل وكان الرسول عليه السلام قد أعفى المسلمين من زكاة الخيل والرقيق<sup>(21)</sup>. ومما زاد من غضب المسلمين على عثمان مضاعفته لعطايا الناس خاصة من أقربائه، والسماح لوجوه المدينة بمغادرتها مخالفاً بذلك قدوتهم عمر بن الخطاب، الذي تخوف من انشغالهم بأمور الحياة وزينتها، والتنافس فيما بينهم، والعمل لصالحهم وليس لصالح المسلمين. ومن أهم الأسباب للخلاف مع عثمان ميله المفرط لقبيلته الأموية وفتحته لخزائن بيت المال أمام أهله وأقربائه. وبذلك يكون عثمان بن عفان قد فتح الباب على مصراعيه للصراع القبلي على الساحة السياسية، فجاء هذا الصراع منشحاً ومتسترأً بعباءة الدين والشريعة. وكان أول

هذه الصراعات ذلك الصراع الذي دار بين الأمويين "حزب عثمان" بزعامة معاوية، وحزب بني هاشم بزعامة علي<sup>(22)</sup>. وقد نتج عن سياسة عثمان بن عفان ظهور معارضة سياسية ليس فقط في المدينة المنورة وإنما أيضاً في الأمصار الأخرى. وأعلن المقاتلة في هذه الأمصار أن مال الفيء والغنائم للمسلمين وليس للحكومة، ولعن عثمان جهاراً. وقامت، كما يذكر الطبري، حركة سياسية تعتبر الأخطر بزعامة اليهودي عبد الله بن سبأ الذي أسلم وقام بتحريض أبي ذر الغفاري الذي تحدى سياسة عثمان وواليه معاوية، مما دفع عثمان لتحديد إقامته في قرية الربذة القريبة من المدينة<sup>(23)</sup>. وكان أخطر ما بثه عبد الله بن سبأ من أفكار تلك المأخوذة عن الفرس مثل نظرية الحق الإلهي، حيث بث بين الناس أن عثمان قد اغتصب الخلافة من علي الذي هو وصي الرسول محمد "ص" وهو الذي يستحق الإمامة والخلافة، بل أنه خاتم الأوصياء والذي يستمد حكمه من الله. وقد نجحت هذه الحركة بفضل انضمام الأغنياء والفقراء وخيرة المسلمين من أمثال محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة إليها<sup>(24)</sup>.

في هذه المرحلة ولأول مرة ورد تعبير خلافة الله على لسان خليفة وذلك في كتاب لعثمان أثناء حصاره في منزله، وبعد أن طلب منه المتمردون أن يتبرأ من الإمامة ويعتزل. فكان رد عثمان واضحاً حيث رفض التنحي عن منصب الخلافة وشبه الخلافة بالقميص حيث قال "لا أنزع قميصاً البسنيه الله، ولكني أتوب وأنزع". قالوا: "لو كان هذا أول ذنب تبت منه قبلنا، ولكننا رأيناك تتوب ثم تعود ولسنا منصرفين حتى نخلعك أو نقتلك أو تلحق أرواحنا بالله تعالى، وإن منعك أصحابك وأهلك قاتلناهم حتى نخلص إليك".

فقال: "أما أن أتبرأ من خلافة الله، فالقتل أحب إليّ من ذلك"<sup>(25)</sup>. وبهذا النص ولأول مرة وردت صيغة "خلافة الله". ويرى محمد سعيد العشماوي في نفس السياق أن عثمان لم يكن يقصد بها المعنى الحرفي الذي يفيد أن الله سبحانه استخلفه وهو أمر لم يرد على فهم الخلفاء الراشدين جميعاً، وإنما قصد به المعنى المجازي الذي كان شائعاً في الفترة التي سبقت الإسلام كأن يقول الشخص يمين الله، وشاهد الله (كل شيء ينسب إلى الله). ويرى أن "خلافة الله" هي تعبير أموي صاغه لعثمان بن عفان مروان بن الحكم مستشاره والمتصرف بأموره. وأخذ معاوية هذا التعبير ليجعل منه صيغة إسلامية لمبدأ حق الملوك المقدس في الحكم<sup>(26)</sup>. وجاءت نهاية عثمان بن عفان على يد المسلمين أنفسهم حيث قُتل بضربه بآلات حادة وبالسيوف عام 35هـ.

بعد مقتل عثمان واجه الخليفة الجديد علي بن أبي طالب مجموعات معارضة وعلى رأسها طلحة والزبير ومعاوية بن أبي سفيان. ففي حين استطاع الانتصار على حزب طلحة والزبير وعائشة، لم يتمكن من الانتصار على حزب بني أمية الذي طالب بدم عثمان. وقد نتج عن هذا النزاع ظهور أحزاب جديدة عارضت علي وعلى رأسها الخوارج<sup>(27)</sup>.

يجمع معظم المؤرخين على أن هذا النزاع قد أثر سلباً على التاريخ الإسلامي، إلا أن برهان غليون يرى أن هذا النزاع قد انشأ الدولة الإسلامية، وأكد على أن السلطة المركزية للدولة الإسلامية بدأت أو فرضت نفسها في عهد عثمان بن عفان وذلك من خلال ما قام به من توحيد نسخ القرآن الكريم بقراءة واحدة وتوزيعها على عماله في



الأمصار. ويرى كذلك أن انتصار معاوية على علي يمثل انتصار السياسة على الدين، وأصبح الدين يتبع الدولة بعد أن كانت الدولة تتبع الدين<sup>(28)</sup>. وتجدر الإشارة هنا إلى أن علي انتهج سبيل أبي بكر وعمر من حيث السير على نهج الدين، لكن الظروف التي أحاطت بخلافته كانت أقوى منه، أو لربما أنه لم يكن ذلك الشخص صاحب الخبرة السياسية التي أخذت على عاتقها حمل عبء أمة زاد نفوذها واتسعت حدودها، وكانت قبيلته (بني هاشم) تسير في نفس الاتجاه الذي يفضل ويُقوِّم السياسة على الدين. وعليه فإن النصر الحاسم للسياسة على الدين جاء على يد معاوية بن أبي سفيان الذي اعتبرته المصادر التاريخية بأنه من أهم القادة العباقر في السياسة<sup>(29)</sup>. وقد حاول معاوية استغلال فكرة الحق الإلهي لتثبيت حكمه حيث أكد على هذه القضية حين قال: "الأرض لله وأنا خليفة الله، فما أخذتُ لي وما تركته للناس فبالفضل مني". ويشير هذا القول إلى فكرة استخلاف الله له مباشرة، وإطلاق يده وفعل ما يشاء. في هذا المعنى قال أبو ذر الغفاري: "إن قول معاوية المال مال الله يهدف إلى حجبه عن المسلمين، وبالتالي كان معاوية يهدف من وراء ذلك إلى حجب الحكم والخلافة عن المسلمين ومنع أي فرد من التطلع لها والطمع فيها". وحرص معاوية على تنصيب ابنه ولياً للعهد من بعده ليضمن بقاء الخلافة في بني أمية وفي صلبه شخصياً. وعند تنصيبه قام المغيرة بإشهار السيف لمن لا يرضى بحكم يزيد<sup>(30)</sup>.

امتازت الخلافة بالعهد الأموي ومنذ بداية حكم معاوية "بأنها سلطنة دنيوية يحكمها خليفتها بالدهاء والسياسة، ويستدني الناس بالإرهاب ويؤيد سلطانه ببذل الأموال"<sup>(31)</sup>.

وقد يقف البعض مدافعين عن الأمويين، فعلى سبيل المثال يرى ابن خلدون أن تنصيب معاوية لابنه يزيد وإعطائه ولاية العهد جاءت كخطوة لمنع افتراق كلمة المسلمين وخاصة بني أمية الذين لن يرضوا بأن يستلم غيرهم الأمر. ونفى ابن خلدون عن معاوية وخلفائه صفة الفسق التي يتهمم بها البعض، ويقول أن مروان بن الحكم كان من الطبقة الأولى من التابعين وعدالته معروفة، ثم تدرج الأمر في ولد عبد الملك، وكانوا في الدين بالمكان الذي عرفوا به، وتوسطهم عمر بن عبد العزيز الذي اتبع طريقة الخلفاء الأربعة والصحابة جهده، ولم يهمل. ثم جاء خلف أبناء عبد الملك واستعملوا طبيعة الملك في أغراضهم الدنيوية ومقاصدهم، ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحري القصد فيها واعتماد الحق ومذاهبه ما استطاعوا<sup>(32)</sup>.

تأثر الحكم الأموي بالنظامين الفارسي والبيزنطي رغم ربطه بالعنصر العربي. ويظهر تأثيره بالأنظمة السابقة في عدة مجالات منها ظهور نظام توريث الحكم، والهيكل الإداري والسياسية مثل الدواوين ... الخ. ففي حين كان الرسول وخلفاؤه يعينون عمالاً في الولايات لا يحملون صفة سياسية ولا حتى دينية، وإنما كانوا يجمعون الزكاة ويؤمنون الناس في الصلاة، ويستمدون سلطتهم من الرسول أو الخليفة الذي كان يجمع بين السلطتين القضائية والتنفيذية عين الأمويون عدداً من الموظفين في كل ولاية. ولعل أهمهم كان عامل الخراج الذي أمسك بيده السلطة المالية، والأمير الذي كان يشرف بالأساس على الأمور السياسية والعسكرية والإدارية. وكان العامل عيناً على الأمير، والعكس صحيح. كما أصبحت مناصب الدولة المهمة تقتصر في معظمها على أفراد البيت

الأموي<sup>(33)</sup>. وقد عاش الخلفاء الأمويون في جو مترف، حيث يصف ابن خلدون الخلفاء الأمويين في الفترة المتأخرة من عهد الدولة بقوله: وكانت مهمهم "قصد الشهوات وركوب اللذات من معاصي الله جهلاً باستدراجه وأمناً لمكره، مع اطراحهم صيانة الخلافة، واستخفافهم بحق الرئاسة وضعفهم عن الرئاسة"<sup>(34)</sup>. وفي واقع الأمر اهتم الأمويون باستمرار دولتهم دون النظر لمصلحة المسلمين، فما دامت القبائل العربية تمتد الدولة بالعسكر والأموال، وتلتزم بالدين الإسلامي، وتحصل على الفوائد الكثيرة من التوسع المستمر للإمبراطورية، لم يكثر الحكام الأمويين بمشكلة الشرعية لحكمهم.

ساعدت العديد من الظروف والأحداث على التسريع بسقوط الدولة الأموية منها انهاك الدولة بالثورات الداخلية ومحاربة الأحزاب المناوئة لها وعلى رأسها ثورات الخوارج والشيعة<sup>(35)</sup>. وكان هناك هوة كبيرة بين ما طبقه الخلفاء الراشدون للخلافة كمفهوم ديني وما مارسه الأمويون من الخلافة كنظام سياسي، كما أن الأمويين استحدثوا منصب ولاية العهد، وفي كثير من الأحيان كان الخليفة يعين اثنين في ولاية العهد، مثل مروان بن الحكم عندما عين ولديه عبد الملك وعبد العزيز، وكذلك فعل عبد الملك، عندما عين ابنه الوليد وسليمان ويرى شوقي خليل أن ولاية العهد لشخصين كان لها أثر خطير على كيان الدولة الأموية، إذا أوصلتها مع العوامل الأخرى إلى نهايتها<sup>(36)</sup>.

في الوقت الذي كانت فيه هذه العوامل تعمل على التسريع في سقوط الدولة الأموية، كانت الدعوة العباسية تكسب المزيد من المؤيدين والمتعاطفين معها خاصة وأن العباسيين استخدموا الأيديولوجية الدينية، ونسبوا دعوتهم لعم الرسول محمد "ص" وحملوا

على عاتقهم نصره العلويين الذين ذاقوا صنوف العذاب على يد الأمويين. ومنذ بداية دولتهم ظهر العباسيون كحماة للدين وكوارثين للرسول محمد "ص"، وحاولوا جاهدين إظهار الأمويين بالبعيدين عن الدين وبأن حكمهم كان حكماً دنيوياً ظالماً.

ولعل أهم المظاهر الدينية التي اصطبغ بها العصر العباسي، ارتداء الخليفة بردة الرسول محمد "ص" عند توليه الحكم، وحضوره للاحتفالات الدينية، وتلقبه بالإمام. كما جمع الخلفاء حولهم العلماء ورجال الدين لينشروا نظرية التفويض الإلهي بين الناس، والتي أصبحت لها شأن كبير في الحياة العباسية<sup>(37)</sup>. ورغم محاولة العباسيين صبغ حكمهم بصبغة دينية إلا أن ما بثوه من فكر يتعلق بالحق الإلهي كان منافياً لروح الإسلام ومستمداً من الأنظمة الفارسية. فالمنصور أعلن نفسه ظل الله على الأرض بقوله: "إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه ورشده وقد جعلني الله تعالى خازنه على فيئه بمشيئته، أقسمه بإرادته، وأعطيه بإذنه، وقد جعلني الله تعالى عليه قفلاً، إذا شاء أن يفتحنى لإعطائكم، وقسم أرزاقكم، وإذا شاء أن يقلني عليه أقفني. فارغبوا إلى الله"<sup>(38)</sup>. وفي كلام المنصور نوعاً من التكرار لخطاب معاوية بن أبي سفيان، وتناقضاً لما أكده أبو بكر الصديق عندما قال له أحدهم: يا خليفة الله، قال: لست بخليفة الله ولكني خليفة رسول الله "ص"، ولموقف عمر بن عبد العزيز عندما قيل له يا خليفة الله، قال: "ويلك لقد تناولت متناولاً بعيداً، إنَّ أمي سمتني عمر، فلو دعوتني بهذا الاسم قبلت، ثم كبرت فكنتُ أبا حفص، فلو دعوتني به قبلت، ثم وليتموني أمورك فسميتموني أمير المؤمنين فلو دعوتني بذلك كفال"<sup>(39)</sup>. وقوله أيضاً: لست بخير من أحدكم ولكني أثقلكم حملاً. بينما أصبح

الخليفة العباسي مصدر كل قوة، وأحيط بهالة من القداسة، وكان زواره من رجال البلاط يقومون بالانحناء له، ويقبلون رداءه إن نالوا هذا الشرف، بل وتقبيل الأرض بين يديه، وهذا شرف لم يناله سوى الرجال البارزين في الدولة العباسية وأصبح الحكم لديهم مثل آل ساسان الفرس حيث اتخذ الخلفاء وزراء على رأس حكوماتهم واتخذوا من الخرسانيين حراساً لهم، واستبدوا بالسلطة مثلما كان حكام ساسان. وظهرت الأزياء الفارسية في البلاط العباسي، بل إن مظاهر الاحتفالات والأعياد كانت مشابهة لمظاهر الاحتفالات والأعياد الفارسية<sup>(40)</sup>. ومما سبق يظهر أن هناك تشابهاً بين العباسيين والأمويين، إلا أن دولة بني أمية كانت عربية لأن عمالها وقضاتها وسائر رجالها كانوا عرباً باستثناء بعض الكتبة والأطباء ونحوهم، أما بني العباس فقد استعانوا بشكل كبير في العصر الأول من دولتهم بالعنصر الفارسي.

كان أبو العباس السفاح أول الخلفاء العباسيين، وقد استخدم عدد من أخوته وأعمامه في تأييد سلطانه، وخلفه أخوه المنصور الذي يعتبر من أعظم رجال الإسلام دهاءً وسياسة وإدارة وشجاعة. بنى المنصور الهاشمية بالقرب من الكوفة إلا أنه كرهها فيما بعد بسبب خروج جماعة الراوندية عليه. وكان يخاف أهل الكوفة لقتلهم علي والحسين، فخرج منها وبني بغداد أشهر عواصم المسلمين. وقتل أبا مسلم الخرساني عندما أحسَّ أنه يشكل خطراً على حكمه. وبعد المنصور خلفه في الحكم المهدي ثم الهادي اللذان كان لهما أثر في تاريخ الدولة العباسية، وخلفهما هارون الرشيد الذي بلغت في عهده الدولة أوجها وأعلى درجات مجدها وعظمتها، وترجمت في عهده الكتب وزادت ثروة

الدولة. وخلفه في الحكم الأمين والمأمون، حيث استمرت الدولة في رقيها<sup>(41)</sup>. ولعل تجربة الرشيد مع البرامكة ما هي إلا دليل على قوة الخليفة الذي كان صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في الحكم. وتشير إلى أنه مهما بلغت قوة وسطوة وزرائه وأعوانه في تلك الفترة فلم يستطيعوا تخطي منزلته. ويذكر ابن خلدون أن خلفاء الرشيد هم من أترفوا أنفسهم، وتركوا الدين بقوله: "حتى جاء بنو الرشيد بعده فكان منهم الصالح، والطالح، ثم أفضى الأمر إلى بنيتهم فأعطوا الملك والترف حقه، وانغمسوا في الدنيا وباطلها ونبذوا الدين وراءهم ظهرياً، فتأذن الله بحربهم، وانتزاع الأمر من أيدي العرب جملةً، وأمكن سواهم (منهم)، والله لا يظلم مثقال ذرة"<sup>(42)</sup>. وكان المعتصم الخليفة الذي مكن الأتراك من أمور الدولة، وبنى لهم مدينة سامراء، بل وأسقط العنصر العربي من ديوان الجند، وخلفه في الحكم هارون الواثق بن المعتصم، فكان مذهبه في الدين والقول بالعدل على مذهب أبيه المعتصم وعمه المأمون بالاعتزال، والقول بخلق القرآن، وأظهر ذلك وامتنح عليه وعاقب من خلفه، وحبس من أبدى عناداً فيه، وكتب إلى القضاة بسائر الدولة أن يمتحنوا الناس، فلا يقبلوا شهادة من لم يقل بقوله. ثم كان جعفر المتوكل بن المعتصم، فأبطل ما كان يقول به الواثق وأظهر القول بالسنة والجماعة، وأطلق من كان في المحابس ممن حبس بسبب عدم القول بخلق القرآن، ونهى عن الجدل، وأمر المحدثين أن يتحدثوا. فترك الناس مقالة خلق القرآن، وأنكرها من كان يقول بها وارتفع الجدل والمناظرة<sup>(43)</sup>.

يمكن القول إن الفترة الممتدة من خلافة أبي بكر الصديق وحتى خلافة المتوكل، تمثل القوة والعظمة والإزدهار في التاريخ الإسلامي. وقد قال ابن خلدون عن هذه الفترة

إن فترة الخلفاء الراشدين، وفترة معاوية ومروان وابنه عبد الملك، والصدر الأول من خلفاء بني العباس إلى الرشيد وبعض ولده هي فترة الخلفاء الحقيقيين، ورأى أن الفترة اللاحقة لهؤلاء، كانت فترةً ذهبت فيها معاني الخلافة ولم يبق إلا اسمها، وصار الأمر ملكاً بحتاً، واستعملت في أغراضها من القهر والتقلب في الشهوات والملذات ويذكر أن سطوة الخلافة قد ذهبت<sup>(44)</sup>. ولعل ما ساعد على ازدياد الأمر سوءاً استفحال أمر الخدم والأجناد في قصور الخلفاء، وأصبحوا مطلقي الأيدي، واستبدوا في الأعمال وأذاقوا الخلفاء صنوف العذاب كما فعلوا بالمعتز 255هـ، فبعد أن عذبه، قاموا بتجسيص سرداب عليه حتى مات. ورغم ما لحق بالخلفاء من ذل وضعف لم يخطر ببال الفرس أو الأتراك، ولا حتى العرب ان ينزعوا الخلافة من العباسيين وبقيت الخلافة في بغداد حتى دخلها المغول وقتلوا خليفتها المستعصم سنة 656هـ. عندها استقبل المماليك أهل الخليفة وأحيوا الخلافة العباسية في القاهرة التي استمرت حتى فتح السلطان سليم العثماني مصر عام 923هـ، 1517م فأخذ الخلافة منهم. لقد تجاوز عدد الخلفاء العباسيين الخمسين خليفة منهم 37 في العراق، أولهم السفاح وآخرهم المستعصم<sup>(45)</sup>.

## الهوامش

(1) محمد سعيد العثماوي. الخلافة الإسلامية. (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1996). ص127.

(2) محمد بن سعد. الطبقات الكبرى. ج3. (بيروت: دار الفكر، 1410-1990). ص24.

(3) محمد جلال شرف. نشأة الفكر السياسي وتطوره في الإسلام. (بيروت: دار النهضة العربية، 1982). ص218.

(4) حنا ميخائيل. السياسة والوحي الماوردي وما بعد. تعريب محمد شكري رحيم. (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1970). ص64.

(5) برهان غليون. نقد السياسة الدين والدولة. (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1991). ص115.

(6) محمد حسين شندب. تاريخ الخلفاء الراشدين تجربة الجيل القرآني الأول. (رام الله: دار الشروق). ص15.

(7) جلال الدين السيوطي. تاريخ الخلفاء. (بيروت: دار القلم، ط1، 1986). ص38.



(8) شوقي أبو خليل. الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة. (بيروت

ودمشق: دار الفكر، 1996). ص 223.

(9) عبد الرحمن بن خلدون. المقدمة. (بيروت: دار الفكر، ط1، 2003). ص 208.

(10) المصدر السابق. ص 208.

(11) شوقي. الحضارة العربية الإسلامية. ص 230.

(12) ابن سعد. الطبقات الكبرى. ص 31-32.

(13) سفينة هو مولى رسول الله "ص" وقيل مولى أم سلمة زوج النبي "ص" وقد اعتنقه.

(14) أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي. مآثر الأناقة في معالم الخلافة. ج 1. (بيروت:

دار الفكر، 1997). ص 30.

(15) أبو الحسن الماوردي. الأحكام السلطانية. (1973). ص 5.

(16) العثماوي. الخلافة الإسلامية. ص 128.

(17) القلقشندي. مآثر الأناقة. ص 29.

- 
- (18) أبو فلاح عبد الحي الحنبلي. شذرات الذهب في أخبار من ذهب. ج1. (بيروت: دار المسيرة، ط2، 1979). ص33.
- (19) أحمد شلبي. التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج1. (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1959). ص228.
- (20) شرف. الفكر السياسي. ص68.
- (21) المصدر السابق. ص68.
- (22) العشماوي. الخلافة الإسلامية. ص9.
- (23) محمد بن جرير الطبري. تاريخ الرسل والملوك. ج3. مراجعة وتقديم: صدقي العطار. (بيروت: دار الفكر، ط1، 1998). ص52.
- (24) شرف. نشأة الفكر السياسي. ص70، وميخائيل، السياسة والوحي. ص64.
- (25) عز الدين أبو الحسن بن الأثير. الكامل في التاريخ. ج3. (الرياض: بيت الأفكار الدولية). ص395.
- (26) العشماوي. الخلافة الإسلامية، ص170.

- 
- (27) شرف. نشأة الفكر السياسي. ص 71، وميخائيل، السياسة والوحي. ص 64.
- (28) غليون. نقد السياسة. ص 58-59.
- (29) عبد الوهاب الكيالي وآخرون. موسوعة السياسة. ج 3. (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات، 1983). ص 365.
- (30) العثماوي. الخلافة الإسلامية. ص 71.
- (31) جورجى زيدان. تاريخ التمدن الإسلامي. ج 1. (بيروت: دار الحياة). ص 81.
- (32) ابن خلدون. المقدمة. ص 202-203.
- (33) شرف. نشأة الفكر السياسي. ص 85-92.
- (34) ابن خلدون. المقدمة. ص 203.
- (35) ميخائيل. السياسة والوحي. ص 65.
- (36) أبو خليل شوقي. الحضارة العربية الإسلامية. ص 233.
- (37) شرف. نشأة الفكر السياسي. ص 118، ميخائيل، السياسة والوحي. ص 65.

- 
- (38) أبو خليل. الحضارة العربية الإسلامية. ص 233-234.
- (39) القلقشندي. مآثر الخلافة، ص 30.
- (40) شرف. نشأة الفكر السياسي، ص 111، 114-115.
- (41) زيدان. نشأة الفكر السياسي، ص 89.
- (42) ابن خلدون. المقدمة، ص 203.
- (43) أحمد بن اسحاق اليعقوبي. مشاكلة الناس لزمانهم. (بيروت: دار الكتاب الجديد، 1980). ص 32.
- (44) ابن خلدون. المقدمة، ص 204.
- (45) زيدان. تاريخ التمدن، ص 92.

## الفصل الثالث

### العلاقات الأسرية داخل بيت الخليفة

#### العائلة النووية للخليفة (الخلفاء الراشدون كنموذج)

نجد اليوم الكثير ممن يرفضون الخوض في أمور أوائل المسلمين العائلية مهما كانت التفاصيل عن هذه الحياة، لأن البعض يعتقد بضرورة الفصل بين حياة الإنسان الشخصية، وحياته العامة. ولكن من اللافت للنظر أن الحياة الشخصية للصحابة في الفترة الإسلامية الأولى، كانت كتاباً مفتوحاً للجميع، بل إنَّ هناك تفاصيل دقيقة عن أمور شخصية لا يكاد المرء يرى لها أهمية. وينطبق هذا الأمر على حياة الخلفاء الذي كانت قصورهم تعجُّ بآلاف القصص عن علاقة الخليفة بالجواري، والخدم والغلمان والندماء. ونجد أنَّ هذا الأمر ينطبق على حياة الخليفة مع زوجته وأولاده. إنَّ المصادر الإسلامية تفرد لموضوع النساء والأولاد الجزء الأخير من ترجمة الخلفاء، على اعتبار أنَّ نساء الخليفة وأولاده، هم جزء لا يتجزأ من حياته الشخصية.

تجدد الإشارة في بداية هذا الموضوع أن اثنين من الخلفاء كانوا بكُنَى ولم يكن لهم أبناء تعود لهم هذه الكنى. فأبو بكر الصديق كُنِيَ بِأَبِي بَكْرٍ ولم يكن له ولد اسمه بكر. كذلك أبو حفص عمر بن الخطاب، لم يكن له ولد اسمه حفص<sup>(1)</sup>.

وأبو بكر الصديق له من الأولاد ستة، ثلاث بنين وثلاث بنات<sup>(2)</sup>. تزوج أبو بكر في الجاهلية قُتَيْلَةَ بنت عبد العُزَى بن عامر بن لؤي، فولدت له عبد الله وهو أكبر أولاده من الذكور، وأسماء وهي أكبر بناته<sup>(3)</sup>. وشهد عبد الله فتح مكة، وحينئذٍ والطائف مع النبي "ص"، وبقي في الطائف حتى تولى أبوه الخلافة. ترك عبد الله سبعة دنانير حين خروجه من الطائف فاستكثرها أبو بكر، ولا عقب لعبد الله<sup>(4)</sup>. تزوج أبو بكر في الجاهلية كذلك أم رومان، وكان اسمها دعد بنت عامر بن عميرة الكنانية فولدت له عبد الرحمن وعائشة، وكان عبد الرحمن "يكنى بأبي عبد الله"، وقد شهد بدرًا، وشهد الجمل مع عائشة وتوفي فجأة عام 53هـ بجبل قرب مكة، ودفنته أخته عائشة<sup>(5)</sup>. وتزوج أبو بكر في الإسلام أسماء بنت عميس وكانت قبله عند جعفر بن أبي طالب، فولدت له محمد بن أبي بكر الذي كان يُكنى أبا القاسم وكان من نساك قريش. تجدر الإشارة هنا إلى أن أسماء بنت عميس تزوجت من علي بن أبي طالب بعد موت أبي بكر، فتربى محمد ابنه في حجر علي وشهد معه الجمل وصفين<sup>(6)</sup>. وهذا يعني أن محمد بن أبي بكر قد وقف إلى جانب علي بن أبي طالب ضد أخويه عبد الرحمن وعائشة، وما هذه المواجهة بين الأخوة إلاّ مثال لما شهده المجتمع الإسلامي في تلك الفترة من انشقاق، إنَّ الاختلاف السياسي كان سبباً في مقتل محمد بن أبي بكر، حيث ولاه عثمان مصر، وبسبب ذلك وقع النزاع فيما بين محمد وبين عمرو بن العاص، وأدى هذا النزاع إلى مقتل محمد ويقال بأنّه "أُحرق في جوف حمار ميت، وقيل أنه بعد قتله أُحرق، وقيل بل مات بسبب الحرق"<sup>(7)</sup>. وجزع علي على محمد عند مقتله جزعاً شديداً، وقال: "إني كنت لأعده ولداً،

وكان أماً، وابن أخ، فعند الله نحتسبه"<sup>(8)</sup>. وجدير بالذكر أن محمد ولد عام 10هـ في حجة الوداع، وتوفي عام 38هـ.

وتزوج أبو بكر أيضاً من حبيبة بنت خارجة بن زيد الأنصارية، التي ولدت له أم كلثوم بعد وفاته، وكان أبو بكر الصديق قد وصّى عائشة بإخوتها، ومنحها بعض الميراث قائلاً: "إني نحلّتك كذا وفي نفسي منه شيء فردّيه على الميراث، فردته، فقال: إنّما هو أخواك وأختاك. قالت: من الثانية؟ إنّما هي أسماء، قال: ذاتُ بطن بنت خارجة<sup>(\*)</sup>، يعني زوجته"<sup>(9)</sup>. كان الرسول "ص" قد صاهر أبا بكر حين تزوج بعائشة أم المؤمنين على الرغم من أنّ أسماء هي البنت الكبرى لأبي بكر. والقارئ للتاريخ الإسلامي يجد أن أبناء وبنات أبي بكر كانوا ذوي شخصيات قوية. كما أن عائشة تعتبر من أهل الفقه والعلم، في حين أن أسماء تعتبر من النساء اللواتي تمتعن بشجاعة نادرة، بدءاً بموقفها عند مساندة الرسول وأبي بكر في الهجرة، ومروراً بحرصها على أبيها ودفاعها عن هيئته أمام قادة قريش. فقد جاء جد أسماء بعد هجرة أبي بكر مع الرسول "ص"، وكان أبو بكر قد حمل معه جميع ماله، وكان يقدر بخمسة أو ستة آلاف، فجاء "أبو قحافة" وقد عمي، فقال عن أبي بكر: إنّ هذا قد فجّكم بماله ونفسه، فقالت له أسماء، كلا بل ترك لنا مالاً كثيراً، فقامت إلى أحجار وجعلتها في كوة البيت، وغطتها بثوب، وبعدها تناولت يد جدّها، ووضعته على الثوب، وأخبرت جدّها بأن هذا ما تركه لهم أبو بكر، فقال: "أما إذا ترك لكم هذا فنعم"<sup>(10)</sup>. استطاعت أسماء بعملها هذا

<sup>(\*)</sup> يعني أن زوجته كانت حاملاً وأعتقد أنها ستنجب بنتاً.

انقاذ موقف أبيها أمام جدها، في حين أنها تحملت أذى قريش بعد هجرة أبيها، فبعد خروج الرسول وأبو بكر من مكة، أتى بيت أبي بكر نفرًا من قريش، ووقفوا ببابه، فخرجت أسماء لهم، فقالوا: "أين أبوك يا ابنة أبي بكر، فقالت: لا أدري"<sup>(11)</sup>، فرفع أبو جهل يده فلطم أسماء، فطرح منها قرطها. إضافة لهذه المواقف وغيرها فقد تميزت أسماء بشجاعته، فلقد اتخذت خنجرًا زمن سعيد بن العاص للصوص وكانوا قد انتشروا بالمدينة، فكانت تجعله تحت رأسها<sup>(12)</sup>، وكانت تؤكد لزوجها الزبير أن أحدًا من الرجال لا يستطيع أن يقترب من خيمتها بسبب شجاعته. وكان الزبير قد تزوج بأسماء في مكة وأنجبت له العديد من الأولاد، ثم طلقها، فكانت مع ابنها عبد الله في مكة حتى قتل، وعاشت بعده لفترة قليلة ثم ماتت، وبلغ عمرها مئة سنة، وعميت وماتت بمكة<sup>(13)</sup>. ولأسماء مواقف كثيرة عند وفاة ابنها حيث تظهر لنا المصادر أن أسماء وقفت بوجه الحجاج، وكانت من المشجعين لابنها عبد الله بن الزبير في عدم الازدعان للحجاج.

اما عائشة بنت أبي بكر فهي أشهر من أن تعرف، تزوجت من محمد عليه السلام، وأقامت بصحبته ثمان أعوام وخمسة أشهر، كانت غزيرة العلم، ومن أكبر فقهاء الصحابة. قال عنها عروة: "ما رأيت أحدًا أعلم بالطب منها"، وأضاف قائلاً: "ما رأيت أحدًا من الناس أعلم بالقرآن ولا بفريضة ولا بحلال ولا حرام، ولا بشعر، ولا بحديث العرب، ولا بالنسب من عائشة"<sup>(14)</sup>. إنَّ عائشة أخذت العلم من الرسول "ص" ومن أبيها. ولعل كرم أبي بكر الذي تبرع بجل ماله في سبيل الدعوة انتقل إلى بناته، فهي هو ابن الزبير يقول فيهما: "ما رأيت



امرأة أجود من عائشة وأسماء، وجودهما مختلف، أما عائشة فكانت تجمع الشيء حتى إذا اجتمع عندها وضعت مواضعه، وبالنسبة لأسماء فكانت لا تدخر شيئاً لغد<sup>(15)</sup>. إن تأثير أبي بكر كان كبيراً على بناته فقد قال الواقدي بأن سعيد بن المسيب من أعبّر الناس للرؤيا، وقد أخذ ذلك من أسماء بنت أبي بكر، وأخذته أسماء من أبيها<sup>(16)</sup>.

أثر أبو بكر على أبنائه جميعاً، حتى ابنته التي لم يراها وهي أم كلثوم، فقد خطبها عمر بن الخطاب من عائشة، فوافقت عائشة على طلب عمر "أمير المؤمنين" ولكن أم كلثوم على صغر سنّها استطاعت أن تحتال على أختها وعلى عمر، وماطلت في الزواج، فأمسك عنها عمر وتزوجها طلحة بن عبيد الله<sup>(17)</sup>. وكانت أم كلثوم قد رفضت عمر عن قناعة حيث قالت لعائشة حين خطبها عمر: "لا حاجة لي فيه، فقالت لها عائشة: ترغيبين عن أمير المؤمنين؟ قالت: إنه خشن العيش شديد على النساء"<sup>(18)</sup>. إن موقف أسماء أمام الحجاج وتشجيعها لابنها عبد الله على الثورة في وجه الحجاج وغيره، ووقوف عائشة مواقفها السياسية وما تمخضت عنه هذه المواقف خاصة في موقعة الجمل، ومقتل محمد بن أبي بكر بسبب مواقفه السياسية وموت عبد الرحمن فجأة ودون معرفة الأسباب، كل ذلك يدل على أن أبناء أبي بكر لم يطلبوا السلم في حياتهم، بل كان لهم رأي في كل ما يمر عليهم من أحداث. ولكن الغريب في الموضوع أن الكتب التي تتحدث عن الفقهاء والمحدثين لا تذكر أياً من أبناء أبي بكر من الذكور، وبالطبع فهي تذكر بناته وما هذا إلا مؤشر على انسياق أبنائه في المجال السياسي وابتعادهم عن مجال الفقه. وجدير بالذكر أن من أحفاد أبي بكر المميزين في هذا

المجال القاسم بن محمد بن أبي بكر، وأمّه هي يزيد بن بنت كسرى آخر ملوك الفرس، ويعود الفضل في نشأته وتربيته إلى عائشة أم المؤمنين فبعد مقتل أبيه محمد في مصر، ربت عائشة القاسم المولود في أواخر عهد عثمان بن عفان هو وأخته في بيتها. وكان القاسم بن محمد أحد فقهاء المدينة، وقال عنه الناس: "لم يلد أبو بكر ولداً أشبه به من هذا الفتى، فلقد أشبهه في كرم شمائله، ونبيل خصائله، وصلابة إيمانه، وشدة ورعه، وسماحة نفسه، وسخاء يده"<sup>(19)</sup>. وعمر القاسم بن محمد أكثر من 72 سنة، وفقد بصره وهو شيخ كبير، وعندما اقترب أجله التفت إلى ابنه وقال: "إذا أنا مت، فكفني بثيابي التي كنت أصلي فيها، قميصي وإزاري وردائي، فذلك كان كفن جدك أبي بكر"<sup>(20)</sup>. كان القاسم بن محمد بن أبي بكر ممن لهم كلمة مسموعة عند الخلفاء الأمويين، وكان سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب كذلك يعيش في نفس الفترة التي عاش فيها القاسم. وكانا من فقهاء المدينة، ولهما كلمة مسموعة ومكانة متميزة. ونتوقف هنا عند ظاهرة فقدان البصر عند القاسم عندما أصبح في مرحلة الشيخوخة. وهذا يؤكد ان معظم افراد عائلة أبي بكر يفقدون بصرهم في سن الشيخوخة لأن أبي قحافة، وأسماء، والقاسم، أصيبوا بالعمى في مرحلة الشيخوخة. وتميز أفراد عائلة أبي بكر بأنهم أدركوا الرسول بأجيال متعاقبة، فعن موسى بن عقبة قال: "لا نعلم أربعة أدركوا النبي "ص" هم وأبناؤهم إلا هؤلاء الأربعة أبو قحافة وأبو بكر وعبد الرحمن بن أبي بكر وأبو عتيق ابن عبد الرحمن بن أبي بكر، واسم ابي عتيق محمد"<sup>(21)</sup>، وولد ابو عتيق في حياة الرسول محمد "ص".

كان أبو بكر الصديق رحيماً رؤوفاً بأولاده وعائلته، ومن المعروف أنَّ أبا بكر كان لا يعود إلى بيته، إلاَّ وقد حمل معه الحوائج للأطفال الصغار، فقد كان يمر في الطريق، فيتعلق الصبيان بثوبه ويقولون: "يا أبانا"<sup>(22)</sup>، واستأذن عمر بن الخطاب وبعض الصحابة على أبي بكر الصديق يوماً فلم يأذن لهم، وعندما طرق عمر الباب للمرة الثالثة أذن لعمر ومن معه من الصحابة، فسأل عمر عن سبب تأخره في الإذن لهم قائلاً: "لم حبستنا بالباب؟" إستأذنا مرتين فلم يؤذن لنا وهذه الثالثة، فقال أبو بكر: إن بني جعفر كان بين أيديهم طعام يأكلونه، فخفت أن تدخلوا فتشركوهم في طعامهم"<sup>(23)</sup>. وأبناء جعفر كما ذكر سابقاً هم أبناء زوجة أبي بكر اسماء بنت عميس.

إنَّ هذه المعاملة الحسنة لم تكن لتنتهي أبا بكر عن جهاده وعمله لصالح الإسلام، فقد كان قد لقي ابنه عبد الرحمن في بدر، وكان عبد الرحمن آنذاك في صفوف المشركين وكما صادف عبد الرحمن أباه ابتعد عنه حتى لا يتواجهان، في حين أن أبا بكر قال لابنه فيما بعد: "لو هدفت لي لم أصدف"<sup>(\*)</sup><sup>(24)</sup> عنك. وكان أبو بكر قد دعا ابنه للمبارزة في بدر، فنهاه الرسول محمد "ص" عن ذلك.

أما بالنسبة لنسائه فقد كان ابو بكر غيوراً على نسائه، فذكر عبد الله بن عمرو بن العاص أن نقرأ من بني هاشم دخلوا على أسماء بنت عميس وكانت على ذمة أبي بكر، فرآهم أبو بكر وكره ذلك، وأخبر الرسول محمد "ص" بذلك، وأخبر الرسول بأنه لم يرَ منها إلا

<sup>(\*)</sup> أي لو تواجها لم أكن لأبتعد عن مواجعتك.

الخير، فقال النبي "ص" إن الله قد برأها من ذلك - من الفاحشة - ثم قام الرسول "ص" على المنبر وأمر بعدم دخول أي رجل على امرأة غاب عنها زوجها، إلا كان معه رجل أو اثنان<sup>(25)</sup>. لم يكن أبو بكر وحده الغيور على نسائه، فقد كان كذلك زوج ابنته أسماء الزبير بن العوام . وكان أبو بكر يحثُ أسماء الصبر على زوجها وشدته. وقد جاءت أسماء يوماً والنوى على رأسها، فلقبها الرسول "ص" ومعه نفرٌ من أصحابه فدعاها الرسول للركوب خلفه، ولكنها رفضت لأنها تذكرت غيرة الزبير وكان من أغير الناس، فعرف الرسول أنها خجلت فمضى. فجاءت الزبير فأخبرته بما حدث، فقال لها: "والله حملك النوى كان أشدَّ عليّ من ركوبك معه"<sup>(26)</sup>. وبقيت أسماء على هذا الحال حتى أرسل لها أبو بكر خادماً كفاها ما كانت تقوم به من أعمال مثل حمل النوى، وسياسة الفرس، وتقول أسماء عن ارسال هذا الخادم لها بأن أبا بكر أعتقها مما كانت فيه بقولها: "فكأنما أعتقني"<sup>(27)</sup>.

إنَّ أبا بكر الذي ساعد ابنته بالحصول على خادم، كان يقوم بأمر بيته عندما ولي الخلافة بنفسه، وكان منزله بالشنح عند زوجته حبيبة بنت خارجة بعيداً عن مركز المدينة المنورة، وبقي هناك 16 شهراً بعد توليه الخلافة. فقد كان يغدو على رجليه إلى المدينة، أو يركب فرساً له. وكان يخرج وعليه إزار ورداء ممشَّق فيوافي المدينة، فيصلي الصلوات بالناس، وإذا لم يحضر صلى بهم عمر بن الخطاب. وكان يوم الجمعة يقيم بالشنح يصبغ رأسه ولحيته، ثم يذهب لأداء الجمعة. وكان أبو بكر تاجراً، فكان يغدو كل يوم للسوق فيبيع وبيتاع، إضافة لذلك كان له قطيع غنم تروح عليه، كان يخرج بها، أو كفيها يكفلها له أحدهم

فيرعاها له<sup>(28)</sup>. وخاصة بعد أن أصبح مشغولاً عنها بأمور الخلافة. وقد خصص له المسلمون راتباً ليعتاش منه بعدما انشغل بأمورهم عن تجارته ومصالحه، فجعلوا له ألفين، فقال: "زيدوني فإن لي عيالاً، وقد شغلتموني عن التجارة"<sup>(29)</sup>. فزادوه خمسمائة. وكان أبو بكر عندما استخلف ألقى كل دينار ودرهم عنده في بيت المال. وأما عن توزيعه أموال بيت المال فقد كان يوزع ما يأتيه من أموال بالتساوي بين الناس، ولا يفرق بين أحد منهم. وكان الرسول "ص" قد تحدث عن أبي بكر من حيث رحمته حيث قال "إن أرحم أمتي بأمتي أبو بكر حيث كان يؤم بيوت العجائز فيسقي لهن، ويقضي حوائجهن، ويحلب للأيتام، والعجز ولم يتغير شيء من ذلك أثناء خلافته"<sup>(30)</sup>، في نفس الوقت لم يكن منصبه الجديد فرصة له ليأكل مالا يعتقد أنه ليس من حقه بل على العكس من ذلك، فقد قيل بأن زوجته اشتهدت حلواً، فقال لها: "ليس لنا ما نشترى به، فقالت: أنا استفضل من نفقتنا في عدة أيام ما نشترى به، قال: افعلي: ففعلت ذلك، فاجتمع لها في أيام كثيرة شيء يسير، فلما عرفت ذلك ليشترى به حلواً أخذته فردته إلى بيت المال وقال: هذا يفضل عن قوتنا"<sup>(31)</sup>. وأسقط أبو بكر من نفقته التي فرضها له المسلمون، بمقدار ما نقصت كل يوم، وردته لبيت المال. ودعا أبو بكر عائشة قبل موته فأوصاها قائلاً: "إنا ولينا امر المسلمين فلم نأخذ ديناراً ولا درهماً ولكننا أكلنا من جريش طعامهم، ولبسنا من خشن ثيابهم"<sup>(32)</sup>.

كان عمر بن الخطاب يشبهه أبي بكر بشكل كبير من حيث النهج وإعطاء مصالح المسلمين الأولوية، إلا انهما كانا يختلفان في الأسلوب. فعمر الذي كان شديداً على المسلمين

كان شديداً ايضاً على عائلته، فإذا أراد أمراً، كان عمر يجمع أهل بيته ويقول لهم: "إني سأدعو الناس كذا وكذا، وأنهاهم عن كذا وكذا، وإني أقسم بالله العظيم لا أجد واحداً منكم فعل ما نهيت الناس عنه، أو ترك ما أمرت الناس به إلا نكلت به نكالاً شديداً"<sup>(33)</sup>. ولم يحاب عمر أحداً من عماله أو عائلته أو رعيته، فلقد أقام الحد على ابنه عبد الرحمن لشربه الخمر ويروي عبد الله بن عمر بأن أخاه عبد الرحمن قد شرب الخمر. وأقام عليه عمرو بن العاص الحد وكان وقتها والي مصر، كما قام عبد الله بن عمر بخلق شعر أخيه لأنهم كانوا يخلقون مع الحد، وعندما سمع عمر بذلك، أمر بإحضار ابنه عبد الرحمن من مصر، وأقام عليه الحد في المدينة وأمام الناس ثم أطلقه. فلبث عبد الرحمن بعد هذه الحادثة شهراً ثم مات<sup>(34)</sup>. واعتقد الناس أنه مات بسبب إقامة الحد عليه. وفي حادثة أخرى تظهر أن عمر كان قاسياً على أبنائه حيث دخل أحد أبناء عمر عليه وقد رجل شعره ولبس ثياباً حسنة فضربه عمر بالدرّة حتى ابكاه، فقالت له حفصة: "لم ضربته؟ فقال: أعجبتني نفسه فأحببت أن أصغرها إليه"<sup>(35)</sup>. وبلغ عمر يوماً أن أحد أبنائه قد ستر حيطان بيته، فقال عمر: "والله لئن كان كذلك لأحرقن بيته"<sup>(36)</sup>.

لم تكن هذه الشدة مع ابنائه فقط بل كانت ايضاً مع نساءه، فقد كان عمر غيوراً لدرجة كبيرة. فقد أهدى أبو موسى الأشعري لامرأة عمر عاتكة بنت زيد بن عمرو طنفسه - ذراع وشبر - فدخل عليها عمر، فرآها، فسألها من أين لك هذا؟ فأخبرته بأن أبا موسى أهداها لها، فضرب بها رأسها حتى نفذ رأسها وطلب إحضار أبي موسى الأشعري الذي بدوره طلب

من عمر أن لا يتعجل بإصدار الحكم عليه، ولكن عمر قال له: "ما يحملك على أن تهدي لنسائي؟ ثم أخذها فضرب بها فوق رأسه وقال: خذها فلا حاجة لنا فيها"<sup>(37)</sup>. وكان عمر كثيراً ما يشدد على قضية الأموال، ولا يسمح لأي فرد من عائلته أن ينتفع بشيء من بيت المال مهما كان هذا المال قليلاً. فقد طلب أحد أزواج بنات عمر منه أن يعطيه مالاً من بيت مال المسلمين فقال له عمر بعد أن انتهره: "أردت أن ألقى الله ملكاً خائناً! فلما كان بعد ذلك أعطاه من صلب ماله عشرة آلاف درهم"<sup>(38)</sup>. وعندما بعث أبو موسى من العراق الحلي وضعت بين يدي عمر، وكانت تجلس بحجره اسماء بنت زيد بن الخطاب، وكان يحبها أكثر من نفسه، وخاصة بعدما قتل أبوها باليمامة، فعطف عمر عليها، وأخذت أسماء خاتماً من الحلي فوضعت به يدها، فأقبل عمر وأخذ يقبلها ويلتزمها حتى غفلت، فأخذ الخاتم من يدها، ورمى به في الحلي، وقال: خذوها عني"<sup>(39)</sup>.

أنَّ عمر شدد على أبنائه ونسائه لدرجة كبيرة، ومن ذلك ما فعله مع عبد الله "ابنه" حين اشترى إبلًا ليتاجر فيها، ودفع بها عبد الله إلى الحمى لتسمن، فدخل عمر السوق يوماً، فرأى إبلًا سماناً، فسأل عن صاحبها، فأخبروه أنها لابنه عبد الله، فجعل عمر يقول: يا عبد الله بن عمر بخ بخ، ابن أمير المؤمنين، فجاء عبد الله يسعى بين يدي والده، فسأله عن سبب شرائه للإبل، فأخبره أنه يبتغي منها ما يبتغيه كل مسلم، فقام عمر بن الخطاب بردها، وطلب من عبد الله أن يأخذ رأس ماله منها، وأن يرد ما بقي لبيت المال. وكانت حجة عمر في ذلك،

إن من يهتمون بإيل عبد الله سيهتمون بها أكثر من غيرها من إيل الناس لأنه ابن أمير المؤمنين فيقولون: "ارعوا إيل ابن أمير المؤمنين اسقوا إيل ابن أمير المؤمنين"<sup>(40)</sup>.

لقد طبق عمر هذه السياسة الشديدة على نفسه، قبل أن يطبقها على نساءه وأولاده ورعيته، فعاتبته ابنته حفصة قائلة: "يا أمير المؤمنين ما عليك لو لبست ألين من ثوبك هذا، وأكلت طعاماً غير هذا، وقد فتح الله عليك الأرض وأوسع الرزق، فقال: "أخاصمك إلى نفسك، أما تعلمين ما كان يلقي رسول الله "ص" حتى أبكاها"، وأكمل قائلاً: "قلت لك أنه كان لي صاحبان سلكا طريقاً إن سلكت غير طريقهما سلك بي غير طريقهما، فإني والله لأشركنهما في مثل عيشهما الشديد لعلي أدرك عيشهما الرخي"<sup>(41)</sup>.

كان عمر حريصاً أن يزهد في الدنيا لأن صاحبيه "الرسول" و"ص" و"ابن بكر" عاشا عيشة زاهدة، مع أن الرسول و"ابن بكر" كانا رحيمين بالناس، وكان أبو بكر أعلم الناس بشدة عمر، وواجهه بهذه الحقيقة أكثر من مرة. يروي الإمام مالك في الموطأ بأن عمر بن الخطاب طلق زوجته الأنصارية بعد أن أنجب منها ولداً أسمه عاصم، ثم تزوجت بغيره، فانطلق عمر إلى قباء يوماً فوجد ابنه يلعب بفناء المسجد، فأخذه ليضمه إليه، فطالبت به جدته لأمه، وأرادت أن تسترده لحضانتها، واختلف عمر مع جدته فيمن يكون صاحب الحق بحضانتها فرفعا الأمر لأبي بكر الصديق خليفة المسلمين، ف قضى أبو بكر بضمه إلى جدته، قائلاً لعمر: "ريحها ومسها وريقها خير" له من الشهد عندك يا عمر"<sup>(42)</sup>. وخضع عمر لأمر أمير المؤمنين. وقد رفضته أم كلثوم بنت أبي بكر كما ذكرنا سابقاً لشدته، كما أنه خطب أم إيان



بنت عتبة بن ربيعة فكرهته وقالت عنه بأنه: "يغلق بابه، ويمنع خيره، ويدخل عابساً، ويخرج عابساً"<sup>(43)</sup>.

كان لعمر من الولد: عبد الله وعبد الرحمن الأكبر وحفصة، وأمهم هي زينب بنت مطعون الجمحي، وكان عمر قد تزوجها في الجاهلية، واسلمت وكانت من المهاجرات. وعبد الله بن عمر هو أبو عبد الرحمن العدوي، كان عالماً وفقياً، وأحد الأئمة في العلم والعمل، وشهد لعبد الله الكثيرون فقد قال ابن الحنفية عن عبد الله بن عمر "كان ابن عمر حبر هذه الأمة"، وقال عنه جابر: "ما منا إلا من مالت به الدنيا ومال بها، إلا عبد الله بن عمر"<sup>(44)</sup>. وكان قد هاجر مع أبيه، واستصغر يوم أحد، فقد أسلم عبد الله وهو صغير السن، وكانت أولى غزواته "الخنديق". أفنى الناس عام 60هـ. وجدير بالذكر أن عبد الله بن عمر رفض الخلافة عندما عرضت عليه بعد مقتل عثمان بن عفان، وغزا أفريقية مرتين. وروى عن الرسول "ص" وعن أبيه و عن أبي بكر وبلال وأخته حفصة وعائشة وكبار الصحابة<sup>(45)</sup>. وعبد الله بن عمر من أجلّ أبناء عمر، هو وأخته حفصة، هو بعلمه وفقهه، وهي كونها زوجة الرسول محمد "ص" وحفصة ولدت قبل المبعث بخمسة سنوات، وكانت حفصة عند خنيس بن حذافة السهمي الذي شهد بدرًا مع الرسول "ص". فمات زوجها بالمدينة، فعرضها عمر بعد انقضاء عدتها على أبي بكر وعثمان بعد موت رقية بنت النبي، فقال له عثمان: سأنظر في أمري، ثم بعد أيام لقيه عثمان وأخبره بأنه لا يريد الزواج هذه الفترة، وغضب عمر لرفض أبي بكر وعثمان ابنته. وطلب الرسول محمد "ص" يد حفصة من عمر، حينها فقط أخبر أبو بكر عمر

بأن الرسول "ص" ذكر حفصة أمام أبي بكر، وأبو بكر لم يكن له أن يكشف ستر النبي "ص" (46). في نفس الفترة تزوج عثمان بأم كلثوم. ومن نساء عمر في الجاهلية مليكة الخزاعي التي أنجبت لعمر عبيد الله، ففارقها عمر في الهدنة، وتزوجها من بعده أبو جهم بن حذيفة، أما عبيد الله فكان من شجعان قريش وهو القائل:

أنا عبيد الله ينميني عمر                      خير قريش من مضى ومن غبر

حاشا نبي الله والشيخ الأغر

قام عبيد الله بالانتقام من قتلة أبيه. فقد قتل جماعة من الفرس في الهرمزان، وكان علي الذي لم يرق له تصرف عبيد الله، حريصاً على أن يوقع القصاص بعبيد الله في الهرمزان، فلما ولي علي الخلافة، هرب عبيد الله إلى الشام وظل مع معاوية حتى قتل في معركة صفين سنة 36هـ (47). وقيل كانت أم عبيد الله هي أم كلثوم الخزاعي، وهي أم زيد الأصغر، وكان الإسلام فرق بينها وبين عمر. وتزوج من قريبة بنت أبي أمية المخزومي في الجاهلية كذلك فارقها في الهدنة أيضاً، وتزوجها بعده عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، فكانا سلفي رسول الله "ص" لأن قريبة هي أخت أم سلمة زوج الرسول محمد "ص". وتزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام المخزومي في الإسلام، فولدت له فاطمة، وبعد ذلك طلقها. ثم تزوج أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، وأمها فاطمة بنت رسول الله "ص"، وكان صداق أم كلثوم 40 ألفاً، وأنجبت أم كلثوم له زيد ورقية (48). خطب عمر أم كلثوم بنت علي، فأخبره علي بأن ابنته صغيرة، وأنه يريد تزويجها لأبناء جعفر بن أبي طالب فما كان من ردة فعل

عمر إلا أن قال له: "جهزها يا أبا الحسن، فإنني أرصد من كرامتها ما لا يرصد أحد، فقال علي: إني أبعثها لك، فإن رضيتها زوجتكها، فبعثها إليه ببرد وقال لها، قولي له هذا البرد الذي قلت لك"<sup>(49)</sup>. فقالت ذلك له، فأخبرها عمر بأن تخبر أباها بأنه قبل البرد منه، ووضع يده على ساقها فكشفها، فقالت له: "أتفعل هذا؟ لولا أنك أمير المؤمنين لكسرت أنفك، ثم خرجت حتى جاءت أباها فأخبرته الخبر وقالت: بعثتني إلى شيخ سوء، فقال. مهلاً يا بنية فإنه زوجك"<sup>(50)</sup>. من الواضح أن علي لم يكن راضياً عن هذا الزواج لأنه تحجج بأن ابنته صغيرة، ولكن عمر أصر على هذه الخطبة، حتى أن الروايات الأخرى تشير إلى أن العباس هو من تولى أمر هذا الزواج، أما عمر فكان سعيداً بهذا النسب. وبعد وفاة عمر تزوج أم كلثوم عون بن جعفر بن أبي طالب فتوفي عنها، ثم تزوجها بعده أخوه محمد بن جعفر فتوفي عنها، فتزوجها أخوه عبد الله بن جعفر بعد وفاة اختها زينب بنت علي، فقالت أم كلثوم: "إني لاستحي من أسماء بنت عميس، إن ابنيها ماتا عندي وإني لأتخوف على هذا الثالث"<sup>(51)</sup>. فتوفيت قبله، ولم تلد لأحد من أبناء جعفر شيء، وجديراً بالذكر أن أم كلثوم توفيت هي وابنها زيد بن عمر في نفس اليوم، وأصيب ابنها زيد في حرب كانت بين بني عدي حيث خرج ليصلح بينهم، فضربه رجل في الظلمة فمات بعد أيام، وصلى عبد الله بن عمر على أخيه زيد، وزوجة أبيه أم كلثوم. وصلى معه الحسن بن علي عليهما<sup>(52)</sup>.

وتزوج عمر بن الخطاب لهيئة وهي امرأة من اليمن، فولدت له عبد الرحمن الأوسط، وقيل عبد الرحمن الأصغر، وقيل بأن لهيئة كانت أم ولد. وتزوج عمر كذلك عاتكة بنت زيد

بن عمرو بن نفيل<sup>(53)</sup>. وهي ابنة عم عمر، كانت من المهاجرات، وكان قد تزوجها عبد الله بن أبي بكر. وكانت جميلة تغلبت على عقله وشغلته عن الجهاد، فأمره أبوه بطلاقها، فطلقها وسمعه أبوه يوماً ينشد:

أعائكُ لا أنساك ما درّ شارق	وما ناح قمري الحمام المطوق
أعائك قلبي كل يوم وليلية	عليك بما تخفي النفوس معلق
ولم أر مثلي طلق اليوم مثلها	ولا مثلها في غير جُرم يطلقُ

فرق قلب أبو بكر له وأمره مراجعتها<sup>(54)</sup>. وعندما توفي عبد الله بن أبي بكر، رثته عاتكة، وكان عبد الله قد وصاها بعدم الزواج بغيره، فوعده بذلك - وخطبها علي فرفضت، وبعد فترة تزوجها عمر بن الخطاب، ولما أولم عمر، استأذن منه علي ليحدث عاتكة، وذكرها بما رثت به عبد الله، فأجهشت بالبكاء، فقال له عمر: "ما أردت هذا؟ كل النساء يفعلن هذا غفر الله لك!"<sup>(55)</sup>. ورفضت عاتكة خطبة علي بقولها: "لا أفعل، إني أضن بك عن القتل، فإنك بقية الناس فتركها"<sup>(56)</sup>. وأنجبت عاتكة لعمر ولده عياض وتذكر بعض المصادر بأن عمر تزوج جميلة<sup>(\*)</sup> بنت بن أبي الأفلح الأنصارية، وأنجبت له عاصماً، الذي كان طويلاً، جسيماً، وكان من نبلاء الشعر، خيراً، وديناً، وصلاً، اتصف عاصم بالبلاغة والفصاحة، وقال الشعر، ويذكر بأن عاصم هو جد الخليفة عمر بن عبد العزيز. ومات عاصم سنة 71هـ، وصلى عليه عبد الله بن عمر ورثاه قائلاً:

<sup>(\*)</sup> وكان اسمها عاصية فسمّاها الرسول (ص) جميلة.

فليت المنايا كن خلفن عاصماً      فعشنا جميعاً أو ذهبن بنا معاً<sup>(57)</sup>.

وتزوج عمر من سبيعة بنت الحارث، وهي أول امرأة أسلمت بعد صلح الحديبية ولما نزلت آية الامتحان، امتحنها النبي "ص" ورد على زوجها مهر مثلها، وتزوجها عمر<sup>(58)</sup>. كما انجب عمر بن الخطاب عبد الرحمن الأصغر وهو أبو المجبر وأمه أم ولد يقال لها فكيهة، وأنجبت له أيضاً زينب وهي أصغر أبناء عمر بن الخطاب سناً. وبقي أن نذكر أن لعمر من الأبناء عبد الله الأصغر وأمه سعيذة بنت رافع بن عبيد الله بن عمرو، وفاطمة وأما هي أم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة<sup>(59)</sup>. من خلال ما تقدم نرى ان عمر بن الخطاب قد خلف من الأولاد تسعة من الذكور وأربعاً من الإناث.

أما عن كيفية تعامل عمر بن الخطاب مع أبنائه، فقد كانت الشدة، هي مفتاح هذا التعامل، بل تعامل معهم كأبي شخص في المجتمع الذي كان مسؤولاً عنه، فعندما تزوج عاصم بن عمر، أنفق عليه عمر من بيت المال شهراً، ثم دعاه فقال له بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "أما بعد أي بني، فإني لم أكن أرى هذا المال يحل لي قبل أن أليه إلا بحقه فلم يكن أحرم علي منه حين وليت عليه، وقد نحلنك من مالي بالعالية، فانطلق إليه، فاجدده ثم بعه، ثم استتفق وأنفق على أهلك"<sup>(60)</sup>. فعمر بن الخطاب سمح لابنه أن يحصل على هبة من مال المسلمين لمدة شهر، ثم منحه مالاً خاصاً به حين قام ببيع ما يملكه لصالح الإنفاق على ولده، لأن عمر مؤتمن على مال المسلمين. وتظهر لنا روايات أخرى بأن عمر طلب من ولده أن يعمل ليحصل على المال وبأنه قطع عنه المال من بيت مال المسلمين. هذا بالنسبة للجانب

الاقتصادي، أما عن عقاب الأب لأبنائه فقد ذكرنا أن عمر أقام الحد على ابنه عبد الرحمن عندما شرب الخمر، وبأنه هدد ابناً آخر عندما سمع أنه يكسو حائط بيته. في حين أن عمر كان إذا بعث في طلب أحد أبنائه طلب من أسلم<sup>(\*)</sup> بأن لا يعلم أبناءه بسبب طلب عمر لهم، وكان عمر يوصي أسلم فيقول له: "لا تعلمه لما أبعث إليه مخافة أن يلقنه الشيطان كذبة"<sup>(61)</sup>. وفي أحد الأيام جاءت لعمر زوجة ابنه عبيد الله، فشكت له أن عبيد الله لا ينفق عليها ولا يكسوها، فطلب عمر من أسلم أن يحضر عبيد الله إليه، فذهب أسلم إلى عبيد الله فوجد عنده ديك ودجاجة هنديان، فقال له أسلم: "أجب أباك". وحاول عبيد الله أن يعرف من أسلم سبب دعوة أبيه، فلم يخبره، فرشاه عبيد الله بالديك فأخبره بأمر طلبه، وعندما علم عمر بالأمر، قام بضرب أسلم بالدرّة، فقال له أسلم: "إنك لجليد؟ ثم قال عمر لولده: أتكتني بأبي عيسى، وهل لعيسى من أب؟"<sup>(62)</sup> ويريد عمر بهذا القول بأن يخبر ابنه بأنه لا يقوم بسمّ وولياته تجاه ابنه وزوجته وبيته. إن هذه الشدة مع الأبناء لم تمنع من محبة الأبناء لأبيهم، فكما ذكرنا سابقاً قام عبيد الله بالانتقام من "قتلة أبيه"، حيث قام بقتل ابنة أبي لؤلؤة والهرمزان وهذا العمل أدى في النهاية بعبيد الله في السجن ونقمة المهاجرين والأنصار عليه. وجديرٌ بالذكر أن عثمان بن عفان هو من أطلق سراحه وعفا عنه في تلك الفترة<sup>(63)</sup>.

إن هناك تساؤلاً لا بد من طرحه في هذا السياق فهل أثر عمر على ابنائه بشدته عليهم؟ إن تربيته الشديدة أثرت على بعض ابنائه ومنهم عبد الرحمن الذي سافر لمصر وابتعد

<sup>(\*)</sup> أسلم هو مولى عمر بن الخطاب.

عن المدينة، وعبيد الله الذي قتل نفساً بريئة، وفي صفين التقى بجيش علي وقاتل لجانب معاوية وعمرو بن العاص، حتى أنه تواجه مع صحابة لهم باعٌ طويل في التاريخ الإسلامي، فعندما قاتل عمار بن ياسر عبيد الله في صفين، قال عبيد الله: "أنا الطيب بن الطيب، فقال له عمار بن ياسر: "أنت الخبيث بن الطيب"<sup>(64)</sup>. وقتله عمار، وقيل قُتل على يد رجل من الحضارمة. علماً بأن ابنائه الآخرين لم يتأثروا بشدة والدهم بل على العكس فقد شهد الصحابة لعبد الله بن عمر وأخيه عاصم، وقيل بأن عمر كان في زمنه له نظراء، ولكن ابن عمر كان في زمان ليس له فيه نظراء. وكان هناك رجل يسب عبد الله بن عمر، وهو ساكت، فلما بلغ عبد الله باب داره التفت للرجل وقال له: "إني وأخي عاصماً لا نسب الناس"<sup>(65)</sup>. بالتالي كان هناك تباين في سلوك أبناء عمر، وهذا أمر طبيعي يحدث في كل الأسر.

ويمكننا القول بأن عمر بن الخطاب اهتم بأمر المسلمين وكان ذلك على حساب أسرته. ولعل ما يدلنا على ذلك ما ترويه بعض الكتب التاريخية عن عمر حين كان ذات مرة يمشي في بعض أزقة المدينة إذ بصبية "بين يديه تقوم مرة وتقع أخرى"، فقال: "يا بؤسها من لهذه، فقال ابن عمر: هذه إحدى بناتك يا أمير المؤمنين، قال: فمالها، قال منعتها ما عندك، قال: أفعجرت إذ منعتها ما عندي أن تكسب عليها كما يكسب الأقبام على بناتهم؟ والله مالك عندي إلا ما لرجل من المسلمين"<sup>(66)</sup>. ليس الغريب موقف عمر من ابنه ولكن الغريب هو عدم معرفة عمر لبنت ابنه، فهل كان أحفاده كثيرون لهذه الدرجة، أم أنّ مشاغله الكثيرة لم تترك مجالاً لتتبع أحوال أبنائه وأحفاده. ومن الغريب في الأمر أن عمر هو من فرض

للمسلمين صغاراً وكباراً، فهل تكون أموال ابن عمر غير كافية لإقامة أودِ ابنته؟ هذا من جهة ومن جهة أخرى كيف يمكن لعمر أن لا يعطي ابنه من ماله الخاص ليصرف على أحفاده. ومن المعلوم أن عمر كان يتبع سياسة صارمة بشأن الأموال ليس فقط بحق أبنائه بل وزوجاته كذلك. ففي إحدى المرات قامت امرأة لعمر بن الخطاب باستقراض دينار، واشترت عطراً فجعلته في قوارير وأهدته لأمرأة ملك الروم، فقامت امرأة ملك الروم بإرسال جواهر بدلاً من العطور لزوجة عمر، مع البريد، وقامت زوجة عمر بتفريغ الجواهر على بساط بيتها، فدخل عمر بن الخطاب ولما علم بالأمر باع الجواهر، وأعطى زوجته الدينار، ورد ما بقي إلى بيت المال<sup>(67)</sup>.

كان عثمان بن عفان على النقيض من عمر بن الخطاب في هذا المجال، فقد كان رحيماً بأهله حتى في الأمور الدينية. فعثمان لم يكن يوظف نائماً من أهله إلا أن يجده يقظان فيدعوه فيناوله وضوءه<sup>(68)</sup>، إضافة إلى ذلك فقد كانت أسرته تعيش أوضاعاً اقتصادية جيدة، فبيته في المدينة كان مبنياً من الحجر والكلس، وجعل أبواب بيته من الساج والعرعر<sup>(\*)</sup>، وكان مع أسرته يتذوق ألين الطعام بل يتذوق أصناف الطعام على عكس عمر الذي كان طعامه الخبز والملح، وإذا حج ضرب له الفسطاط، كما كان يفتتي الجنات والعيون وكان لأهله ما يطلبون، بل وطال هذا الأمر الناس في المدينة حيث كان عثمان يحب التوسعة على الناس، ولم يشدد على ولاته<sup>(69)</sup>. إن ما يستغربه الإنسان هو موقف المسلمين عموماً من قتل عثمان،

(\*) شجر السرو.



فقد كان عثمان كريماً ليناً معهم، فهو على سبيل المثال ألقى طلحة من دين كان عليه، وقدره خمسون ألف درهم، فلما عرض طلحة على عثمان الدفع قال له عثمان: "هو لك يا أبا محمد، معونةً لك على مروءتك"<sup>(70)</sup>. وعلى الرغم من ذلك فإن طلحة كان من بين المسلمين الذين تقموا على عثمان.

إنَّ موقف عائشة "أم المؤمنين من عثمان كان يدعو للدهشة بشكل كبير، فعثمان الذي كان يتفقد عائشة باستمرار سواءً في حياة الرسول وبعد مماته وكان ليناً معها كما كان مع باقي أبناء المسلمين فقد أتى عائشة ذات يوم، ولم يكن عندها في البيت شيء، وعندما علم بالأمر، بكى عثمان، وعاتبها لأنها لم تخبره، واستحلفها بأن ترسل له في حال عدم توفر شيء في بيتها، ثم بعث لها أحمال الدقيق، والحطب، والتمر، وأرسل 300 درهم، وكى لا يُبطيء عليهم أرسل لهم بخبز وشواء"<sup>(71)</sup>. وكانت هذه الحادثة قد وقعت في عهد الرسول "ص". واستمر بتفقد أحوال أمهات المؤمنين بعد وفاة الرسول "ص". ومع ذلك نرى أن عائشة اتخذت موقفاً سلبياً من عثمان وبعد وفاته غيرت موقفها منه. يمكن القول هنا أن العلاقات بين المسلمين في تلك الفترة لم تكن مبنية على المصالح فحسب بل كانت مبنية على قناعات، وتنبدل هذه المواقف وفقاً لها.

إن عثمان كان ليناً في تعامله مع نسائه وأبنائه، وهو الذي لقب بذي النورين لأنه تزوج من ابنتين من بنات رسول الله "ص"، تزوج ثمانى زوجات كلهن بعد الإسلام<sup>(72)</sup> وهن: رقية بنت رسول الله "ص"، ورقية هي ثاني بنات النبي "ص" من خديجة وكان قد تزوجها

عتبة بن أبي لهب، فلماً نزلت "تبت يد أبي لهب" أمر أبو لهب ابنه بأن يفارق رقية، ولم يكن قد دخلَ بها، فتزوجت بعده عثمان بن عفان، وهاجرت إلى الحبشة مع عثمان. كما هاجرت إلى المدينة، ولم يشهد عثمان بدر وهو بقرب رقية التي مرضت مرضاً شديداً وانتهى الأمر بوفاتها<sup>(73)</sup>، وكانت رقية قد ولدت لعثمان ابنهما عبد الله فكني به، علماً بأنه في أيام الجاهلية كانت كنيته "أبا عمرو". فلما ولد عبد الله تغيرت كنيته، وعندما بلغ عبد الله ست سنوات، نقره ديك في وجهه، ومات. بعد وفاة رقية تزوج عثمان بأختها أم كلثوم وهي بكر، فلم تلد له<sup>(74)</sup>. تزوج بعدها عثمان بفاخته بنت غزوان، وهي أخت الأمير عتبة بن غزوان فولدت له عبد الله الأصغر وقد هلك، وتزوج عثمان من أم عمرو بنت جندب الأزديّة، فأنجبت له كلاً من عمرو، وخالد، وإبان، وعمر، ومريم<sup>(75)</sup>. وإبان بن عثمان كان أحد فقهاء المدينة. فقد قال يحيى القطان: "فقهاء المدينة عشرة إبان بن عثمان وسعيد بن المسيب..."<sup>(76)</sup> وذكر سائرهم. وتعلم إبان القضاء من أبيه عثمان، وروى عن أبيه وروى عنه. ولاء عبد الملك بن مروان الإمارة على المدينة لمدة سبع سنوات، وكان أبان يُكنى "بأبي سعيد"<sup>(77)</sup>. ومن ذكاء إبان ما ظهر منه عندما قدم معاوية حاجاً، وكان معاوية قد أوصى مروان بن الحكم بإبان بن عثمان، فلما قدم معاوية في موسم الحج سأل معاوية أبان عن مروان، فأخبره إبان بأن مروان أساء معاملته وباعد مجلسه، فقال له معاوية: "أتقول ذلك في وجهه، قال: نعم، فلما أخذ معاوية مجلسه وعنده مروان قال لأبان: كيف رأيت أبا عبد الملك، قال: قرب مجلسي وأحسن إنني، فلما قام مروان قال: ألم تقل في مروان غير هذا؟ قال بلى، ولكن ميزت بين حلمك وجهه

فرأيت أن أحمل على حلمك أحب إليّ من أن أتعرض لجهله<sup>(78)</sup>. فأسعد هذا القول معاوية. وكانت هناك علاقة طيبة بين أبان ومعاوية. فقد خطب أبان بن عثمان إلى معاوية ابنته فقال: إنما هما ابنتان فأحدهما عند أخيك عمرو والأخرى عند عبد الله بن عامر فتولى أبان يقول:

تربص بهند أن يموت ابن عامر      ورملة يوماً أن يطلقها عمــــرو

فإن صدقت أمنيّتي كنت مالكاً      لأحدهما إن طال بي وبها العمر<sup>(79)</sup>

إن هذه الحادثة تشير لنا أن إبان كان يريد أن يوثق صلته بمعاوية عن طريق النسب، ولكن الدلالة الأكثر أهمية هي أنّ أبان عندما طلب من معاوية أن يُزوجه إحدى بناته، لم يُرد واحدة بعينها، ولم يكن يعلم بنات معاوية، وبالتالي هذا يشير إلى أنّهم في السابق كانوا يخطبون النساء في الغالب ليس لجمالهن أو أخلاقهن بل لنسبهن ، بل لنسبها. توفي إبان عام 105هـ، أما أخوه عمرو فقد مات قبله، وكان ثقة لكنه لم يكن كثيراً من رواية الحديث كأخيه إبان<sup>(80)</sup>، وكان أخيه عمر قليل الحديث وله دار بالمدينة<sup>(81)</sup>.

ومن أبناء عثمان بن عفان الوليد وسعيد وأم سعيد وهم أبناء عثمان من زوجته فاطمة بنت الوليد بن المغيرة المخزومية، وكان قد تزوج أم البنين بنت عيينة بن حصن الفزارية وأنجبت له عبد الملك الذي مات صغيراً. كما تزوج رملة بنت شيبه بن ربيعة التي ولدت له عائشة وأم أبان وأم عمرو، في حين أنّه أنجب مريم من زوجته رملة بنت الفرافصة الكلبيّة، وقيل ولدت له أم البنين عبد الملك وعتبة، وولدت له نائلة ابنه عنيسة وكان له منها ابنة تُدعى أم البنين<sup>(82)</sup>، وقيل بأن أم البنين، أمها أم ولد كانت عند عبد الله بن يزيد بن أبي سفيان<sup>(83)</sup>،

وتختلف الكتب في أسماء أبنائه بعض الشيء، وبأسماء أمهاتهم. فيرى الأصفهاني على سبيل المثال بأن نائلة هي أم خالد وأروى وأم أبان الصغرى<sup>(84)</sup>. ويذكر بأن عثمان خلف أربع عشرة نفساً ستة من الذكور وهم عمراً، وأباناً، وخالداً، والوليد، وسعيداً، وعبد الملك ومن الإناث ثمانية وهن: مريم وأم عثمان وعائشة وأم أبان، وأم عمرو، وأم خالد، وأروى وأم إبان الصغرى، بالتالي ليس هناك اتفاق كامل على أسماء أبناء عثمان، وعلى أمهاتهم، فمثلاً يذكر بأن ابنته مريم أمها هي أم عمرو بنت جندب، ويذكر أحياناً بأنها نائلة بنت الفرافصة أنجبت مريم. ويعود هذا الخلط والاختلاف ربما لكون بنات عثمان كُنَّ يلقبن بأسماء أبنائهن مثل أم خالد، أم البنيين، أم أبان ... الخ، فيمكن أن يكون وقع الالتباس لهذا السبب، أي عدم استخدام الاسم الصريح لبنات عثمان. ومن الواضح أنّ لعثمان ابنتان تحملان نفس الاسم "وهو مريم"، ولا أعتقد أن هناك أي مشكلة في ذلك، فكما كان لعمر بن الخطاب أكثر من ولد يحمل اسم عبد الرحمن، يمكن أن يكون لعثمان بنتان بنفس الاسم وهو ما تؤكد بعض المصادر، ولكن يبقى الخلاف على عدد بنات عثمان، فالبعض يذكر أنهن سبعة وهن مريم، أم أبان، أم سعيد، عائشة، أم البنيين، مريم (بنت نائلة). في حين يذكر أن أبناء عثمان تسعة<sup>(85)</sup>، وبالتالي هذا مناقض لما ذكر بأنه خلف 14 ولداً وبناتاً، على أن الظاهر أن الاختلاف ينحصر في عنبسة، وأروى حين تسقط بعض المصادر هذه الأسماء من أبناء وبنات عثمان. وجدير بالذكر أنّ عثمان قُتل وعنده رملة ابنة شيبية ونائلة وأم البنين ابنة عيينة، وفاخنة بنت غزوان، وقيل بأنه طلق أم البنيين وهو محصور<sup>(86)</sup>.

قبل أن نترك هذا الجانب من حياة عثمان علينا أن نذكر شهادة عليّ بحقه حين قال بأن عثمان "كان أوصلنا للرحم واثقانا للرب" (87). وحين قال عنه الناس في وصفهم له بأنه كان ينام في المسجد بملحفة كغيره من عامة الناس وهو أمير المؤمنين، وكان يجيء الرجل فيجلس إليه كأنه أحدهم (88). من خلال ما سبق يمكن أن نتصور كيف تعامل عثمان مع أهله وأسرتة، وإن كان تعامل بهذه الطريقة مع عامة الناس. فقد رأى سليم بن عامر عثمان عليه مطرف خزّ ثمنه منّي درهم، فقال: "هذا لنائلة كسوتها إياه، فأنا ألبسه أسرها به" (89). وقيل أن عثمان عندما تزوّج ابنته من مروان بن الحكم، أمر بخمس الغنائم التي حصل عليها المسلمون من غزو أفريقيا عام 27هـ وأعطيت له، وبلغت الغنائم ألفي ألف دينار وخمسمائة ألف دينار وعشرين ألف دينار (90)، كما تزوّج ابنته الأخرى من عبد الله بن خالد بن أسيد، وكان قد غزا أفريقيا سنة 27هـ، وعندما تزوّج ابنة عثمان أمر له عثمان بستمائة ألف درهم، وكتب إلى عبد الله بن عامر أن يدفعها له من بيت مال البصرة (91).

ابتعد عثمان بن عفان كما رأينا عن سياسة الخليفة عمر مع أهله ورعيته، إلا أن المتتبع لسيرة علي بن أبي طالب يرى أنّ سياسته كانت مشابهة لحد كبير لسياسة عمر بن الخطاب، إلا أن الفارق بينهما هو شخصية عمر بن الخطاب وهيئته التي فرضت على رعيته الخضوع، كما أن نوع الرعية اختلف في عهد عمر عن عهد علي، أما سياستهما فتكاد تكون واحدة، فها هو علي بن أبي طالب يرفض طلب أخيه عقيل بدفع المال له من بيت مال المسلمين قائلاً له: "يا أخي ليس لك في هذا المال إلا ما أعطيتك، ولكن اصبر حتى يجيء

مالي وأعطيك ما تريد"<sup>(92)</sup>. فلم يرض عقيلاً هذا الجواب، وقصد معاوية في الشام. ولم يكن علي مُحابياً لولديه الحسن والحسين ، فهو لم يعطهما سوى حقهما في بيت المال. والمعلوم أنّ الحسن والحسين هما أبناء علي من فاطمة الزهراء، ابنة الرسول محمد "ص"، وهي أولى زوجات علي بن أبي طالب. إن الالفت للنظر في قصة زواج علي وفاطمة، أن فاطمة تزوجت علي في عمر كبير إذا ما قورنت ببينات جيلها في تلك الفترة، كما أنّ الرسول محمد "ص" رفض تزويجها من أبي بكر وعمر؟ وكان جوابه لكليهما "انتظر بها القضاء"، وكان أهل علي قد شجعوه على الزواج بفاطمة، لكنه خاف من الموضوع، فكيف لعلي أن يخطب فاطمة بعد رفض الرسول خطبتها من أبي بكر وعمر، ونذكر هنا أنّ علي كان فقيراً مقارنة بأبي بكر وعمر وغيرهم من المسلمين، ومع ذلك وافق الرسول محمد "ص" على تزويج ابنته من علي. إنّ هذا الزواج قد يدفعنا للتفكير بشكل جدّي، بأن الرسول "ص" أراد أن يرسي أسساً جديدة بالنسبة للزواج وما يخص موضوع الأعمار بالتحديد، فالرسول زوج ابنته ابنة الخامسة عشر عاماً، من علي وكان عمره 21 سنة<sup>(93)</sup>، وقيل بأن فاطمة كان عمرها 18 عاماً. ومهما يكن من أمر فإن عمر علي وفاطمة كانا متقاربين وهذا مؤشّر على أن الرسول محمد "ص" أراد إرساء قانون جديد، ولكن بشكل غير مباشر من حيث عمر الزوجين، لأن علي وفاطمة هما أبناء جيل بدأ حياته في ظل الإسلام، في حين أنّه سمح لأبي بكر وعمر وحتى الرسول "ص" بالزواج ممن يصغرهم سناً، لأنّ عادات وتقاليد المجتمع كانت تسمح بذلك. وعلى الأغلب أن هذه الظاهرة لم تكن تقتصر على المجتمع العربي آنذاك بل لدي شعور بأن العمر

كان لا يلعب دوراً كبيراً في تحديد العلاقة الزوجية في كل المجتمعات آنذاك، ولا بد من البحث والتمحيص في هذا المجال للتأكد من هذا الموضوع.

وبالعودة إلى زواج فاطمة وعلي، فقد تشجع علي لخطبة فاطمة بسبب قرابته من الرسول "ص". وهناك روايات متناقضة بخصوص قبول فاطمة للزواج من علي، لأنّ الرسول محمد "ص" عندما أخبرها بأن علي طلبها بكت وقالت له: "كأنك يا أبتِ إنّما ادخرتني لفقير قريش، فقال لها الرسول "ص": "والذي بعثني بالحق اما تكلمت في هذا، حتى اذن الله لي فيه، فقالت فاطمة: رضيت بما رضي الله ورسوله"<sup>(94)</sup>. في حين تذكر مصادر أخرى أن فاطمة سكنت ولم تجب الرسول عندما أخبرها أن علي قد طلبها للزواج، فما كان من الرسول محمد "ص" إلا أن زوجها، بل طلب من علي أن يبيع بعض متاعه (سيفه، وبغيره). فبلغ ثمنها 480 درهم، فقال له الرسول محمد "ص": "أجعل ثلثين في الطيب وثلثاً في المتاع"<sup>(95)</sup>. إن ما تظهره لنا الروايات التاريخية عن علاقة علي وفاطمة كافٍ لرسم صورة شبه واضحة عنهما، فهناك حياة صعبة كانا يحيانها، وشاب حياتهما خلافات زوجية، وربما عادت معظم هذه الخلافات إلى الوضع الاقتصادي السيء الذي عاشه الزوجان، وهذا ما يؤكد الرواية الأولى التي تحدثت عن تدمير فاطمة من زواجها من علي الذي اعتبرته فقير قريش. ونجد الكثير من الأمثلة على هذا التدمير، فقد قالت فاطمة للرسول "ص" يوماً: "يا رسول الله ما لنا فراش إلا جلد كبش ننام عليه بالليل، وونعلف عليه ناضحنا"<sup>(\*)</sup> بالنهار، فقال لها الرسول "ص": "يا بُنَيَّة!

(\*) الناضح: ما يدر لبناً من شاه أو ماعز.

إصبري، فإنّ موسى بن عمران أقام مع امرأته عشر سنين، ليس لهم فراش إلا عباءة قطوانية<sup>(\*)</sup> (96). وكثيراً ما كان علي وزوجته يبيتون دون عشاء، فقد بات علي وفاطمة ليلة دون عشاء، فخرج علي من المنزل، وعند عودته رأى فاطمة محزونة، فسألها عن سبب حزنها، فأخبرته بأن سبب حزنها يعود لعدم تناولها الطعام حيث قالت له: "لم نتعش البارحة ولم نتغد اليوم، وليس عندنا عشاء"<sup>(97)</sup>. فما كان من علي إلا أن خرج والتمس عملاً، فاشتري طعاماً ولحماً، فطبخت فاطمة، وطلبت من علي أن يدعو الرسول "ص"، وكان عليه السلام مضطجعاً في المسجد وكان يقول: "أعوذ بالله من الجوع ضجيعاً"<sup>(98)</sup>. فقال له علي: عندنا طعام، ودعاه للطعام، وطلب عليه السلام من فاطمة أن تعرف لنسائه، ثم قال لها اغرفي لابنك وزوجك. من الواضح أن الجميع كان يعاني من الفقر، ولكن هذه الحالة لازمت علياً فترة طويلة، وكانت المحرك لخلافاته مع فاطمة. والجدير بالذكر أن كنية علي وهي "أبو تراب" لها قصة، فقد جاء الرسول محمد "ص" بيت فاطمة فسأل عن علي، فقالت له فاطمة: "قد كان بيني وبينه شيء فغاضني، فخرج ولم يقل عندي"<sup>(\*)</sup> (99). فبعث الرسول "ص" أحدهم ليفتش عن علي، فوجده في المسجد، فأتى الرسول "ص" علياً، فلقبه مضطجعاً في المسجد، وقد سقط رداؤه عنه، فأصابه تراب، فأخذ الرسول محمد "ص" يمسح عن علي التراب، ويقول: "قم أبا تراب"<sup>(100)</sup>. إن هذه العلاقة الحميمة بين الرسول وعلي لم تشفع لعلي عندما

(\*) قطوان: موضع بالكوفة منه الأكسية (نسبة إلى قطوان موضع بالكوفة).

(\*) لم يأخذ قسطاً من القيلولة، وقت الظهر.



أراد أن يتزوج من جورية بنت أبي لهب، فقد أستأذن بنو هاشم بن المغيرة في أن ينكحوا علي ابنتهم، فقال عليه السلام: "لا آذن، ثم لا آذن، إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي، وينكح ابنتكم، فإنما هي بضعة مني، يريني ما أربها، ويؤذي ما آذاها"<sup>(101)</sup>، فترك علي نكاحها، مع العلم بأن الرسول لم يتزوج علي خديجة أم فاطمة في حياتها، ورفض أن يتزوج علي علي ابنته كذلك، رغم أن الشرع لم يحرم ذلك.

إن زواج علي من فاطمة أثمر عن عدة أبناء، وهم الحسن والحسين ومحسن الذي توفي وهو صغير، وأم كلثوم وزينب، وقيل بأن الحسن وهو الابن الأكبر لعلي ولد في رمضان في العام الثالث للهجرة، وقيل عام 4هـ<sup>(102)</sup>. إن شخصية علي قد أثرت علي أبنائه، فقد كان علي رجلاً محباً للحرب، فلما ولد الحسن أراد أن يسميه حرباً، فسماه الرسول "ص" الحسن، فلما ولد الحسين أراد أن يسميه حرباً، فسماه عليه السلام الحسين، وعق الرسول محمد "ص" عن الحسن والحسين كبشاً، كبشاً<sup>(103)</sup>.

قال عليه السلام: "سمى هارون ابنيه شبراً وشبيراً، وإني سميتُ ابناي الحسن والحسين، بإسم ابني هارون شبراً وشبيراً"<sup>(104)</sup>. وكان الرسول "ص" عند ولادة الحسن قد سأل علياً عن فاطمة، فقال له علي بأنها قد وضعت غلاماً، وأخبره بأنه قد لفه بخرقه صفراء، فقال له الرسول "ص": "أتيني به"، فأتاه علي به، فألقى عنه الخرقه الصفراء وأبدله بخرقه بيضاء، وسأل علي عن اسمه، فقال علي: "سميته جعفرأ يا رسول الله". فقال: "لا، ولكنه حسن، وبعده حسين، وأنت أبو حسن الخير"<sup>(105)</sup>. والحسن والحسين كانا أكثر شبيهاً بالرسول

محمد عليه السلام، وكان الحسن مزوّجاً كأبيه عليّ. ورغم أن علي قد تزوج الكثير من النساء، إلا أنه لم يكن راضياً عن تصرفات ابنه الحسن، فقد قال علي لأهل الكوفة: "يا أهل الكوفة! لا تزوجوا الحسن، فإنه مطلق، فقال رجل من همدان: والله لنزوجنه، فما رضيّ أمسك وما كرهه طلق"<sup>(106)</sup>. وكان علي يخشى أن يورثه الحسن عداوة القبائل بسبب زواجه وطلاقه المتكرر. والحسن كان وسيماً، جميلاً عاقلاً، رزيناً، جواداً خيراً، وكان منكاحاً مطلقاً تزوج نحو 71 امرأة، وقلماً كان يفارقه أربع ضرائر. إن الغريب في الموضوع الأموال التي كانت تلزم للإنفاق على هؤلاء النسوة، ومن أين حصل عليها الحسن؟ ونحن نعلم وضع علي المادي، فقد قال ابن سيرين عن الحسن: "تزوج إلى امرأة، فأرسل إليها بمئة جارية مع كل جارية ألف درهم"<sup>(107)</sup>.

في نفس الوقت نجد أن الحسن قد قاسم الله تعالى ماله ثلاث مرات، حتى أنه كان يترك نعلًا ويأخذ نعلًا، وخرج عن ماله كله مرتين<sup>(108)</sup>. وما هذا إلا دليل امتلاك الحسن للأموال مع علمنا أن الحسن لم يرث شيئاً عن أبيه علي، والسؤال الذي يطرح نفسه ما هو العمل الذي كان يقوم به الحسن، وهل اكتسب أمواله فقط من نصيبه من بيت المال؟ أم أنه حصل على هذه الأموال من مؤيديه وهم أكثر، والمتتبع لسيرة الحسن يرى أنه كان محباً للمال، فقد تنازل عن الحكم لمعاوية ضمن اتفاقية عقدت بينهما، وحصل مقابل تنازله عن الخلافة عام 41هـ على مبلغ كبير من المال، وكذلك كان من الشروط أن تؤول الخلافة

للحسن من بعد معاوية، ولعل الحسين كان لديه نفس الموقف من الأموال فقد كانا يحبانه ولكنهما في الوقت نفسه كانا كريمين.

ونشير إلى قصة زواج أم كلثوم، فقد أستاذن علي أبناءه من فاطمة في زواج أم كلثوم من عمر بن الخطاب، فقالوا له "زوجه"، وكانت موافقتهم على الأغلب في تزويجها من عمر لمكانة عمر وكونه أمير المؤمنين. وعندما مات عمر، دخل الحسن والحسين على أم كلثوم فقالا لها: "إنك من عرفت سيدة نساء المسلمين، وبنت سيدتهن، وإنك والله لئن أمكنت علياً من نفسك لينكحك بعض أيتامه<sup>(\*)</sup>، ولئن أردت أن تصيين مالا عظيماً لتصيينه"<sup>(109)</sup>. وبالتالي كانت نظرتهم للموضوع بأن تظفر بالمال، وهي قادرة على نياله بسبب مكانتها، فهماً بالخروج من عندها، ف جاء علي يتكئ على عصاه، فجلس وتحدث مع أبنائه قائلاً: "قد عرفتم منزلتكم مني يا بني فاطمة، وأثرتكم عندي على سائر ولدي لمكانكم من رسول الله "ص"، وقرابتكم منه"، فقالوا: "صدقك الله، وجزاك الله عنا خيراً"<sup>(110)</sup>. إن حديث علي هذا يظهر لنا تمييز علي لأبناء فاطمة على سائر أبنائه من نساءه الأخريات بسبب قربهم ومكانتهم من قلب محمد عليه السلام، وإن كان هذا موقف الأب فما حال بقية المسلمين وخاصة ممن أحبوا علياً وأبنائه؟! ولنكمل قصة أم كلثوم التي طلب منها علي أن تجعل أمرها في يده قائلاً لها: "أي بنية: "أي إن الله قد جعل أمرك بيدك، فأحب أن تجعله بيدي"، فقالت: "أي أبة! والله إنني لامرأة أرغب فيما ترغب فيه النساء، فأنا أحب أن أصيب ما تصيب النساء من الدنيا،

(\*) أبناء جعفر بن أبي طالب.

وأنا أريد أن أنظر في أمر نفسي". فقال: "لا والله يا بنية ما هذا من رأيك، ما هو إلا رأيٌ هذين - يعني أخويها. ثم قام فقال: "والله لا أكلم رجلاً منهما وتفعلين"<sup>(111)</sup>. فأخذ الحسن والحسين بثوب علي، وطلبا منه البقاء، وطلبا من أختهما أن تجعل أمرها في يده ففعلت فزوجها من ابن أخيه، ثم رجع إلى بيته فبعث إليها بأربعة آلاف درهم، وبعث إلى ابن أخيه فأدخلها عليه. وكانت أم كلثوم قد تزوجت بعد عمر كل من جعفر بن أبي طالب، ثم بعد موته أخوه محمد بن جعفر، ثم تزوجها بعده أخوه عبد الله بن جعفر، وكان علي وكيلها في كل مرة وهو من يقوم بتزويجها من أبناء أخيه"<sup>(112)</sup>، ولم ترزق أم كلثوم بأبناء من أبناء عمها إلا من محمد، فولدت له فتاة توفيت وهي صغيرة، وجديراً بالذكر أن زينب وهي شقيقة أم كلثوم من علي وفاطمة قد تزوجت من ابن عمها عبد الله بن جعفر، بعد وفاة أختها أم كلثوم، وأنجبت له علياً وعوناً وعباساً ومحمداً وأم كلثوم، وشهدت زينب كربلاء مع أخيها الحسين<sup>(113)</sup>. إن ما سبق ذكره يدل على أن علي لم يكن يهتم بتزويج بناته لمن يمتلك المال، بل كان حريصاً على تزويجهنَّ بأبناء أخيه الشهيد جعفر الذي رباهم بعد موت أخيه، في حين وكما رأينا سابقاً كان الحسن والحسين يريدون لأختهم أم كلثوم بأن تتزوج من رجل يدرّ عليها الأموال. وإن عدنا للوراء قليلاً لوجدنا أن الرسول قام بالشيء نفسه عندما زوج ابنته فاطمة من علي "فقير قريش" حسب وصف فاطمة له، ولم يُرد لها بأن تتزوج رجلاً من أغنياء مكة أو حتى المدينة. إن أبناء فاطمة ربما رغبوا بالحصول على المال بسبب ما عاشوه من حرمان في البيت الذي عاشا فيه، فنحن رأينا كم كانت حياة علي وفاطمة صعبة، وعاشا في

ظروف قاسية، وربما هذا ما دفع أبناء فاطمة سواء الحسن أم الحسين أم أم كلثوم للرغبة في الحصول على حياة أفضل ليتجنبوا ما عاشوه في طفولتهما من "حرمان" إن جاز لنا التعبير. لكنَّ علياً الذي عاش هذه الظروف لم يكن ليقبل بهذه المعادلة رغم أنَّه تربي في بيت متواضع، وتكفل به الرسول محمد "ص" لاحقاً.

من جهة أخرى يمكن بوضوح إدراك حقيقة أن أبناء علي من فاطمة كانوا يدركون مكانتهم في قريش، بل ويتمسكون بالدفاع عن هذه المكانة وعمّا اكتسبوه منها، فالحسن الذي رُشح للخلافة من الآلاف في الكوفة وغيرها كان يدرك مكانته في قريش وخاصة أنه من نسل محمد "ص". وقد تمتع الحسن وإخوته بمكانة مرموقة في مجتمعه بسبب قرابته من الرسول، وحظي باحترام كبير من المسلمين، ولعل معاوية كان أول المدركين لهذه المكانة، فقد فاخر يزيد بن معاوية الحسن بن علي، فما كان من معاوية إلا أن قال له: "فاخرت الحسن؟ قال: نعم، قال: لعلك تظن أن أمك مثل أمه، أو جدك كجده، فأما أبوك وأبوه فقد تحاكما إلى الله، فحكم لأبيك على أبيه"<sup>(114)</sup>. لهذا سعى معاوية بكل الطرق لإيقاف النزاع مع الحسن، ووعده بأن تكون الخلافة للحسن من بعده. وانصرف الحسن للمدينة المنورة وبقي فيها إلى أن مات ولم يبلغ الخمسين، وقيل بأنه مات مسموماً<sup>(115)</sup>، وتوفي الحسن عام 50هـ، والحقيقة بأن الأمر يدعو للشك في قضية موته، وخاصة إذا علمنا أنه الأحق بالخلافة حسب الاتفاق مع معاوية، فهل يمكن أن يكون الحسن قد دفع حياته ثمناً لهذا الاتفاق، خاصة بعدما أرسى معاوية أسس حكمه، وأراد لدولته أن تكون إرثاً لأبنائه من بعده، وكان سبب موته كما قيل

بأن زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس قد سقته السم، فلما اشتد مرضه قال لأخيه الحسين: "يا أخي إني سقيت السم ثلاث مرات، لم أسق مثل هذه، إني لأضع كبدي"، قال الحسين: "من سقاك يا أخي؟ قال: ما سؤالك عن هذا؟ أتريد أن تقاتلهم؟ أكلهم إلى الله عز وجل"<sup>(116)</sup>.

ويظهر الحسن حتى عند وفاته الجانب المسالم من شخصيته فهو لم يكن كأبيه ولا أخيه الحسين، حتى أنه طلب من عائشة أن يدفن عند رسول الله، فوافقت، ولكنه طلب من الحسين قبيل وفاته أن يعاود سؤال عائشة خوفاً من أن تكون قد استحيت منه، وبعد وفاته قام الحسين بسؤال عائشة فوافقت، وما أن تناهى الخبر لبني أمية وعلى رأسهم مروان بن الحكم حتى ثارت ثائرتهم، ورفضوا ذلك. وما أظن ذلك إلا خوفاً من اكتساب الحسن لمزيد من المكانة في قلوب المسلمين موازية لتلك المكانة التي حظي بها الخلفاء الراشدون. وعزم الحسين على دفنه، وأراد الاقتتال من جديد مع بني أمية، إلا أن وصية الحسن كانت واضحة فقد قال لأخيه إن اعترض بنو أمية على دفني مع النبي فادفني في البقيع ولا تقاتلهم، وبوساطة من أبي هريرة الذي ذكر الحسين بوصية الحسن قام الحسين بدفن الحسن في البقيع. إن الحسين الذي كان كارهاً لما قام به الحسن من تسليم الأمر لمعاوية قال له وقتها: "أنشدك الله أن تصدق أحدثة معاوية، وتكذب أحدثة أبيك، فقال له الحسن: أسكت أنا أعلم بهذا الأمر منك"<sup>(117)</sup>.

جمع الحسين الذي تميز بالشجاعة حوله العرب والفرس، فقد اعتبره الفرس صاحب الحق المقدس حيث تزوج شاهر بانو بنت يزيد ملكهم، فجمع بين أشرف دم عربي وأعز دم فارسي، فكان أحق الناس بالحكم في نظرهم<sup>(118)</sup>، وليضمن معاوية حق ابنه بوارثته، وكى

يحط من شأن الحسين كان يتتبع أخباره بواسطة عيونه الكثر في المدينة، ومن ذلك حادثة زواج الحسين بإحدى جواريه بعد إعتاقها، فكتب معاوية إلى الحسين: "من أمير المؤمنين معاوية إلى الحسين بن علي، أما بعد: فإنه بلغني أنك تزوجت جاريتك، وتركت أكفائك من قريش، ممن تستحسنه للولد، وتمجد به في الصهر، فلا لنفسك نظرت، ولا لولدك انتقيت"، فرد عليه الحسين بكتاب قال فيه: "أما بعد فقد بلغني كتابك، وتعييرك إياي بأني تزوجت مولاتي، وتركت أكفائي من قريش، فليس فوق رسول الله منتهى شرف ولا غاية في نسب، وإنما كانت ملك يميني، خرجت على يدي بأمر فالتمست فيه ثواب الله تعالى، ثم أرجعتها على سنة نبيه محمد "ص"، وقد رفع الله بالإسلام الخسيصة، ووضع عنا بها النقيصة، فلا لوم على أمري مسلم إلا في أمر ما ثم، وإنما اللوم، لوم الجاهلية"<sup>(119)</sup>. فلما قرأ معاوية الكتاب أعطاه ليزيد لقراءته فقرأه يزيد وقال لأبيه: "لشد ما فخر عليك الحسين، فقال معاوية: لا ولكنها السنة بني هاشم الحداد، التي تفلق الصخر، وتعرف من البحر"<sup>(120)</sup>. وحين ولي يزيد الحكم لم يبايعه الحسين، وخرج الحسين خروجه المشهور من مكة إلى الكوفة رغم أن جموع المسلمين وأقرباءه قد نصحوه بعدم الخروج للعراق خوفاً عليه من تكرار ما حدث مع أبيه، وخاصة أن الحسن قد تنازل عن الحكم لمعاوية لأنه لم يأمن من معه، ولعل الفرزدق قد خلص كل ما نصحه به الناس قائلاً: "قلوب الناس معك، وسيوفهم مع بني أمية، والقضاء ينزل من السماء، والله يفعل ما يشاء"<sup>(121)</sup>. خرج الحسين ومعه أسرته ونحو ثمانين من الرجال، وفي كربلاء، كانت المواجهة مع جيش يزيد بقيادة ابن زياد، واستشهد الحسين بعد مواجهة قصيرة، وديس

الحسين بسنابك الخيل حتى تكسرت أضلاعه، وتقاسم القوم أسلابه، وحمل رأسه إلى ابن زياد، فعرضها بالكوفة، وقد نقل رأسه ونساؤه وأطفاله إلى يزيد بدمشق. واختلف في مكان دفن رأسه، فقيل في دمشق، وقيل بكربلاء دفن مع الجثة، وقيل دفن في مكان آخر<sup>(122)</sup>.

وكانت السيدة زينب قد شهدت كربلاء وبعد مقتل أخيها الحسين، أخذت نساء الكوفة يندبن وينحن علي الحسين، فقال علي بن الحسين: يا أهل الكوفة إنكم تبكون علينا فمن قتلنا؟ وأما زينب فأومأت للناس بالسكوت، فسكتوا، فقالت بعد أن حمدت الله وصلت على نبيه: "أما بعد يا أهل كوفة الختل<sup>(\*)</sup> والخذل أتبكون فلا سكنت العبرة ولا هدأت الرنة، إنما مثلكم مثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً... ألا ساء ما تزررون إي والله فابكوا كثيراً أو اضحكوا قليلاً فقد ذهبتم بعارها وشنارها، فلن تدحضوها بغل أبداً، وإنما تدحضون قتل سليل خاتم النبوة، ومعرف الرسالة ومدار حجتكم، وسيد شباب أهل الجنة، ويلكم يا أهل الكوفة ألا ساء ما سولت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم، وفي العذاب أنتم خالدون"<sup>(123)</sup>.

وكما أشرنا فقد نقل رأس الحسين إلى يزيد، وعندما وضع رأس الحسين بين يديه قال لمن كانوا في مجلسه أتدرون من أين أتى هذا؟ قال: "أبي خيرٌ من أبيه، وفاطمة أُمي خيرٌ من أمه، وجدي رسول الله خيرٌ من منه، وأحق بهذا الأمر منه"<sup>(124)</sup>. إن مقتل الحسين ما هو إلا شعورٌ بالنقص من يزيد بن معاوية، وما هو إلا محاولة فاشلة لكسب جولة لبني أمية على حساب بني هاشم فما زال يزيد يذكر مفاخرة الحسن له، وكذلك الحسين، الذي رأى بأن يزيد

(\*) الختل: الخداع.



فاسقاً فاجراً ولا يمكن أن يبايعه، وجاء الوقت ليقتص يزيد من الحسين، وقد اعترف يزيد أمام الجميع بأن كل ما ذكره الحسين هو صحيح أثناء مفاخرته بنسبه وختم يزيد قوله: "فلعمري ما أحد يؤمن بالله، واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلاً، ولا ندأ... ولكنه أي الحسين أتى من قبل فقهه، ولم يقرأ: "قل اللهم مالك الملك"<sup>(125)</sup>. وما أن ختم يزيد حديثه حتى دخلت نساء الحسين عليه والرأس بين يديه، فأخذت فاطمة وسكينة بنات الحسين تحاولان النظر لرأس أبيهما وأخذ يزيد يتناول ليستر عنهما الرأس، فلما رأين الرأس أخذتا بالصياح وصاح معهما نساء معاوية، وبنات معاوية، وقالت فاطمة: "بنات رسول الله سبايا يزيد، فقال يزيد: "يا ابنة أخي أنا لهذا كنت كارهاً، فقالت: والله ما ترك لنا خرص، فقال: ما أتى إليكن أعظم مما أخذ منكم"<sup>(126)</sup>. وفي هذه الأثناء طلب رجلٌ من الحاضرين أن يهب له يزيد فاطمة بنت الحسين، فأخذت فاطمة بثياب عمته زينب فقالت زينب صارخة: "كذبت ولؤمت ما ذلك لك ولا له، فغضب يزيد، وقال: والله إن ذلك لي ولو شئت أن أفعله لفعلته. قالت: كلا والله ما جعل الله لك إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا. فغضب يزيد واستطار ثم قال: إياي تستقبلين بهذا إنما خرج من الدين أبوك وأخوك. قالت زينب: بدين الله ودين أبي وأخي وجدي أهتديت أنت وأبوك وجدك. قال: كذبت يا عدوة الله. قالت: أنت أميرٌ تشتم ظلماً وتقهر بسطانك. فاستحى وسكت"<sup>(127)</sup>. هنا لابد أن نتساءل كيف يقبل مسلم أن يسبي حفيدات رسول الله؟ لكن بنات علي فاخرن بنسبهن من رسول الله في أحلك المواقف وأصعبها لتبقى عقدة آل البيت تطارد يزيد

وبني أمية، طوال حكمهم، ولتبدأ من لحظة موت الحسين شرعية وحق شيعة الحسين في قتال الأمويين والمساهمة في تقويض حكمهم.

إن هذا الحق لم يقتصر على أبناء علي من فاطمة، بل تعداه ليشمل أبناء علي من نسائه الأخريات، ولعل أشهر أبنائه من غير فاطمة هو محمد بن الحنفية، وهي كما قيل من سبي الإمامة، وكانت جواري السنّد وإمائها مشهورة في القيام على مصالح الأبناء وأداء الواجبات في تربيتهما، وحسن خدمتها، ولذا سعى الأشراف والنجباء من المسلمين في اتخاذ السنديات جواري وسراري، وكانت منهن خولة الحنفية<sup>(128)</sup>. وقالت عنها أسماء بنت أبي بكر واصفة لها: "رأيت أم محمد بن الحنفية سنديّة سوداء وكانت أمة لبني حنيفة ولم تكن منهم وإنما صالحهم خالد بن الوليد على الرقيق ولم يصلحهم على أنفسهم"<sup>(129)</sup>. وقد أعطى أبو بكر خولة بنت جعفر الحنفية لعلي بن أبي طالب، وأنجبت منه محمداً. وكان الرسول محمد "ص" قد أعطى الرخصة لعلي بأن يسمي محمداً على اسم الرسول فقال علي للرسول محمد "ص": "يا رسول الله إن ولد لي ولد بعدك أسميه باسمك واكنيه بكنيتك، قال: نعم"<sup>(130)</sup>. وكانت كنية محمد أبا القاسم على كنية الرسول محمد "ص". وقبل الحديث عن محمد بن الحنفية يشار إلى أن هناك تضارباً واضحاً في وقت ولادته، فقيل بأنه ولد زمن خلافة أبي بكر الصديق، وبالتحديد في العام الذي مات فيه أبو بكر الصديق، في حين قال آخرون بأنه ولد سنة 16هـ. أما محمد بن الحنفية فقد قال بأنه ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب<sup>(131)</sup>. كما ان

وفاته لم يتفق عليها المؤرخون فقد قيل أنه مات عام 70هـ، وقيل 72هـ، وقيل 80هـ، وقيل 81هـ، وقيل 86هـ وهناك فرق شاسع بين التاريخ الأول والتاريخ الأخير.

على الرغم من تفضيل علي لأبنائه من فاطمة على بقية أولاده، إلا أن محمد كان له مكانة خاصة، فقد كان يحمل راية علي في معاركه، وقال رجل لابن الحنفية في هذا الخصوص: "ما بال أبك كان يرمي بك في مرام لا يرمي فيها الحسن والحسين؟ فقال: لأنهما كانا خديه وكنت يده، فكان يتوقّي بيديه عن خديه"<sup>(132)</sup>. فلكل منهم كان مكانته عند علي. وقد ذكر ابن الحنفية في أكثر من مرة بأن الحسن والحسين خير منه، ومع ذلك فقد خصّه والده بأشياء لم يخصهما به فقال عن ذلك: "حسن وحسين خير مني ولقد علما أنه يستخيلني دونهما، وإني صاحب البغلة الشهباء"<sup>(133)</sup>. وكان محمد اعلم بحديث علي منهما. وقال ابراهيم بن الجنيد الختلي في ذلك: "لا نعلم أحداً أسند عن علي عن النبي أكثر ولا أصح مما أسند به محمد بن الحنفية"<sup>(134)</sup>. وكان محمد بن علي يتعامل مع أمه بشكل متميز ويقوم بواجباتها بل وكان يساعدها بأمر خاصة بالنساء. فقد رأى أحدهم بيد محمد أثر الحناء، فقال له: ما هذا؟ فأجابه محمد: "كنت أخضب أُمي"<sup>(135)</sup>، وذكر ابن عساكر بأن "محمد بن الحنفية كان يغلف رأس أمه، ويمشطها وينومها"<sup>(136)</sup>. ولم يختلف محمد عن أبيه علي وأخيه الحسن من حيث علاقته بالنساء، فقد كان يخضب بالحناء والكتم، وسئل ذات مرة: "أكان علي يخضب؟ قال: لا، فقال له، فمالك؟ قال: أتشيب به للنساء"<sup>(137)</sup>.

من ناحية أخرى اشتهر محمد بن علي بالورع، والعلم، وقد ورث ذلك عن أبيه، وكان أبناء الصحابة يعلون من شأنه بسبب علمه ومكانته، فقد سأل رجل ابن عمر عن مسألة فقال له: "سل محمد بن الحنفية ثم أخبرني بما يقول، فسأله عنها فأخبره، فقال ابن عمر أهل بيت مفهمون"<sup>(138)</sup>. وفي نفس السياق نذكر قصة عبد الملك بن مروان حين كتب ملك الروم يتهدده ويتوعده، وكان قد هدده بإرسال الجيوش له بالبر والبحر، أو يؤدي الجزية له، فأمر عبد الملك الحجاج بأن يكتب إلى ابن الحنفية يتهدده ويتواعده ثم يبعث له برد محمد: فبعث الحجاج لابن الحنفية يتهدده بالقتل، فردّ عليه محمد قائلاً: "إن الله تعالى ثلاثمئة وستين لحظة إلى خلقه، وأنا أرجو أن ينظر الله إلى نظرة يمنعي بها منك"<sup>(139)</sup>، فأرسل الحجاج بكتاب محمد إلى عبد الملك بن مروان، فكتب عبد الملك إلى ملك الروم بنسخته، فقال ملك الروم: "ما خرج هذا منك ولا أنت كتبت به، ما خرج إلا من بيت نبوة"<sup>(140)</sup>. وفي الواقع إن الحديث عن علم محمد ورجاحة عقله لا يمكن أن نوجزها في أسطر معدودة، والغريب في الموضوع أن محمد بن الحنفية لم يكن محط أنظار المؤرخين المسلمين، خاصة من المؤيدين للمذهب السني، وبالتحديد من تجنبوا المواجهة مع السلطة الحاكمة.

وبالنسبة لعلاقة محمد مع أخوته، فالواضح أن العلاقة الأخوية بين أبناء علي كانت قوية، ويمكن القول بأن لهذه العائلة تقاليد لا تزال أسرنا العربية محتفظة بها حتى يومنا الحاضر، فأسرة علي كانت تخضع لكبير العائلة. فقد كانت كلمة علي مسموعة بين أبنائه، ثم الحسن أصبح كبير عائلته وخضع أخوته له، رغم تعبيرهم دائماً عن آرائهم، ثم أصبح الحسين

وبعد مقتله الذي جسد بموته وحدة لهذه العائلة، فقد خرج معه معظم أفراد عائلته سواءً من أبنائه أم من إخوانه فقد قتل معه أبو بكر بن علي وأمه ليلى بنت مُعوّد النهشلي وجديرٌ بالذكر أن أبنها الثاني هو عبد الله بن علي قتل على يد المختار بن أبي عبيد، وقتل مع الحسين كذلك العباس الأكبر وعثمان وجعفر وعبد الله، وأهمهم هي أم البنين بنت حرام الوحيدية، وقتل معه أيضاً أخوه محمد الأصغر وأمه أم ولد<sup>(141)</sup>. إن خروج أخوته معه ما هو إلا دليل على هذا الترابط العائلي حتى الذين لم يخرجوا معه من أخوته نصحوه بعدم الخروج وعلى رأسهم محمد بن الحنفية الذي نصح الحسين بعدم الخروج للكوفة قائلاً: "يا أخي أنت أحب الناس إليّ، وأعزهم عليّ، ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق أحق بها منك، تتحّ ببيعتك عن يزيد وعن الأمصار ما استطعت، وابعث رسلك إلى الناس، وادعهم إلى نفسك، فإن بايعوا لك حمدت الله على ذلك، وإن أجمع الناس على غيرك لم ينتقص الله بذلك دينك ولا عقلك..."<sup>(142)</sup>. وطلب الحسين منه أن يدلّه على بلد يرضاها له، فقال له محمد بأن يتوجه إلى مكة. وكان محمد يدرك مكانة الحسين والحسن، بل يتشرف بكونهم أشقائه، فقد وقع ذات مرة بين الحسن ومحمد بن الحنفية لحاء ومشى الناس بينهما بالنمائم فما كان من محمد إلا أن بعث إلى أخيه قائلاً: "أما بعد فإن أبي وأباك علي بن أبي طالب، لا تفضلني فيه ولا أفضلك، وأمي امرأة من بني حنيفة، وأمك فاطمة الزهراء بنت رسول الله "ص"، فلو ملئت الأرض بمثل أمي لكانت أمك خيراً منها، فإذا قرأت كتابي هذا فأقدم حتى تترضاني، فإنك أحق بالفضل مني"<sup>(143)</sup>. وذكر ابن عساكر أن الإشكال وقع بين الحسين ومحمد، وأورد نفس النص، فما

كان من الحسين إلا أن ليس رداءه ونعله وصار إليه فترضاه<sup>(144)</sup>. إن الحديث عن عائلة علي تظهر قدراً كبيراً من المعاناة التي لم تقتصر على أبناء علي وفاطمة بل تعدتها لتشمل غيرهم من أبناء علي. فكما ذكرنا قتل عدد كبير من أبناء وأخوة الحسين في كربلاء، ولم يكن محمد بأقل نصيباً من هذه المعاناة. فمحمد الذي وقع بين خصمين، وهما ابن الزبير وعبد الملك بن مروان، وكان مطلوباً من محمد أن يبايعهما، ولكنه رفض ذلك حتى يجتمع رأي المسلمين على أحدهما. وقام ابن الزبير بمنعه من دخول مكة، فأراد التوجه للشام فمنعه عبد الملك حتى يبايع. ولم يأمر محمد بن الحنفية أتباعه أن يقاتلوا. إن مقتل المختار بن أبي عبيد عام 68هـ، جعلت ابن الزبير يظن بأن محمد سيبايعه، فأرسل إليه عروة بن الزبير، يطلب منه المبايعة وإلا فلن يكون رد عبد الله بن الزبير إلا الحرب، فلم يجبه محمد لطلبه، فما كان من عبد الملك إلا أن استغل الموقف فأرسل كتاباً إلى محمد طالباً منه القدوم للشام، فبعث إليه قائلاً: "إنه قد بلغني أن ابن الزبير قد ضيق عليك وقطع رحمك، واستخف بحقك حتى تبايعه، فقد نظرت لنفسك وأنت أعرف به حيث فعلت ما فعلت، وهذا الشام فانزل منه حيث شئت فنحن مكرموك وواصلوا رحمك وعارفوا حقك"<sup>(145)</sup>. فاستشار محمد أصحابه، فخرجوا للشام بعد أن ضيق ابن الزبير عليهم وأساء معاملتهم. وفي الشام نزل محمد أبله فكان محبوباً من الناس، وكان إماماً لهم، فشق ذلك على عبد الملك وخاصة أن محمد لم يبايعه، فطلب عبد الملك من محمد المبايعة، أو الرحيل من الشام، فما كان من محمد إلا أن رحل عائداً إلى مكة التي توجه لها لأداء العمرة وتوجه محرماً، فمنعه ابن الزبير من دخولها رغم عدم نية محمد بالقتال<sup>(146)</sup>،

فعاد محمد إلى المدينة، وبعد مقتل ابن الزبير، بايع محمد لعبد الملك، ونزل ببلاد الشام، ففي هذه المرة أكرم عبد الملك محمداً ومن معه. وسد عبد الملك ديون محمد، وفرض العطاء لأبنائه، وطلب محمد من عبد الملك إعطاء الأموال لمواليه كذلك. وفي ذلك يقول محمد: "وفدت على عبد الملك فقضى حوائجي وودّعته، فلما كدتُ أن أتوارى من عينيه ناداني: أبا القاسم أبا القاسم! فكررتُ فقال لي: أما تعلم أن الله يعلم أنك يوم تصنع بالشيخ ما تصنع ظالم له؟ يعني حين أخذ ابن الحنفية مروان بن الحكم يوم الدار فدعسه برادئه. قال عبد الملك وأنا أنظر إليه ولي يومئذ ذؤابة"<sup>(147)</sup>. إن تذكير عبد الملك لمحمد بموقف حصل منذ وقت طويل، إنما دليل جديد على الصراع الذي لازم الأمويين والهاشميين على حد سواء. محمد الذي دعس على مروان بن الحكم يوم الدار، لم يغفر له عبد الملك هذا الموقف رغم مبايعة محمد له، وما هو إلا تذكير بأن عبد الملك هو الطرف الأقوى بامتلاكه القوة، ولم يكن محمد بأقل حقداً على عبد الملك، فعندما جاء كتاب عبد الملك لمحمد وهو بالبيع رأى محمد عنوان الكتاب "من عبد الملك أمير المؤمنين إلى محمد بن علي، ما كان منه إلا أن قال: "إنا لله وإنا إليه راجعون، الطلقاء ولعناء رسول الله "ص"، على منابر الناس، والذي نفسي بيده إنها لأمر لم يقرُّ قرارها"<sup>(148)</sup>. إن الغريب في الموضوع أن المسلمين خضعوا لهؤلاء "خلفاء بني أمية" وتركوا أبناء علي الذين لم يستلموا زمام السلطة من بعده - باستثناء الحسن الذي تنازل عن السلطة لمعاوية - ولم يكن لهم شرعية، فكيف قبل المسلمون بأبناء معاوية، وعبد الملك كخلفاء، وهم ليسوا كعلي وأبنائه، ومع ان أبناء علي لم يصلوا للسلطة إلا أن أبناء وبنات علي

هم الأكثر شهرة على الإطلاق من بين أبناء الخلفاء وهذا كما أشرنا سابقاً عائداً إلى نسب علي وقربه من الرسول "ص"، وكذلك يعود لما تعرض له أبناء علي من ملاحقة من قبل الأمويين. وقد تحول أبناء وبنات علي إلى قديسين، ولهم أتباع وموالين، في حين نجد أن أبناء الخلفاء الراشدين، لم يكونوا بتلك المكانة التي كانت لأبناء علي، كما أنهم لم يتعرضوا لملاحقة من الأمويين.

إنَّ ما يلفت الانتباه في موضوع أسر الخلفاء الراشدين هو عدد زوجات الخلفاء وكذلك طبيعة العلاقات في تلك الفترة، حيث لم يكن هناك حساسية في زواج أحد الخلفاء بزوجة خليفة آخر، أو حتى زواج الخليفة بامرأة تقرب زوجته، "فقد تزوج علي من أمامة بنت أبي العاص بن الربيع وأمها هي زينب بنت رسول الله "ص"، تزوجت من علي بعد وفاة خالتها فاطمة، وكان أبوها (أبو العاص) قد أوصى الزبير بن العوام بها، فزوجها من علي، ولما حضرت علي الوفاة قال لأمامة!! إني لا آمن أن يخطبك معاوية بعد موتي، فإن كان لك في الرجال حاجة فقد رضيتُ لك المغيرة بن نوفل عشيراً"<sup>(149)</sup>، فكيف لعلي أن يختار لزوجته زوج المستقبل بعد وفاته هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان علي مدركاً بأن معاوية سيحرص على الزواج بها، وكأنَّ الزوجة هي من ممتلكات الخليفة، وتنتقل بالوراثة، فبعد أن توفي علي وانقضت عدة أمامة، كتب معاوية إلى مروان كي يخطبها، وبذل مئة ألف دينار، فأرسلت أمامة إلى المغيرة تقول: "إنَّ هذا أرسل يخطبني، فإن كان لك بنا حاجة فأقبل"<sup>(150)</sup>، وبالفعل فقد خطبها المغيرة من الحسن بن علي فزوجها منه، وأنجبت له يحيى، وتوفيت وهي



على ذمة المغيرة. وقال ابن الأثير بأنها لم تتجب. إن زواج أمامة من المغيرة وكون الحسن هو وكيلها فمعناه ان المرأة لم تكن تملك أمرها، مع أنها أرسلت بنفسها برسالة للمغيرة تعرض نفسها عليه بناءً على وصية علي لها. إنَّ هذه الحادثة ليست المرة الأولى التي يُزوج فيها الحسن زوجة أبيه، فقد تزوجت ليلي بنت معوذ النهشلي من عبد الله بن جعفر بعد عمه علي، فجمع عبد الله بذلك بين زوجة علي وابنته<sup>(151)</sup>. وذلك بوافقة أبناء علي. إنَّ كل ذلك لا يدل سوى على العقلية المنفتحة التي كانوا يملكونها خاصة في هذا الجانب.

وأعتقد بأن الأم كانت تحتفظ بأبنائها إن لم يكن لهم معيل سواها. فأبو بكر ربي أبناء جعفر بن أبي طالب عندما تزوج من زوجة جعفر بعد استشهاد، وعلي ربي أبناء أبي بكر بعدما تزوج من أسماء بنت عميس زوجة أبي بكر، وينطبق هذا الحال على الفترة الأموية، فعندما تزوج مروان بن الحكم بزوجة يزيد بن معاوية (أم خالد) تصادم مع أبنها الذي كان يعيش معها في نفس القصر. وبالتالي لم يكن من شروط الزواج التحلي عن الأبناء لأهل الزوج السابق، وليس أدل من ذلك إلا القصة التي ذكرناها سابقاً عن عمر عندما طلق زوجته، وأراد أن يأخذ حضانة ابنه منها ومن جدته، فرفض أبو بكر لخشونة عمر، وكذلك يزيد الذي بقي في كنف أخواله ومع أمه ميسون الكلبيّة، وإن كان واقع الحال كهذا في قصور الخلافة وبيوت الأشراف، فلا بد أن تنطبق هذه الظاهرة علي بيوت العامة بالنسبة لحضانة وتربية الأبناء.

إنّ هذا الموضوع يدفعنا للتفكير بشيء آخر وهو عدد زوجات الخلفاء، فيظهر بان متوسط عدد أزواج الخلفاء الراشدين كان حوالي 7-8 زوجات، وهو عدد كبير مقارنة بوقتنا الحالي، علماً أن نصيب الأسد في هذا المجال كان لعلي بن أبي طالب الذي تزوج من تسع نساء على الأقل وهنّ من ذُكرت المصادر اسماءهن. ذكرت المصادر أن لعلي بنات كثيرات ومن أمهات شتى، الا أنها لم تذكر أسماء الأمهات. وهنا توجد تفرقة كبيرة فعندما تعلق الأمر بأمهات الذكور من نساء علي ذكرت المصادر أسماؤهن، وعندما تعلق الأمر بأسماء نساءه اللواتي أنجبن الإناث لم تذكر أسماؤهن. وقد يفهم هذا الموضوع على أنه استخفاف من قبل الناس بهن، أو أنّ أسماؤهن لم تذكر كونهن جواري لعلي، وعندما أنجبن أصبحن على عصمته إلا أن ذلك لم يكن استخفافاً من قبل المؤرخين، فابن الأثير يشير إلى أنّ أسماء البنات اللواتي لم تذكر أسماء أمهاتهن هنّ "أم هانئ وأم الكرام، وميمونة، وزينب الصغرى، ورملة الصغرى، وأم كلثوم الصغرى وفاطمة، وأمّامة، وخديجة وأم سلمة، وأم جعفر وجمانة ونفيسة... وكلهن من أمهات أولاد، ويشير قائلاً لعدم ذكر أسمائهن "لم يذكرن لنا"<sup>(152)</sup>. وتكفي الإشارة هنا إلى أن علي عندما قتل كان له سبع عشرة سُرّية<sup>(153)</sup>. وبناءً على ما سبق فنحن نفهم الخلاف الحاصل في تحديد عدد أبناء وبنات علي، فالمتفق عليه من أبناء علي خمسة عشر ذكراً وثمانية عشر أنثى، وأختلف في الذكور إلى عشرين والإناث إلى اثنتين وعشرين<sup>(154)</sup>. جاء في معرفة الصحابة للأصفهاني بأن علي عندما قتل كان لديه 29 ولداً، و14 من الذكور، و15 من الإناث<sup>(155)</sup>. أما الطبري فقد ذكر 14 ولداً و17 بنتاً لعلي، وتجاهل

بالتالي محسن الذي توفي صغيراً، وكذلك عون الذي تتضارب الكتب حول انجاب اسماء بنت عميس له، فيقال بأن اسماء بنت عميس أنجبت لعلي يحيى وعون، ويقال يحيى ومحمد الأصغر، وقيل بأن محمد الأصغر لأم ولد<sup>(156)</sup>، وحتى إن قبلنا بهذا العدد الذي ذكره الطبري نجد أن أبناء علي وبناته تجاوزوا الثلاثين. هذا يشير إلى أن علي كان مزوجاً واللافت في الموضوع بأن عمر بن الخطاب الذي تزوج عشر نساء منهن 4 في الجاهلية، لم ينعث يوماً بأنه مزوج. وتزوج عثمان بثمان نساء، أما أبو بكر فقد كان أقل الخلفاء زواجا بالنساء، فقد تزوج 4 نساء، اثنتان في الجاهلية واثنتان في الإسلام، وأنجب منهن 6 أبناء، 3 من الذكور، و3 من الإناث، في حين أنجب عمر 4 من الإناث و7 من الذكور، وأنجب عثمان 17 ابناً، 6 من الإناث و11 من الذكور، وبالتالي يصل متوسط أبناء الخلفاء الراشدين إلى 15 ابناً بين ذكر وأنثى، وهذه أيضاً نسبة مرتفعة مقارنة بأيامنا الحالية، ويعود السبب الأساسي في ارتفاع هذه النسبة إلى تعدد الزوجات، وقد يظن الدارس للوهلة الأولى أن معدل الإنجاب عند نساء الخلفاء يصل إلى 2-3 أبناء، ولكن عند دراسة أكثر عمقاً للموضوع أتوقع أن ترتفع هذه النسبة بشكل كبير. وما يجعلنا نفكر بالطريقة الأولى أن الخليفة أنجب من كل امرأة من نسائه 2 أو 3 على الأكثر، لكن عند تتبع الموضوع، نجد أن نفس المرأة قد تزوجت أكثر من مرة، وأنجبت لكل منهم اثنين أو أكثر. مثال ذلك أسماء بنت عميس التي كما أشرنا أنها أنجبت اثنين لعلي ومحمد لأبي بكر وكانت قبلهما زوجة لجعفر بن أبي طالب وكانت قد أنجبت منه، وبالتالي لو تتبعنا نساء الخلفاء وكم أنجبت كل واحدة منهن لوجدنا أن العدد يزيد على 4-5

أطفال وربما أكثر. وهذا الموضوع كما أشرت سابقاً بحاجة للمزيد من التمحيص ودراسة خاصة بتتبع نساء الخلفاء، وحتى بنات الخلفاء وخاصة أن النساء في تلك الفترة كن يتزوجن في سن مبكرة ويتزوجن أكثر من مرة، فلم يكن يعيبهن لا عمر، ولا حالة اجتماعية، فلم يكن مهماً إن كانت المرأة في تلك الفترة مطلقة، أم أرملة. ولم تكن المرأة بأقل شأنًا في عدد الزيجات من الرجال فأم كلثوم بنت علي تزوجت من عمر، وبعده تزوجت بثلاثة من أبناء جعفر، أي أنها تزوجت 4 مرات وقس ذلك على بقية نساء الخلفاء، ومن الواضح أن الطلاق في الفترة الإسلامية الأولى كان سهلاً، ولا يظهر أنه كان يحتاج لأسباب كثيرة، فيكفي رغبة الطرفين بالإنفصال مثلما حدث مع أسماء بنت أبي بكر والزبير بن العوام، وكذلك قد تكون رغبة الرجل في التجديد، أو في تعدد الزوجات مثلما كان يحدث مع الحسن. من الواضح أن المجتمع الإسلامي قد تأثر في هذه الفترة بما كان سائداً قبل الإسلام على الرغم من كون أبغض الحلال عند الله الطلاق.

نشير هنا إلى أن المتتبع للعلاقات الاجتماعية يجد أن المجتمع في فترة الخلفاء الراشدين كان مجتمعاً بسيطاً، سواءً في علاقة الخليفة بأسرته أم علاقته بمحيطه، ولم يكن الخليفة في تلك الفترة مقدساً بأعين الناس كما حدث له لاحقاً. ونذكر هنا وكمثال على ذلك حالات الرفض التي تلقاها عمر بن الخطاب في أكثر من مرة عندما كان يتقدم لخطبة النساء وكان دائماً يواجه بأسباب الرفض بشكل صريح وواضح، وعلي الذي عاتب عاتكة بنت زيد

التي ذكرنا قصتها سابقاً فقد كانت متزوجة من عبد الله بن أبي بكر، ووعده بزواج من غيره بعد وفاته، وعند زواجها من عمر عاتبها علي بن أبي طالب أمامه.

إن منصب الخليفة في فترة الخلافة الراشدة لم يؤثر بشكل إيجابي على الأسرة النووية للخليفة، وينسحب هذا على فترة الخلفاء الأمويين والعباسيين مع إختلاف الجوانب المتأثرة سلباً. فعلى الصعيد الإقتصادي تأثرت أسر الخلفاء الراشدين بشكل سلبي لأن الخلفاء الراشدين اعتبروا أن أموال بيت المال ليست من حقهم وأنهم مؤمنون عليها، لذا حاولوا أن يحدوا من رغبات زوجاتهم وأبنائهم، كما فعل أبو بكر وعمر وعلي. وكان الاهتمام بأمور المسلمين على حساب حياة الخليفة الشخصية، فنرى على سبيل المثال بأن أبا بكر أهتم بأمور المسلمين وأهمل تجارته وأعماله، مما دفع بأبي عبيدة وعمر لفرض راتب خاص بالخليفة، وبمقدار ما أعطى الخلفاء الراشدين من وقتهم للناس ولأمور الخلافة، وقع أبناءهم ضحية هذا المجتمع، فأبناء أبي بكر على سبيل المثال لم يكن لهم دور مؤثر على الصعيد السياسي، بل أنهم أتهموا بقتل عثمان - أعني محمد بن أبي بكر - وربما يعود ذلك إلى محاولة تضيق الخناق على محمد كي يتم إقصاؤه عن الساحة السياسية، في حين نجد أن عبد الله وعبد الرحمن أبناء أبي بكر يموتون بشكل فجائي ودون ان يتم التمهيد في أسباب الوفاة. ونرى أن أبناء عمر بن الخطاب وأبناء عثمان بن عفان كذلك أُقْحِمُوا في الخلاف بين علي ومعاوية بل وتم استغلالهم في هذه الحرب حتى وقف الأخوة في وجه بعضهم البعض كما حدث مع أبناء عمر بن الخطاب. وهنا لا بد أن نتعاطف مع أبناء عمر بسبب قسوة أبيهم معهم، وخاصة عندما استلم

أمور الخلافة، فقد بالغ في عقابهم عند ارتكابهم المعاصي كونهم أبناء الخليفة وخوفاً من تسامح الولاة معهم.

أما عند الحديث عن أبناء علي فهم المتضررون الأكثر في التاريخ الإسلامي. لقد تخيل البعض أنهم الأكثر مكانة في التاريخ الإسلامي بسبب قرابتهم من الرسول "ص"، إلا أن واقع الأمر يعكس لنا حقيقة مفادها، بأن التقاف الجماهير الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها حولهم، وتطور الحركة الشيعية، جاء نتيجة لما حصل لأبناء علي وأحفاده على يد السلطة الحاكمة، خاصة في الفترة الأموية. ولعل الحادثة الأشهر تعود للحسين بن علي شهيد كربلاء، والتي حتى هذه اللحظة ما زالت تشكل الأساس الذي ينطلق منه الشيعة وتاريخهم. واللافت في الموضوع أن أبناء علي وهم أحفاد الرسول محمد "ص" تم التنكيل بهم من قبل الأمويين والعباسيين، بطريقة بشعة ومبالغ فيها، والمجتمع الإسلامي لم يفعل شيئاً ولم يحرك ساكناً، ولم يستطع ان يدافع عنهم الا باشتراكهم بثورة هنا أو هناك. كيف تمّ القبول بتنكيل السلطة الحاكمة بأحفاد الرسول محمد "ص"، بقتل أفضل شباب الجنة - الحسين - كما ورد عن الرسول محمد "ص". وكيف يمكن أن يتحدث المسلمون بفخر عن تاريخهم وهو يضم بين صفحاته تاريخ دولة عريقة، لعنت علي من على منابرها مدة 90 سنة، ونكلت بأبنائه ليس إلاّ لحرمانهم من الوصول إلى الحكم، وإشهار مبدأ القوة في وجه كل من يخالف النظام الحاكم حتى لو كانوا أبناء وأحفاد الرسول "ص". من هنا نرى أن تقديس الأشخاص في تلك الفترة لم يكن وارداً، مهما بلغت مكانتهم، ولكن هذا التقديس بدأ في مرحلة متأخرة من تاريخ المسلمين،

وبلغ ذروته في العهد العباسي. بل أن الخليفة في صدر الإسلام كان شخصاً عادياً، تحمل عبئاً أكبر من غيره.

## الهوامش

(1) صلاح عبد الغني محمد. موسوعة المرأة المسلمة - تربية الأولاد وبر الوالدين وصلة

الرحم. ج6 (القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب، 1998). ص26.

(2) أبو جعفر المحب الطبري. الرياض النضرة في مناقب العشرة. ج1. (بيروت: دار الكتب

العلمية، 1405هـ-1984م). ص265.

(3) ابن الأثير. الكامل في التاريخ. ج3. ص305.

(4) المحب الطبري. الرياض النضرة. ج1. ص265.

(5) المصدر السابق. ص266.

(6) المصدر السابق. ص266-267.

(7) المصدر السابق. ص267.

(8) أبو نعيم أحمد أسحاق الأصبهاني. معرفة الصحابة. ج1. (بيروت: د.د.ن، ط1،

1422هـ-2002هـ). ص175.



- (9) ابن الأثير. الكامل في التاريخ. ج 3. ص 306.
- (10) شمس الدين الذهبي. سير أعلام النبلاء. ج 2. (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1409هـ-1988). ص 290.
- (11) أبو القاسم اسماعيل بن الفضل الأصبهاني. سير السلف الصالحين. (الرياض وجدة: دار الرؤية، ط 1، 1420-1999). ص 70.
- (12) ابن سعد. الطبقات الكبرى. ج 8. ص 199.
- (13) المحب الطبري. الرياض النضرة. ج 1. ص 267.
- (14) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي. طبقات علماء الحديث. ج 1. (بيروت: الرسالة، 1417هـ-1996م). ص 87.
- (15) شمس الدين الذهبي. نزهة الفضلاء-تهذيب سيرة أعلام النبلاء. ج 1. إعداد محمد موسى الشريف. (جدة: دار الأندلس الخضراء، 1421هـ-2000م). ص 262.
- (16) الذهبي. سير أعلام النبلاء. ج 4. ص 235.

- (17) المحب الطبري. الرياض النضرة. ج 1. ص 267.
- (18) علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي. أخبار عمرو وأخبار عبد الله بن عمر. (المكتب الإسلامي). ص 367. وابن الأثير. الكامل في التاريخ. ج 3. ص 362.
- (19) عبد الرحمن رأفت باشا. صور من حياة التابعين. (بيروت: دار النفائس، ط 16، 1419هـ-1999). ص 301.
- (20) المصدر السابق. ص 312.
- (21) المحب الطبري. الرياض النضرة. ج 1. ص 177.
- (22) البلاذري. أنساب الأشراف. تحقيق إحسان عباس. (بيروت: دار النشر فرانكس شتانبير ستوتكارت، 1417-1996م). ص 127.
- (23) أبو الحسين علي بن عمر الدار قطني. فضائل الصحابة ومناقبهم. (المدينة المنورة: مكتبة الغرباء الأثرية، 1419هـ-1998م). ص 48.
- (24) عبد العزيز الثعالبي. الرسالة المحمدية من نزول الوحي إلى وفاته. تحقيق صالح الخرفي). (دمشق وبيروت: دار ابن الأثير، 1418-1997م). ص 198.

---

(25) ابن سعد. الطبقات الكبرى. ج 8. ص 197.

(26) المصدر السابق. ص 197.

(27) ابن عساكر. تاريخ مدينة دمشق. ج 3. دراسة وتحقيق محب الدين العمري. (بيروت: دار

الفكر، 1995). ص 323. والأصبهاني. سير السلف الصالحين. ص 82.

(28) ابن عساكر. تاريخ مدينة دمشق. ج 3. ص 321.

(29) محمد حنين شندب. تاريخ الخلفاء الراشدين. ص 56.

(30) ابن الأثير. الكامل في التاريخ. ج 3. ص 306.

(31) شندب. تاريخ الخلفاء الراشدين. ص 59.

(32) أبو الفرج الأصفهاني بن الجوزي. سيرة ومناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

تحقيق. هاني الحاج. (المكتبة التوفيقية). ص 207. وعبد الغني. موسوعة المرأة

المسلمة. ج 6. ص 56.

(33) ابن عساكر. تاريخ مدينة دمشق. ج44. ص324. ومحمصاني: تراث الخلفاء الراشدين.

ص40. وابن الجوزي. سيرة ومناقب أمير المؤمنين عمر. ص209.

(34) عبد الغني. موسوعة المرأة المسلمة. ج6. ص75.

(35) ابن الجوزي. سيرة ومناقب أمير المؤمنين عمر. ص209.

(36) ابن عساكر. تاريخ مدينة دمشق. ج44. ص326.

(37) المصدر السابق. ج44. ص331.

(38) المصدر السابق. ج44. ص325.

(39) المصدر السابق. ج44. ص327.

(40) الأصبهاني. سيرة السلف الصالحين. ج1. ص114.

(41) عبد الغني. موسوعة المرأة المسلمة. ج6. ص36.

(42) ابن الأثير. الكامل في التاريخ. ج3. ص363.

(43) عبد الهادي. طبقات علماء الحديث. ج1. ص92.

(44) محمد بن علي الشوكاني. ذُر السحابة في مناقب القرابة والصحابة. تحقيق حسين العمري. (دمشق: دار الفكر، ط2، 1426هـ-2005). ص610.

(45) الذهبي. نزهة الفضلاء. ج1. ص250. وابن الجوزي. المنتظم. ج3. ص160. والطنطاوي. أخبار عمر. ص371.

(46) الطنطاوي. أخبار عمر. ص368. ابن الأثير. الكامل في التاريخ. ج2. ص363.

(47) ابن الأثير. الكامل في التاريخ. ج2. ص363.

(48) ابن الجوزي. سيرة ومناقب عمر بن الخطاب. ص206.

(49) المصدر السابق. ص206.

(50) ابن سعد. الطبقات الكبرى. ج8. ص338.

(51) الطنطاوي. أخبار عمر. ص364.

(52) ابن الأثير. الكامل في التاريخ. ج2. ص363.

(53) ياسين العمري. الروضة الفيحاء في تواريخ النساء. ص249-250.

- 
- (54) الطنطاوي. أخبار عمر. ص 366.
- (55) المصدر السابق. ص 366.
- (56) أبو نعيم الاصبهاني. معرفة الصحابة. ج 1. ص 76.
- (57) ابن عساكر. تاريخ مدينة دمشق. ج 44. ص 330.
- (58) الذهبي. سير أعلام النبلاء. ج 4. ص 99.
- (59) المصدر السابق. ص 100.
- (60) ابن سعد. الطبقات الكبرى. ج 5. ص 12.
- (61) المصدر السابق. ص 14.
- (62) ابن حجر العسقلاني. الإصابة في معرفة الصحابة. ج 4. ص 185.
- (63) ابن عساكر. تاريخ مدينة دمشق. ج 44. ص 329.
- (64) المصدر السابق. ص 326.

- 
- (65) العسقلاني. الإصابة. ج.4. ص458.
- (66) حسن. تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي. ج.1. ص215.
- (67) المحمصاني. تراث الخلفاء. ص50.
- (68) الأصبهاني. فضائل الخلفاء الأربعة وغيرهم. ص28.
- (69) علي محمد الصلابي. تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان شخصيته وعصره.  
(القاهرة: دار الفجر). ص15.
- (70) الشوكاني. در السحابة. ص605.
- (71) الذهبي. سير أعلام النبلاء. ج.2. ص251-252.
- (72) ابن الأثير. الكامل في التاريخ. ج.3. ص400.
- (73) الذهبي. سير أعلام النبلاء. ج.4. ص353.
- (74) ابن عساكر. تاريخ مدينة دمشق. ج.6. ص150.

- 
- (75) المصدر السابق. ص157.
- (76) المصدر السابق. ص157.
- (77) الذهبي. سير أعلام النبلاء. ج4. ص353.
- (78) ابن سعد. الطبقات الكبرى. ج5. ص115.
- (79) ابن الجوزي. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. ج4. ص335. وابن الأثير. الكامل في التاريخ. ج3. ص400.
- (80) الصلابي. تيسير المنان في سيرة عثمان. ص16. وابن سعد. الطبقات الكبرى. ج3. ص40.
- (81) الأصبهاني. معرفة الصحابة. ج1. ص83.
- (82) يحيى بن أبي بكر العامري اليمني. الرياض المستطابة. (بيروت: مكتبة المعارف ط3، 1983). ص162.
- (83) ابن الجوزي. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. ج4. ص336.



---

(84) المحب الطبري. الرياض النظرية. ج.3. ص.25.

(85) المصدر السابق. ص.41.

(86) ابن سعد. الطبقات الكبرى. ج.3. ص.42.

(87) حسن. تاريخ الإسلام. ج.1. ص.222.

(88) ابن الجوزي. المنتظم في تاريخ الأمم والملوك. ج.3. ص.88.

(89) المصدر السابق. ص.88.

(90) اليعقوبي. تاريخ اليعقوبي. ج.2. ص.115.

(91) المصدر السابق. ص.117.

(92) ابن سعد. الطبقات الكبرى. ج.3. ص.20.

(93) حسن . تاريخ الإسلام. ج.1. ص.222.

(94) العامري. الرياض المستطابة. ص.282.

- 
- (95) الثعالبي. الرسالة المحمدية. ص 220.
- (96) ابن الجوزي. المنتظم في تاريخ الأمم والملوك. ج 3. ص 85.
- (97) الثعالبي. الرسالة المحمدية. ص 220.
- (98) ابن الجوزي. المنتظم في تاريخ الأمم والملوك. ج 3. ص 88.
- (99) المصدر السابق. ص 88.
- (100) شمس الدين الذهبي. سير أعلام النبلاء (سير الخلفاء الراشدين). حققه بشار معروف. (بيروت: الرسالة، ط 2 1418-1997). ص 226.
- (101) المصدر السابق. ص 226.
- (102) الثعالبي. الرسالة المحمدية. ص 220.
- (103) العامري. الرياض المستطابة. ص 284. والأصبهاني. معرفة الصحابة. ج 1. ص 106.
- (104) الذهبي. سير أعلام النبلاء. ج 3. ص 247-248.
- (105) الأصبهاني. معرفة الصحابة. ج 2. ص 10.

- 
- (106) المصدر السابق. ص5.
- (107) الذهبي. سير أعلام النبلاء. ج3. ص253.
- (108) الشوكاني. ذُر السحابة. ص606.
- (109) ابن الأثير. أسد الغابة في معرفة الصحابة. ج2. (بيروت: دار المعرفة. ط1، 1418هـ-1997م). ص17.
- (110) شمس الدين السخاوي. استجلاب ارتقاء الغرف بحب أقرباء الرسول وذوي الشرف. ج1. تحقيق خالد بن أحمد الصمي. (بيروت: دار البشائر، 1412هـ-2000م). ص254.
- (111) المصدر السابق. ص254.
- (112) المصدر السابق. ص254.
- (113) الشوكاني: ذُر السحابة. ص733.

(114) زينب بنت علي العاملي. معجم أعلام النساء. تحقيق منى الخراط. (مكتبة التوبة، ومؤسسة الريان). ص382.

(115) الذهبي. سير أعلام النبلاء. ج3. ص260.

(116) الشوكاني. ذُر السحابة. ص606.

(117) ابن الأثير. أسدُ الغاية. ج2. ص18.

(118) المصدر السابق. ص23.

(119) طه عبد الحسيب حميدة. أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثاني الهجري. (القاهرة: مطبعة السعادة، ط2، 1388-1968م). ص47.

(120) المصدر السابق. ص187.

(121) أبو أسحاق إبراهيم بن علي الحصري. زهر الآداب وثمر الألباب. القسم الأول. ج1.

تقديم وتعليق قاسم محمد بن وهب. (دمشق: وزارة الثقافة، 1996). ص148. وحميدة.

أدب الشيعة. ص187.

(122) حميدة. أدب الشيعة. ص44.

- 
- (123) الشوكاني. در السحابة. ص 607.
- (124) العاملي. معجم أعلام النساء. ص 383.
- (125) حميدة. أدب الشيعة. ص 46.
- (126) المصدر السابق. ص 47.
- (127) العاملي. معجم أعلام النساء. ص 385.
- (128) المصدر السابق. ص 385.
- (129) أبو المعالي أطهر المباركبوري. العقد الثمين في فتوح الهند ومن ورد فيها من الصحابة والتابعين. (القاهرة: دار الأنصار). ص 226.
- (130) ابن سعد. الطبقات الكبرى. ج 5. ص 67.
- (131) المصدر السابق. ج 5. ص 67.
- (132) ابن عساكر. تاريخ مدينة دمشق. ج 54. ص 326.

- 
- (133) الذهبي. سير أعلام النبلاء. ج4. ص117.
- (134) ابن عساكر. تاريخ مدينة دمشق. ج54. ص331.
- (135) المصدر السابق. ص331.
- (136) ابن سعد. الطبقات الكبرى. ج5. ص86.
- (137) ابن عساكر. تاريخ دمشق. ج54. ص334.
- (138) ابن سعد. الطبقات الكبرى. ج5. ص86.
- (139) ابن عساكر. تاريخ دمشق. ج54. ص332.
- (140) المصدر السابق. ص332.
- (141) ابن سعد. الطبقات الكبرى. ج5. ص82. وابن عساكر. تاريخ دمشق. ج54. ص332.
- (142) العامري. الرياض المستطابة. ص176. وابن الجوزي. المنتظم. ج5. ص69.
- (143) حميدة. أدب الشيعة. ص39.

- 
- (144) الحصري. زهر الآداب. ج.1. ص146.
- (145) ابن عساكر. تاريخ دمشق. ج.54. ص333.
- (146) ابن سعد. الطبقات الكبرى. ج.5. ص81.
- (147) المصدر السابق. ص81.
- (148) المصدر السابق. ص84.
- (149) المصدر السابق. ص81.
- (150) دعبول. تراجم أعلام النساء. ص33.
- (151) المصدر السابق. ص33.
- (152) العامري. الرياض المستطابة. ص176.
- (153) ابن الأثير. الكامل في التاريخ. ج.3. ص463.
- (154) شمس الدين الذهبي. سير أعلام النبلاء سير الخلفاء الراشدين. ص251.

---

(155) العامري. الرياض المستطابة. ص175.

(156) الطبري. تاريخ الأمم والملوك. ج5. ص154.



## الفصل الثاني

### العوامل المبلورة لشخصية الخليفة

(النشأة، والتربية، والسمات الشخصية):

تجمع معظم مصادر التاريخ الإسلامي على وجود فروق كبيرة بين فترة الخلفاء الراشدين وغيرهم من الخلفاء من حيث طبيعة الحكم وسمات كل فترة. في هذا الفصل سيتم التركيز على شخصية الخلفاء قبل توليهم الخلافة ونشأتهم وتربيتهم وثقافتهم محاولين معرفة مدى تأثير ذلك على طبيعة حكمهم.

نالَت شخصية أبي بكر الصديق من الإهتمام ما لم ينله احد من الخلفاء بعده. ولعل نظرة سريعة إلى فترة ما قبل خلافة أبي بكر تبين لنا هذا الأمر. فأبو بكر الصديق المولود في مكة بعد عام الفيل بعامين انتمى إلى عائلة تيم القرشية ويجتمع نسبه مع الرسول محمد "ص" في مرة بن كعب، وأمه سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن تيم بن مرة، وتكنى أم الخير، وأبوه أبو قحافة عثمان بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة<sup>(1)</sup>. لقد تربى أبو بكر على الأخلاق الحميدة الفاضلة والسيرة الكريمة. حيث نشأ في مكة ولم يخرج منها إلا لتجارة<sup>(2)</sup>. كان صاحب فضل على الناس، وصاحب مروءة وإحسان وكان ذا يسار. فقد كان يعمل بالتجارة<sup>(3)</sup>، حيث توجه بتجارته إلى بصرى الشام في الجاهلية والإسلام<sup>(4)</sup>. وكان أبو بكر يحمل الكل ويكسب المعدوم<sup>(\*)</sup> ووصف بأنه يصل

(\*) يحمل الطعام للمحتاجين، ويتصدق بالأموال على الفقراء.

الرحم، يصدق الحديث، يعين على نوائب الدهر ويقري الضيف. كان مصاحباً للرسول محمد "ص" قبل النبوة، ويكثر من غشيان الرسول محمد "ص" في بيته ويحادثه لفترات طويلة<sup>(5)</sup>. وكان لأبي بكر مكانة مرموقة في قريش، فهو من رؤساء قريش في الجاهلية وهو كذلك من بين أحد عشر شخصاً اتصل بهم شرف الجاهلية والإسلام، فكان له أمر الديات والغرم والاشناق. وكان إذا عمل شيئاً صدقته قريش وأقرته، وأمضوا حمالته وحمالة من كان معه، وان احتملها غيره لم يصدقوه وخذلوه<sup>(6)</sup>.

عُرف عن أبي بكر الخصال الحميدة، والصدق في القول، حتى أن بعض المراجع تُعيد سبب تسميته بأبي بكر إلى ابتكاره الخصال الحميدة<sup>(7)</sup>. وتنزه أبو بكر عن شرب المسكر في الجاهلية والإسلام، وكان من أكثر الناس حياءً فقد قال عبد الله بن عمر: "ثلاثة من قريش أصبح الناس وجوهاً، وأحسنها أخلاقاً وأثبتها حياءً، ان حدثوك لم يكذبوك وان حدثتهم لن يكذبوك: أبو بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم"<sup>(8)</sup>.

تميز أبو بكر الصديق عن الآخرين ليس فقط بخلقه الذي جعل له مكانة رفيعة في قريش بل كذلك بعلمه، فكان الناس يألفونه لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته، ويقول ابن إسحاق في ذلك: "كان أبو بكر انسب العرب". وذكر ابن عساكر "كان أبو بكر اعلم الناس بأنسابها"<sup>(9)</sup> وكان حسن المجالسة، عالماً بتعبير الرؤيا<sup>(10)</sup>. وعلمه هذا أهله في الفترة الإسلامية إضافة لملازمته للرسول محمد "ص" بالجلوس للإفتاء. فقد ذكر ابن سيرين: انه لم يكن أحد أهيب لما يعلم بعد النبي "ص" من أبي بكر. وهذا ما يؤكد ابن عمر حيث

سئل مرة من كان يفتي الناس في زمن رسول الله "ص"، فقال: "أبو بكر وعمر، ما أعلم غيرهما"<sup>(11)</sup> وذكرت عائشة أن أبا بكر لم يشرب الخمر ولم يقل الشعر في حياته<sup>(12)</sup>، إلا ان هذا مخالف لما ذكر في كثير من المصادر عن قول أبي بكر الشعر، وتجمع المصادر على أن الخلفاء الأربعة قالوا الشعر<sup>(13)</sup>. ولعل عائشة أرادت بقولها شعراً لا يحمل معاني كريمة، أو ربما تأثرت بالآية الكريمة "والشعراء يتبعهم الغاؤون"<sup>(\*)</sup>.

مما لا شك فيه أن نشأة أبي بكر الصديق في مكة أثرت على سلوكه أثناء الفترة الإسلامية، فقد أسلم على يديه كثير من الصحابة بسبب أسلوبه المقنع، وما عرف عنه من الصدق في القول وما تمتع به من شخصية جريئة بقول الحق. وساعده في الحفاظ على مكانته بين المسلمين ملازمته للرسول محمد "ص" ومصاهرته له، وتأييد الرسول لمواقف ومقولات أبي بكر في معظم الأوقات. ومن ذلك تأييد الرسول له في مسألة شرب الخمر فقد سأل الصحابة أبا بكر عن شرب الخمر في الجاهلية فقال: "أعوذ بالله: فقيل: ولم؟ قال: كنت أصون عرضي، وأحفظ مروعتي، فإن من شرب الخمر كان مضيعاً في عرضه ومروعته، فبلغ ذلك رسول الله "ص" فقال: صدق أبو بكر، صدق أبو بكر مرتين"<sup>(14)</sup>.

لعب أبو بكر الصديق دوراً مهماً في بداية الدعوة الإسلامية بشخصه وماله، فكان عمله بالتجارة مربحاً، ووظف هذه الأموال في شراء العبيد المسلمين الذين استضعفتهم قريش وعذبتهم لتحريرهم. كما أن تصديقه لرسالة النبي محمد "ص"، وتحمله للأذى من قريش، إضافة لموقفه أثناء الهجرة إلى الحبشة، فقد رفض الهجرة إلى الحبشة بهدف البقاء

(\*) سورة الشعراء آية 224.

مع رسول الله "ص" في مكة، كما أنه وقف في مواجهة قريش وأعلن رأيه بكل صراحة في أحلك المواقف في حياة الرسول. جعلنا نفهم سلوك أبي بكر وتواضعه أثناء خلافته وإصراره على محاربة المرتدين. من هنا أيضاً نستطيع أن نفهم ما حدث حوله من إجماع من قبل المسلمين أثناء فترة خلافته. ولعل مقولة من مقولات أبي بكر تبين لنا النهج الذي سار عليه في حياته. فقد قال: "أصلح نفسك، يصلح لك الناس ... احرص على الموت، توهب لك الحياة"<sup>(15)</sup>. ولم يتغير أبو بكر في أثناء خلافته عما كان عليه قبل الخلافة بل استمر في تحمل مسؤولياته بأدق صغائرها، ومنها خدمة العَجَز من نساء المسلمين، واستمر في تواضعه المعهود. ومن ذلك ما ذكر عن كفالته بطلب أغنام الحي الذي كان يسكن فيه، فلما بويع بالخلافة قالت جارية من الحي: "الآن لا تُحلبُ لنا مَنائِحُ دارنا"، فسمعها أبو بكر فقال: "بلى لعمرى لأحلبنها لكم، وإني لأرجو أن لا يغيرني ما دخلتُ فيه عن خلق كنت عليه"<sup>(16)</sup>. وأهم صفة تميّز بها أبا بكر هي رحمته بالناس فقد كان يسمى الأواه لرافته<sup>(17)</sup>. إن أبا بكر الذي جمع صفات كثيرة أهلته لأن يكون خليفةً للرسول محمد "ص" شكل نموذجاً مختلفاً عن جاء بعده من الخلفاء فقد جمع أبو بكر ما بين العلم والثقافة والفقّه والتواضع والهيبة في شخصيته، الأمر الذي جعل منه شخصية لا تتكرر في التاريخ الإسلامي.

بالنسبة لعمر ابن الخطاب فقد تميز بالقوة والشدة في التعامل مع رعيته وخصومه بنفس الوقت، على عكس أبي بكر الذي تعامل برحمة بالغة مع المسلمين. امتاز عمر بشخصيته القيادية والشديدة بتطبيق القوانين، بل وإلغاء بعض المظاهر التي كانت متبعة

في عهد الرسول وخليفته أبي بكر. وما تكتبه المصادر الإسلامية عن شدة عمر ووضوحه في قول الحق وتطبيقه لما يراه مناسباً، تدلنا على شخصية قلَّ ما نجد مثلها. والمتتبع لنشأة عمر بن الخطاب يجد أن هذه الشخصية صقلت في مكة، وكان أبو عمر هو الخطاب بن نفيل بن عبد العزى وأمه حنتمة بنت هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وهي ابنة عم أبي جهل<sup>(18)</sup>. وكان أبو عمر ممن حرصوا على أبنائهم، فقداعتى بابنه عمر، فأحسن تأديبه وعلمه ما يتعلم أبناء الأشراف في زمانه من القراءة والكتابة وحفظ أخبار قومه، ونشأ على أفضل ما ينشأ عليه أبناء قريش<sup>(19)</sup>. تربي عمر في صغره على الأخلاق الكريمة، وكان مثالاً للفصاحة والبلاغة والصراحة في الحق. عمل في صغره برعي الأغنام لأبيه ثم احترف التجارة وكان يذهب بها إلى الشام<sup>(20)</sup>. كان عمر من رجال مكة المهمين، وآلت له السفارة في الجاهلية، حيث كانت السفارة في مكة لقبيلة عدي التي ينتمي لها عمر، وتولاها عمر قبل الإسلام فكانت ترسله قريش إلى باقي القبائل سفيراً، ومنافراً ومفاخراً<sup>(21)</sup>.

إضافةً لهذه المكانة الرفيعة كان عمر بن الخطاب فارساً يحب ركوب الخيل، وكثيراً ما كان يشاهد على صهوة جواده، وكان حافظاً لأخبار الأولين، والعرب وأشعارهم وراوياً لمناقبهم ومفاخرهم. ومع ما عُرف عن شرف عمر وجاهه إلا أنه كغالبية القرشيين قبل الإسلام كان مُحباً للخمر ومولعاً به، وكان يرتاد أماكن الخمر واللهو، وكان رجالات قريش يجتمعون في مجالس خاصة باللهو والخمر، ويصف عمر حاله قبل الإسلام فيقول: "كنت مباعداً للإسلام، وكنت صاحب خمر في الجاهلية أحبها وأسرُّ بها"<sup>(22)</sup>. لقد كان عمر

بن الخطاب محافظاً على تقاليد وعادات مجتمعه، عامل المسلمين بشدة متناهية قبل إسلامه، لأنه رأى في الدين الجديد خروجاً عن المألوف واعتداءً على آلهته، إن هذا التشدد لازم عمر طوال أيام حياته، فبعد إسلامه كان أشد ما يكون على من يعصون حدود الله، إن سياسة عمر في تعامله مع الأمور بقيت واحدة رغم اختلاف مبادئه. من جهة أخرى فإنَّ شدته في البحث عن المسلمين والتكليف بهم قبل إسلامه انقلبت إلى نصر للمسلمين بمجرد إعلانه لإسلامه. فقد كان إسلام عمر فتحاً للمسلمين وفرجاً لهم من الضيق. قال عبد الله بن مسعود: "وما عبدنا الله جهرة حتى أسلم عمر" (23).

لقد حوّل عمر قوته وشدته لصالح الإسلام والمسلمين، ولم يغير عمر من شخصيته الشديدة سوى ما كان مخالفاً لمبادئه الإسلامية مثل حبه للهو والخمر، وكل ما عدا ذلك كرسه لخدمة الإسلام، إن تشدد عمر لم يكن في كل الأحوال مقبولاً، ولكن ما شفع له في التاريخ الإسلامي، أن عمر بن الخطاب لم يكن يعمل لشخصه، بل عمل للإسلام وللمسلمين، فعمر الذي نشأ في مكة على العادات العربية، والذي نشأ كغيره من العرب في ذلك الوقت في البادية لم يكن يعمل لتوطيد دولة عمر وأبنائه، كما فعل غيره من الخلفاء في الفترتين الأموية والعباسية. هذا على الرغم من كون شخصية مثل شخصية عمر كان بإمكانها أن تفرض أي شخصية لتكون مكانها في الحكم، خاصةً مع ما تميز به عمر من العلم والخبرة.

فعند الحديث عن علم عمر بن الخطاب والذي تملأ الكتب التاريخية مئات الشهادات على ما كان يتمتع به من مكانة علمية لا يضاهيها أحد في زمانه. فقد قال عنه

سعيد بن المسيب وكان سعيد أفتق أهل المدينة - "ما أعلم أحداً بعد رسول الله "ص" أعلم من عمر بن الخطاب"<sup>(24)</sup>. وكان عبد الله بن مسعود يقول: "لو سلك الناس وادياً وشعباً وسلك عمر بن الخطاب وادياً وشعباً لسلكت وادي عمر وشعبه" وذلك لأن عبد الله كان يعلم أن عمر أعلم المسلمين في زمانه وأكثرهم حكماً. هذا ما نراه في قول بعض التابعين حيث ذهبوا لعمر بن الخطاب "فإذا الفقهاء عنده مثل الصبيان، قد استعلى عليهم في فقهه وعلمه"<sup>(25)</sup>. وقال ابن مسعود في نفس السياق: "لو أن علم عمر وضع في كفة ميزان ووضع علم أحياء الأرض في كفة لرجح علم عمر بعلمهم"<sup>(26)</sup>. وقال حذيفة: "كأن علم الناس كان مدسوساً في حجر عمر"<sup>(27)</sup>. وكان العلماء والفقهاء يرون أن عمر ذهب بتسعة أعشار العلم. وسبق أن ذكرنا أن أبا بكر وعمر كانا يفتيان في فترة الرسول محمد "ص" وما هذا إلا دليل على مقدرتهما على فهم الأمور وإبداء الرأي فيها.

إن ما تميز به عمر من علم أهله لحكم المسلمين، ومكنه من التصدي لكل المعضلات، في فترة تعد من أدق المراحل التي مرت فيها الدولة الإسلامية. وبرغم ما شغل عمر من فتوحات وأمور عظيمة إلا أنه بقي قريباً من الناس فقد كان يطوف في الأسواق ويقراً القرآن، ويقضي بين الناس حيث أدركه الخصوم، ولم يكن عمر مع هذا العلم وهذه الحكمة يندع بسهولة، فقد قال عنه المغيرة بن شعبة: "كان لعمر فضل يمنعه أن يندع، وعقل يمنعه أن يندع"<sup>(28)</sup>. وشهد الرسول لعمر في كثير من الأوقات بعلمه وحكمته ومنه قوله: "لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون<sup>(\*)</sup>، فإن يكن في أمي احد

(\*) محدثون: ملهون.

فإنه عمر<sup>(29)</sup> وفي نفس السياق ينصب حديث محمد بن جرير حيث ذكر أنه لم يكن لأحد من الصحابة أصحاب معروفون، قد حرروا فتياتهم، مثل عمر، وكان المبلغون عن عمر أكثر من المبلغين عن عثمان والمؤدين عنه<sup>(30)</sup> ولم يقتصر علم عمر على نفسه بل كان حريصاً على أن يكون عماله من نفس جنسه، وخاصة ما تعلق بالشعر الذي عدته العرب أعلى مراتب الأدب حيث قال عنه معاوية بن أبي سفيان: "اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر أدابكم". وكتب عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري "مُرْ من قبلك بتعلم الشعر، فإنه يدل على معالي الأخلاق، وصواب الرأي، ومعرفة الأنساب"<sup>(31)</sup>. حتى أن عمر ومن شدة حرصه على تدعيم ما يقول كان دائماً يتمثل بأبيات من الشعر، ويذكر ابن عبد البر، أن عمر لم يكن يبرم امرأً إلا ويتمثل به بيتاً من الشعر وكان يحض دائماً على تعلم اللغة العربية والسنة النبوية فقال عمر: "تفقهوا في السنة وتعلموا العربية". كما قال: "رحم الله امرءاً أصلح من لسانه"<sup>(32)</sup>. وكان الرسول محمد "ص" قد شهد لعمر بهذا العلم عندما قصَّ إحدى رؤياه على الصحابة، فقد رأى أنه يشرب من قدح، ويعطيه لعمر بن الخطاب، فقال له الصحابة: وما أولت ذلك يا رسول الله؟ قال: "العلم"<sup>(33)</sup>. لذلك نرى أن عمر كان يُغَيِّر أحياناً من أفعال أقرها الإسلام مثل زواج المتعة، وغيرها. والمسلمون وإن احتجوا على أعمال عمر هذه في بعض الأحيان إلا أنهم كانوا يعلمون أن عمر ما فعل ذلك إلا عن علمٍ ودراية بمقدار ضرر بعض هذه العادات على المجتمع الإسلامي. إن عمر الذي تربي في مكة على الشهامة والشجاعة والفروسية، وحفظ أشعار العرب وأنسابهم، فهم عند إسلامه روح الإسلام وتعاليمه، وعمل بها وتصدى لكل ما واجه الأمة من مشاكل جديدة وكان



يعمل عقله ويحكم علمه لحل أي معضلة تواجهه. ولا يخفى على احد ما قام به عمر من أعمال جليلة لخدمة الأمة الإسلامية. بل ومحاولاته الدؤوبة من أجل إصلاح أحوال المسلمين.

إنَّ شخصية عمر القوية وشجاعته ودوره في البعثات وأمر السفارة في الجاهلية قد ساهمت في بلورة دوره كخليفة في الفترة الإسلامية، في حين يختلف هذا الأمر كلياً عند عثمان بن عفان الخليفة الراشدي الثالث الذي ولد بالطائف، وهي أخصب بقاع الحجاز، والذي نشأ في نعمة وعيش خفيض. ولم يذكر يوماً انه اختبر شظف العيش قط في صباه او في طفولته<sup>(34)</sup>. وعثمان هو ابن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، وأمه أروى بنت كُريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس<sup>(35)</sup>. وعندما توفي والد عثمان، وكان تاجراً من تجار بني أمية وترك لعثمان ثروة عظيمة، وترك ابنه بين الصبا والشباب، فتزوجت أمّه عقبة بن معيط، فشكى عثمان إلى أمّه فقال لها: "ان عثمان قد نصر محمداً، فما كان منها إلا أن قالت: "ومن أولى به منا؟ أموالنا وأنفسنا دون محمد"<sup>(36)</sup>. ولعل ما قالته أروى أم عثمان نابع من صلتها بالرسول محمد وعلاقة الدّم معه إضافة لإيمانها برسالته. فأروى أمها البيضاء بنت عبد المطلب وهي عمّة الرسول محمد "ص" وكانت توأمة لعبد الله أبي الرسول محمد "ص"<sup>(37)</sup>. تربي عثمان في بيت عريق من بيوت قريش، وعاش نمطاً من الحياة المرفهة وكان من كبار تجار مكة، وأصاب ثروة كبيرة قبل الإسلام<sup>(38)</sup>. هذه الثروة التي كانت ركيزة أساسية في تسليح الجيش الإسلامي وتزويده بالمؤن والعتاد لاحقاً. فرغم كون عثمان من الطبقة الثرية، إلا ان هذه العيشة

المرفهة لم تبعده عن المسلمين. كان عثمان ممن هاجروا من مكة إلى أرض الحبشة الهجرة الأولى، كما هاجر إلى المدينة المنورة، ورافقته فيها امرأته رقية بنت رسول الله محمد "ص". وفي ذلك قال عليه السلام: "أنهما لأول من هاجر إلى الله بعد لوط عليه السلام"<sup>(39)</sup>.

كان عثمان قد اسلم في بداية الدعوة الإسلامية على يد أبي بكر الصديق، وحاول أقرباؤه رده عن الإسلام، وكان على رأسهم عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية، فأوثقه رباطاً وقال: "ترغب عن ملة آباءك إلى دين محدث؟ والله لا ادعك أبداً حتى تدع ما أنت عليه، فقال عثمان: "والله لا ادعه أبداً، ولا أفارقه"<sup>(40)</sup>. فلما رأى الحكم صلابة عثمان وتمسكه بدينه تركه. وربما كانت هذه المضايقات من قبل قريش السبب الرئيسي في هجرة عثمان للحبشة، رغم ما تمتع به من نفوذ في قومه، وخاصةً أنه كان يؤثر أقرباءه على نفسه في معظم الأمور. هُنا يكمن الفرق بين عثمان الذي هاجر للحبشة مبتعداً عن المواجهة مع قريش وأقربائه من بينهم، وبين عمر وحتى أبي بكر وعلي الذين قدموا أنفسهم في سبيل الدعوة بل كان عمر بشخصيته الجريئة متحدياً لقريش، ولم يخف إسلامه منذ البداية، فعثمان لم يكن ليتحمل مضايقات قريش ويعود ذلك لنشأته في النعيم الدائم، فلم يكن عثمان يحمل روح الفروسية التي حملها علي وعمر، ولم يكن قادراً على المواجهة، كما فعل أبو بكر في حروب الردة وكما كان يفعل عمر مع ولاته، وهذا ما أثر على فترة حكم عثمان بن عفان.

إن المتتبع لشخصية عثمان يجد أنه تميز بالحياء الشديد، ورجاحة العقل، والعفة، وصلة الرحم، والتواضع<sup>(41)</sup>. هذه الصفات مجتمعة دفعت بعثمان لإيثار تجنب المواجهة في حياته. حتى إن كان ذلك على حسابه الشخصي. ودفع عثمان ثمن صلة رحمه وإيثاره إقربائه في نهاية خلافته من دمه. وعلقت عائشة على مقتل عثمان بقوله: "قتلوه وأنه لأوصلهم للرحم واتقاهم للرب"<sup>(42)</sup>. هنا نجد فرقا شاسعا بين رافة عثمان وشدة عمر، فعمر الذي كان يحث المسلمين في كل مكان على إقامة شعائر الله وحثهم على طرُق وجوه الخير، وبين عثمان الذي كان لا يوقظ نائماً من أهل بيته إلا أن يجده يقظان، فيدعوه فيناوله وضوءه<sup>(43)</sup> ليصلي قيام الليل معه. هذه الرافة التي كان يتمتع بها عثمان لازمته طوال حياته. وكما قلنا ان عثمان كان متواضعا رغم انتمائه للطبقة الثرية، وكان قريبا من المسلمين فيصف لنا حسن البصري تواضع عثمان بقوله: "رأيت عثمان نائماً في المسجد ورداؤه تحت رأسه فيجيء الرجل فيجلس إليه كأحدهم"<sup>(44)</sup>. كما أن شرحبيل بن مسلم قد روى ان عثمان كان يطعم الناس طعام الإمارة، ويدخل بيته فيأكل الخبز والزيت، وكان كريماً عابداً يصوم الدهر ويحج كل عام<sup>(45)</sup>. حرص عثمان على السماع من الناس وسؤالهم عن أحوالهم وأسعارهم، فقد كان يخرج يوم الجمعة ويتحدث إلى الناس ويسأل عن أسعارهم، وعن مرضاهم، "وإذا سكت المؤذن قام يتوكأ على عصا عقاء ويخطب وهي بيده، ثم يجلس جلسته الأولى ويسألهم مسألته الأولى ويستخبرهم عن أخبارهم، وأسعارهم، ثم يقوم فيخطب، ثم ينزل ويقوم المؤذن"<sup>(46)</sup>.

أما علم عثمان فلا يقل بأي حال من الأحوال عن من سبقه من الخلفاء، فعثمان كان على علم بمعارف العرب في الجاهلية، ومنها الأنساب والأمثال وأخبار العرب وأيامهم، وكان من افقه المسلمين في أحكام الدين، واحفظهم للقرآن والسنة وكان كاتباً يجيد الكتابة، ولذا اعتمد عليه الرسول محمد "ص" في تدوين الوحي واستعمله أبو بكر الصديق في كتابة الوثائق الهامة، ومنها الوثيقة التي عهد فيها بالأمر بعده لخليفته الفاروق<sup>(47)</sup>. وكان عثمان من رواة الأحاديث عن الرسول محمد "ص" وكان أبنائه (عمر، وإبان، وسعد) ممن رووا عنه<sup>(48)</sup>. ورغم كونه من رواة الأحاديث إلا أن عثمان لم يكن خطيباً مفوهاً، وبدلنا على ذلك ما روي عنه يوماً عندما صعد المنبر فأرتج عليه<sup>(\*)</sup> فقال: "إنّ أبا بكر وعمر كانا يُعدّان لهذا المقام مقالاً، وانتم إلى إمام فعّال أخرج منكم إلى إمام قوّل<sup>(49)</sup>. وفي رواية أخرى قال: "انتم إلى إمام عادل أخرج منكم إلى إمام قائل"<sup>(50)</sup>.

أما الخليفة الراشدي الرابع علي بن أبي طالب فكان إماماً بليغ الكلام، ومكانته مرموقة في التاريخ الإسلامي بسبب نسبه، وعلمه، وشجاعته. فعلي ابن عم الرسول محمد "ص" ابن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب القرشي، وأمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف. كان مولده بمكة، وكان أبو طالب كثير العيال، فلما أصاب مكة جذب طلب الرسول "ص" من عمه العباس أن يخفها عن أبي طالب مشقة العيش، فأخذ الرسول محمد "ص" علياً وضمه إليه، في حين أخذ العباس جعفرأ. وكان علي احد أفراد عائلة الرسول "ص"، وأقرب الناس إليه تربية ونسباً

(\*) ارتجّ: استغلق عليه الكلام.

وصهراً<sup>(51)</sup>. وكان لنشأة علي في بيت النبوة أثرٌ كبيرٌ عليه. فقد اتصف علي بالخصال الحميدة، فتأدب بآداب الرسول العالية، وتخلق بصفاته الكريمة، واشتهر بالشجاعة والبطولة. وكان ملازماً للرسول "ص" في أغلب أوقاته، وشهد معه المشاهد كلها<sup>(\*) (52)</sup>. ولعلي مناقب كثيرة، لذلك كانت شخصيته الركيزة التي قامت عليها أفكار الشيعة. ولا يمكن بأيّ حال من الأحوال الإحاطة بجميع هذه المناقب. ومن ذلك ما يقوله عنه الإمام احمد بن حنبل "لم ينقل لأحد من الصحابة ما نقل لعلي"<sup>(53)</sup>. ويرجع السبب في ذلك لبغض بني أمية له، فكان كل من يعلم شيئاً عن مناقب علي يذكرها ويثبتها، وكلما أراد بنو أمية إخماد سيرته وهددوا من يُحدث بها، ازداد شهرة<sup>(54)</sup>.

من أكثر الصفات التي تميّز بها عليّ عن غيره من الخلفاء، والتي شهد له بها أعداؤه قبل مؤيديه صفة الشجاعة والفروسية والإقدام. فقال أسيد بن أبي إياس فيه قبل أن يسلم (إياس) محرضاً قريش على عليّ:

جزع أبر على المذاكي القرح	في كل مجمع غاية أخزاكم
قد يذكر الحرُّ الكريم ويستحي	لله دركم لما تذكروا
ذبحاً بقتله يعضد لم يذبح	هذا ابن فاطمة الذي افناكم

ومن الأمثلة على قوته، انه عندما دفع الرسول له الراية يوم خيبر، أسرع إلى باب الحصن، فاجتذب بابه فألقاه على الأرض ثم اجتمع عليه سبعون رجلاً حتى أعادوه<sup>(55)</sup>. وكان علي إلى جانب قوته وشجاعته، قد اشتهر بعلمه وفصاحته وحكمته، فلم

(\*) إلا تبوك فقد أستخلفه الرسول على المدينة المنورة.

يزل بعد النبي متصدياً لنصرة العلم والفتيا، وكان دائماً يقول "سلوني، سلوني وسلوني عن كتاب الله تعالى فوالله ما من آية إلا وأنا اعلم نزلت بليل أو نهار"<sup>(56)</sup>. وما يدلنا على سعة علمه إضافة إلى ما يذكره الشيعة، شهادة عمر بن الخطاب بحقه عليه عندما قال: "لولا عليّ لهلك عمر"<sup>(57)</sup>. فقد كان عمر بن الخطاب وأبو بكر الصديق يعتمدون على عليّ في أمور مختلفة وأهمها القضاء.

وذكر ابن عساكر في كتابه أن علي كان أقضى أهل المدينة بشهادة معظم الصحابة وعلى رأسهم عمر بن الخطاب وابن مسعود<sup>(58)</sup>. وفيه قال عبد الله بن عيَّاش بن أبي ربيعة: "كان لعلي ما شئت من ضرس قاطع في العلم، وكان له البسطة في العشرة، والقدم في الإسلام، والعهد برسول الله "ص"، والفقه في السنة، والنجدة في الحرب، والجود في المال"<sup>(59)</sup>. إنَّ علي الذي تربي في حجر الرسول محمد "ص" كان سلوكه ينحصر بالطاعة والتسليم للشرع الإلهي، وكانت آراؤه تحكمها الصرامة الشديدة حتى أن أعداءه وصفوه بالتشدد، ولم يستطع بسبب تمسكه الشديد بالقواعد الدينية التكيف مع ضرورات المواقف السياسية التي اختلفت عن أيام النبي محمد "ص"، لذا كان أقل مرونة من عثمان الذي جاء قبله، ومن معاوية الذي جاء بعده، وكان برنامجه مثالياً<sup>(60)</sup>. وهذا ما يفسر لنا الأحداث التي شهدتها فترة حكمه سواء من معركة الجمل، أو صفين أو ما حدث في عهده من انقسامات. وكان يحاول أن يتبع خطى عمر في الحكم إلا أن شخصية عمر والفترة التي جاء فيها كانت قد اختلفت عن المجتمع الذي حكم فيه علي. ولعلَّ معاوية بن أبي سفيان قد فسّر من وجهة نظره الأمور التي جعلت كفته ترجح على عليّ، وجعلت

الأمر تؤول له في النهاية، ويؤسس دولة جديدة من حيث السمات التي ميزتها عن سابقتها (في المرحلة الراشدة). وليس ذلك إلا بسبب الشخص الذين قادوا هذه الدولة إضافة للتغيرات التي حدثت في المجتمع الإسلامي. فهاهو معاوية يعترف بالفارق بينه وبين علي فيقول: "اعنتُ على عليّ بأربعة، كنت اكنم سري وكان علياً رجل يُظهره، وكنت في أصلح جُند وأطوعه، وكان في أخبث جند وأعصاه، وتركته وأصحاب الجمل وقلت: "إن ظفروا به كانوا أهون عليّ منه، وإن ظفر بهم اغتر بها في دينه! وكنت أحبّ إلى قريش منه"<sup>(61)</sup>.

إن معظم الكتب التاريخية تظهر معاوية بن أبي سفيان بصورة الملك الأول في التاريخ الإسلامي، فهو وحسب أغلبية المصادر من اهتم بتأسيس دولة سياسية. كما وأنه نحى الجوانب الدينية، ولم يجعلها من المهمات الرئيسية للخليفة. وما يلفت النظر أن معاوية لم يكن غريباً عن البيئة التي نشأ فيها الخلفاء الراشدون، فمعاوية هو ابن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب، وأمه هند بنت عتبة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، وليس بخافٍ على أحد أن معاوية تربى في عائلة عريقة، كان لها دور سياسي واضح في بداية الدعوة الإسلامية. فأبو سفيان كان مُحنكاً سياسياً، كما أن قريش كانت تضع بين يديه تجارتها وهي مطمئنة بأنه كفيل بحمايتها. وحفظ الإسلام لأبي سفيان هذه المكانة عندما ساوى الرسول محمد "ص" بين بيت أبي سفيان وبين البيت الحرام عند فتح مكة، وكان عُمر معاوية عند فتح مكة 23 سنة واسلم يوم الفتح، وكان من كتبة الوحي منذ أسلم، وعمل تحت إمرة أخيه يزيد بن أبي

سفيان، في أكثر من مرة. تولى الأردن في عهد عمر بن الخطاب، ثم أصبح والياً على دمشق وما معها بعد وفاة أخيه يزيد. وزادت سلطته وولايته زمن الخليفة عثمان بن عفان<sup>(62)</sup>.

إن ما ميز معاوية عن الخلفاء الراشدين أنه عمل في بلاد الشام، هذه المنطقة التي كانت بعيدة نوعاً ما عن مركز الدعوة الإسلامية، وبالتالي لم يكن سكانها قد تشربوا مبادئ الدعوة الإسلامية بشكل صحيح، إضافةً لذلك ساهم قربها من الإمبراطورية الرومانية بتأثر معاوية بطابع الدولة الرومانية في الحكم، كما أن عمل معاوية بن أبي سفيان في الإمارة قد ساهم في صقله بالعمل السياسي، فقد عمل فيه أكثر من عشرين عاماً قبل أن يصبح خليفة، فاكتمت دراية وخبرة في هذا المجال، إضافةً لما ورثه عن أبيه من حنكة سياسية. فقد ساعدته خبرة والديه بشكل كبير. فعندما ولّاه عمر بن الخطاب أمر دمشق وعند قدومه من الشام دخل على أمه هند في مكة، فقالت له: "يا بني، انه قلما ولدت حرة مثلك، وقد استعملك هذا الرجل فاعمل بما وافقه أحببت ذلك أم كرهته، ثم دخل على أبيه - أبي سفيان -، فقال له: "إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا عنهم، فرفعهم سبقهم وقصر بنا تأخرنا، فصرنا أتباعاً وصاروا قادة، وقد قلدوك جسيماً من أمرهم، فلا تخالفن أمرهم، فإنك تجري إلى أمدٍ لم تبلغه، ولو قد بلغته لتنفست فيه"<sup>(63)</sup>. إن هذه التربية قد أوجدت رجلاً حليماً حكيماً ودهاية من دهاة العرب. فقد كان لمعاوية حلم ودهاء، "وإذا سمع من رجل ما ينكره قطع لسانه بالإعطاء"<sup>(64)</sup>، وخاصةً أن معاوية تمتع بنفوذ وثروة طائلة، واستعمل هذه الأموال لجذب الأعوان والمؤيدين، ولم يستخدمها



للإغراق باللهو والترف<sup>(65)</sup>. كان معاوية محبباً إلى قريش وكان يعلي من شأنها عند خلافته، وقد أصدق الأموال عليهم دون حساب، إضافةً لمعاملته قريش معاملةً خاصةً، وجعلها تتبواً أعلى المراتب أثناء خلافته، كما كانت في الجاهلية، وكان يؤكد دوماً على هذه المكانة فكان يقول لوجوه قريش: "ألاً أخبركم عني وعنكم؟ قالوا: بلى، قال: فأطير إذا وقعتم وأقع إذا طرتم، ولو وافق طيري طيرانكم سقطنا جميعاً"<sup>(66)</sup>. إن هذه الدبلوماسية التي تعامل بها معاوية مع قريش قد رفعت أسهمه عندها في كل وقت، وجعلتهم من أشد المؤيدين لحكمه. وكان يتمتع بعقل مفكر وقيل له مرة: "ما بلغ من عقلك؟ قال: ما وثقت بأحد قط"<sup>(67)</sup>. وفخر سليم مولى زياد، بزياد عند معاوية. فقال معاوية: "اسكت، فوالله ما أدرك صاحبك شيئاً بسيفه إلا وقد أدركت أكثر منه بلساني"<sup>(68)</sup>. وفيه قال سليمان بن عبد الملك عندما ذكر أمامه معاوية "كان والله هزله جدّاً، وجدّه علماً، والله ما رئي مثل معاوية، كان والله غضبه حلماً، وحلمه حكماً"<sup>(69)</sup> ونسب هذا الكلام أحياناً إلى عبد الملك وليس لسليمان، وبكلتا الحالتين فهي شهادة من خلفاء بحق معاوية وما هي إلا دليل على عظمة هذا الخليفة، وبما تمتع به من صفات أهلته بأن يتولى الخلافة لمدة عشرين عاماً، أسس خلالها دولة بني أمية.

يمكن القول أنه ورغم الخط الواضح الذي اتخذته معاوية لنفسه من حيث النهج السياسي، إلا أن الحياة الدينية لم تكن قد تلاشت عنده، وذلك بفضل وجود أكبر الفقهاء في عصره، ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، عبد الله بن عباس، عبد الله بن عمر، المسور بن مخرمة الزهري، السائب بن يزيد، عطاء بن يسار وغيرهم كثيرون<sup>(70)</sup>. وكان

معاوية حريصاً على أن يزداد علماً وحكمة لمضاهاة هؤلاء، وقال يوماً للنخار بن أوس: "ابغي مُحدثاً، قال: ومعى يا أمير المؤمنين تريد مُحدثاً؟ قال: نعم، أستريح منك إليه ومنه إليك، وأنا لا أستريح إلى غير حديثك ولا يكون صمتك في حال من الحالات أوفق لي من كلامك" (71).

كان معاوية حريصاً على أن يعامله الناس كما كانوا يعاملون من سبقه من الخلفاء، إلا أن الناس عندما تولّى الخلافة عاملته رعيته كملك، ومن أمثلة ذلك ما فعله سعد بن مالك عندما دخل عليه فقال له: "السلام عليك أيها الملك"، فغضب معاوية وقال له: "إلا قلت السلام عليك يا أمير المؤمنين؟ قال: "ذاك إن كُنّا أمرناك، إنما أنت مُنتز (\*)(72). فقد ذكر اليعقوبي أن الرجل عندما كان يبايع معاوية، كان يبايع ثم يقول له: "والله يا معاوية! أنى أبايعك، واني لكاره لك فيقول معاوية: بايع، فإن الله قد جعل في المكروه خيراً كثيراً" (73) إنَّ مكانة معاوية من قريش، وتربيته ونشأته في بيت أشجع بأجواء السياسة، مع ما تربى عليه من عادات العرب، وما تحلى به من أخلاق جعلت منه ملكاً تمتع بنفوذ كبير رغم أن المسلمين لم يجمعوا على خلافته، إلا أن ثروته وحنكته وحلمه ساعدته على توطيد نفوذه، ونفوذ ابنه يزيد من بعده، ورغم ما يقال عن ذكاء معاوية إلا أننا لانستطيع مقارنة علمه بعلم من سبقوه من الخلفاء، مع أنه من كتبة الوحي.

ولد يزيد بن معاوية بالماطرون (74)، وأمّه ميسون بنت بحدل الكلبية، وهي بدويّة كان معاوية قد تزوجها قبل أن يلي الخلافة، وكانت قد اعتادت حياة البادية، فرفضت

(\*) أنز: أنز المكان تتابع نزه، والرجل: تشدّد وتصلب ونازّ فلاناً مُنازة ونزازاً: نافه ونازعه.

العيش في دمشق، فأعادها معاوية إلى أهلها، فنشأ يزيد في البادية على ما عودته أمه من معيشة البدو، فنشأ فصيحاً كريماً شاعراً مفلحاً حتى قالوا: "بدئ الشعر بملك وختم بملك"<sup>(75)</sup> وعنوا بذلك امرؤ القيس ويزيد بن معاوية.

كانت نشأة يزيد في البادية قد أكسبته هذه الصفات إلا أن انتقاله إلى دمشق ونشأته فيها وخاصة في بيت أبيه معاوية قد أغرقته في اللهو والتزلف حيث كانت حياة معاوية مليئة بالرفاهية، فأدمن يزيد على شرب الخمر وعلى اللهو. وجديرٌ بالذكر أن يزيد ولد سنة 25هـ أو 26هـ وتولى معاوية الخلافة عام 41هـ. وبالتالي كان عمر يزيد لا يتجاوز ستة عشرة عاماً، فنشأ فترة صباه في جوٍّ مرفه بدمشق.

حظي يزيد بمكانة كبيرة في قلب أبيه. وقد ظهر هذا حين لعنت ذات يوم زوجة معاوية "ابنة قرظة"، أم يزيد "ميسون"، فعاتبها معاوية وعيّرّها بابنها عبد الله وهو ابن معاوية وكان أحمقاً، فقالت: "بل إنك تؤثر يزيد"، فدعا معاوية ابنه عبد الله وسأله عن حاجته فقال له عبد الله: "حاجتي أن تشتري كلباً فارهاً وحماراً"، فقال معاوية: أي بني أنت حمار واشتري لك حماراً! قم فاخرج. ثم احضر يزيد وطلب منه أن يطلب حاجته التي يرى أنه أهلاً بها، فخرّ يزيد ساجداً ثم قال بعد أن حمد الله: حاجتي أن تعتقني من النار لأنّ من ولي أمر الأمة ثلاثة أيام اعتقه الله من النار، فتعقد لي العهد لك وتوليني العام الصائفة، وتأذن لي بالحج إذا رجعت وتوليني الموسم، وتزيد لأهل الشام كل رجل عشرة دنانير، وتفرض لأيتام بني جُمح وبني سهم وبني عُدي لأنهم حلفائي، فقال معاوية: قد

فعلت وقَبِل وجهه. وعندما خرج، قال لامراته ابنة قرظة: كيف رأيت؟ قالت: "أوصه به يا أمير المؤمنين ففعل" (76).

فيزيد رغم لهوه وترفه إلا أنه كان حليماً، فصيحاً، ويقال أنه كان مهندساً فإليه ينسب نهر يزيد في دمشق، وكان نهراً صغيراً يسقي ضيعتين، فوسعه ونسبه إليه، ويقال أن يزيد هو أول من خدم الكعبة وكساها الديباج الخسرواني (77).

كان معاوية بن يزيد قد استلم الحكم من أبيه، وأمّه هي أم هاشم بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة، وتصفه المصادر بالضعيف والمريض. ولا تذكر الكثير عن نشأته، بل أن بعض المصادر تسقطه من حساباتها. ورغم هذه الصورة التي تُرسم لمعاوية بن يزيد إلا أننا نجد أن موقفه يوم اعتزل الناس واعتذر عن الحكم هو موقف جدير بالاحترام، حيث خرج إلى الناس قائلاً: "إلا وان جدي معاوية بن أبي سفيان نازع من كان أولى به منه في القرابة برسول الله... ثم قلدّ أبي وكان غير خليق للخير، فركب هواه واستحسن خطاه، وعظم رجاؤه، فأخلفه الأمل، وقصر عنه الأجل، فقالت منعتة، وانقطعت مدته وصار في حفرته رهناً بذنبيه، وأسيراً بجرمه، ثم بكى" (78).

ومن موقفه هذا نستطيع أن نرى النزعة الدينية التي كان يتمتع ويتصف بها، ونرى أنه كان بعيداً عن الأجواء التي كان قد نَعِمَ بها والده، فهو وحسب ما قاله في خطبته السابقة لم يكن راضياً عما كان يحيط به من لهو وترف. ومن الراجح أن لهذا الموقف من اعتزال الخلافة هو ما دفع الأمويين لنعته بالضعف.

إن ما ينطبق على قلة المعلومات عن نشأة معاوية بن يزيد ينطبق كذلك على نشأة مروان بن الحكم. حيث تزخر المصادر بمعلومات لا تتضب عن توليه الخلافة، ولا تذكر الا القليل عن نشأته، ومروان بن الحكم هو ابن الحكم ابن العاص بن أمية بن شمس بن عبد مناف القرشي الأموي. وكان والده الحكم قد آذى الرسول محمد "ص" قبل إسلامه وهو طريد الرسول "ص". ويعتبره البعض من الكتاب صحابي لأنه ولد في حياة النبي "ص" وروي عنه في صلح الحديبية. وروى مروان عن عمر وعثمان. وذكر الواقدي بأن مروان أدرك النبي محمد "ص" ولم يحفظ عنه شيئاً، حيث كان عمره عند وفاة الرسول محمد "ص" ثمان سنوات وذكره ابن سعد في طبقاته من التابعين. وكان مروان بن الحكم من سادات قريش وفضلائها، وكان سيد شباب قريش. وقد قاتل قتالاً شديداً يوم الدار واتصف بالشجاعة، والشائع أنه السبب في حدوث يوم الدار وبسببه حُصر عثمان بن عفان<sup>(79)</sup>. وقال ابن المبارك عن جرير ابن حازم عن عبد الملك بن عمير قبيصة بن جابر أنه قال لمعاوية: لمن تركت هذا الأمر من بعدك؟ فقال: "القارىء لكتاب الله الفقيه في دين الله، الشديد في حدود الله، مروان بن الحكم"<sup>(80)</sup>. مع أن معظم المصادر لا تذكر أن معاوية وصّى بل مات دون أن يُؤلّ احدًا مكانه.

كان مروان بن الحكم مشيراً لعثمان بن عفان، وكان ساعده وكتابه ومُدبره. واعتزل مروان السياسة بعد الجمل وباع علياً وظلّ بالمدينة حتى آلت الأمور للأُمويين، فولي المدينة مرتين زمن معاوية بن أبي سفيان، وأكرمه يزيد وقربّه منه، وظلّ بالشام إلى أن وليّ الخلافة بعد معاوية الثاني. وشدّ من أزره عبيد الله بن زياد وعمرو بن سعيد<sup>(81)</sup>.

وقال ابن حنبل: "كان عند مروان قضاء"<sup>(82)</sup>. كل ما ذكر عن مروان وما تقلده من مناصب قبل أن يلي الخلافة جعلت لديه خبرة كبيرة، أهلته لتولي الأمر، وساعدته عصبته ومكانته في دعم حكمه. وقد استغل الأموال التي أغدقها عليه عثمان وساعدته على توطيد حكمه. وكان يتمثل دائماً بأبيات من الشعر في كثير من المواقف. ولا يدلنا ذلك إلا على ثقافة اكتسبها من بيئته التي كان الشعر مدادها الأساسي. وفي هذا المجال نذكر بيت الشعر الذي قاله مروان ابن الحكم لعائشة عندما طلب منها أن لا تخرج للحج وعثمان محصور في بيته فرفضت فقال لها:

وحرّق قيسٌ عليّ البلاد      حتى إذا استعرت أجزما

فقالَت عائشة: أيها المتمثل عليّ بالأشعار وددتّ وبالله أنك وصاحبك هذا الذي يعنّيك أمره في رجل كل واحد منكما رحاً وأنكما في البحر. وخرجت للحج<sup>(83)</sup>. ومنها قوله بعد موت معاوية بن يزيد:

إني أرى فتناً تغلي مراجلها      فالملك بعد أبي ليلي لمن غلبا<sup>(84)</sup>

خلف عبد الملك بن مروان أباه في الحكم. ويعد المؤسس الحقيقي للدولة المروانية. وهو ابن عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية. وكان يضرب المثل بخصالها الحميدة، وصفاتها الكريمة، حيث فاقت قريناتها حسناً وجمالاً وأدباً، فنشأ عبد الملك في بيت يهتم بالأدب، ونشأ في حجر السلطان والحكم، حيث كان مروان بن الحكم كما قلنا من المقربين لعثمان وكان صاحب السلطان والرأي المطلق عنده. فتفتحت عينا عبد الملك على أساليب الحكم والإدارة، كما أن نشأة عبد الملك في المدينة قد أثرت

عليه، فتربى تربية دينية علمية، فقرأ القرآن الكريم منذ صغره، وحفظ الكثير من آياته وسوره<sup>(85)</sup>، وخاصة أن المدينة كانت موطناً للعلم والفقهاء وكانت تزخر بأجلاء الصحابة. وكان عبد الملك يلقب بحمامة المسجد لمدامته تلاوة القرآن<sup>(86)</sup>.

درس عبد الملك الفقه على أيدي العلماء، حيث قرأ العلوم الدينية من فقه وتفسير وحديث على مشايخ الحجاز في المدينة، وحفظ عن عثمان، وسمع من أبي هريرة وأبي سعيد الخدري وجابر بن عبد الله وغيرهم من أصحاب رسول الله "ص"، وأصبح فقيهاً وعالماً ومحباً للعلم. وكان أحد فقهاء المدينة قبل توليه الخلافة<sup>(87)</sup>. كان عبد الملك مولعاً بالأدب والشعر، يحفظ الكثير منه ويردده، كما كان ينقد الشعر ويميز بين الجيد منه والرديء. وله مع الشعراء والأدباء مجالس مشهورة وعنه يقول المسعودي: "وكان عبد الملك عاقلاً حازماً أديباً لبيباً عالماً، وكان يحب الشعر والفخر والتقريض والمدح"<sup>(88)</sup>. إلى جانب ذلك فإنه تأثر بمؤدبيه فقد قال أبو مسلم مؤدب عبد الملك، وقد نظر في النحو، فلما أحدث الناس التصريف لم يحسنه، وهجا أصحابه فقال:

قد كان أخذهم في النحو يعجبني      حتى تعاطوا كلام الزنج والروم

لما سمعتُ كلاماً لستُ أعرفهُ      كأنه رجل الغـربان واليوم

تركتُ نحوهم والله يعصمني      من التقم في تلك الجرائيم<sup>(89)</sup>

لعل هذا الانتماء إلى اللغة العربية هو ما تشربه عبد الملك من أستاذه ومؤدبه،

وربما كان أحد الأسباب التي لفتت نظر عبد الملك إلى أهمية القيام بحركة التعريب في

عهده.

ومما قيل في عبد الملك ما ذكره الشعبي حين قال: "ما ذكرتُ أحداً إلا وجدتُ لي الفضل عليه، إلا عبد الملك فما ذاكرته حديثاً ولا شعراً إلا زادني فيه"<sup>(90)</sup>. وعنه قال مسلم بن عقبة أيام يزيد بن معاوية "أيُّ رجل عبد الملك أقل ما كلمتُ من رجال قريش رجلاً به شبيهاً"<sup>(91)</sup>. كما كان معروفاً بالصدق، مشهوراً بالفضل والعلم، لا يُختلف في دينه، ولا يَنزاع في ورعه، فقبلوا ذلك منه، ولم يختلف عليه من قريش أحد ولا من أهل الشام<sup>(92)</sup>.

ووصفه معاوية بقوله: "هو آخذ بثلاث، وتارك لثلاث، آخذٌ بقلوب الناس إذا حدث، وبحسن الاستماع إذا حدّث، وبأيسر الأمرين إذا خولف، تارك للمحاورة، تارك للغيبة، تارك لما يعتذر منه"<sup>(93)</sup>.

وكان عبد الملك حسن الأخلاق وما يدلنا على ذلك سيرته المليئة بالأمثلة التي تدل على خلقه الإسلامي. ومنها على سبيل المثال ما قاله لأحد جلسائه يوماً، حيث أراد أحد جلسائه الخلوة به فقال له عبد الملك بشرط ثلاث خصال "لا تطر نفسي عندك فأنا أعلم بها منك، ولا تغترب عندي أحداً فلستُ أسمع منك، ولا تكذبني فلا رأي لمكذب"، فقال: أتأذن لي في الانصراف؟ فقال عبد الملك: إذا شئت<sup>(94)</sup>. وقد لعبت هذه الصفات دوراً في كيفية تعامل عبد الملك مع المواقف التي تواجهه، فقد أرتج يوماً على عبد الملك بن مروان، فقال: "نحن إلى الفضل في الرأي أحوج منا إلى الفضل في المنطق"<sup>(95)</sup>.

وكان عبد الملك يدرك أنه لا يوجد من هو أفضل منه للحكم فقد قال: "لا أعلم أحد أقوى على هذا الأمر مني، وإن ابن الزبير لطويل الصلاة، كثير الصيام، ولكنه لبخله لا يصلح أن يكون سائساً"<sup>(96)</sup>. كما كان يعلم كذلك رعيته جيّداً، فقال يوماً وهو يخطب على



المنبر: "إلا تتصفونا يا معشر الرعيّة؟ تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر ولم تسيروا في أنفسكم ولا فينا سيرة رعية أبي بكر وعمر، أسأل الله أن يعين كلاً على كل"<sup>(97)</sup>. لقد كان عبد الملك عظيماً في صفاته وأعماله، وترك لبنيه إرثاً كبيراً، اختلف هؤلاء الأبناء في حمله، وذلك تبعاً لشخصية كل منهم. لكنّ شخصية عبد الملك أثرت في أبنائه بشكل واضح، فكانوا يسيرون وفقاً لنصائحه لهم.

**فالوليد بن عبد الملك** هو أكبر أبناء عبد الملك بن مروان، وأمّه هي ولادة بنت العباس بن حزن بن الحارث بن زهير العبسية. وكان أبواه يترفانه، فشَبَّ بلا أدب، وكان لا يحسن العربية<sup>(98)</sup>. وفي هذا يقول عبد الملك "اضرّ بالوليد حبنا له، فلم نوجهه للبادية"<sup>(99)</sup>. وذلك لأنّ الوليد كان أكبر أبناء عبد الملك، فخاف عليه وأبقاه معه، فعاش الوليد عيشةً مرفهةً ومما ذكر عنه أنّه كان يتبختر في مشيته، فقال العتبي عن أبيه: "كان الوليد دميماً، إذا مشى تبختر في مشيته، وكان أبواه يترفانه، فشَبَّ بلا أدب، وكان سائل الأنف"<sup>(100)</sup>. واعتبر عبد الملك لحن الوليد باللغة العربية نقصاً، فقد قال عبد الملك: "للحن هجنة"<sup>(\*)</sup> بالشريف"<sup>(101)</sup>. وعاتب عبد الملك ابنه الوليد على لحنه، وقال له أنه لا يلي العرب إلا من يحسن كلامهم، فجمع الوليد أهل النحو ومكث معهم ستة أشهر في بيته ليتعلم منهم النحو، فخرج وهو أجهل منه يوم دخل، فعذره عبد الملك بعد ذلك في هذا الأمر. وخطب الوليد يوماً فقال: "يا ليتها كانت القاضية، وضم الناء، فلما سمع عمر بن عبد العزيز قوله، قال: "عليك وأراحتنا منك"<sup>(102)</sup>. والمتتبع لسيرة الوليد يرى أنّه كان

(\*) هجنة: عيب ونقص.

يلتزم بالأخلاق الإسلامية وذلك من خلال الأمثلة التي ترونها لنا الكتب التاريخية ومنها ما يذكره الطبري، عن حرص الوليد على تتبع سيرة الخلفاء الراشدين، فقد كان الوليد يمر بالبقال فيقف ويسأل عن الأسعار، وذات مرة مر ببقال وأخذ حزمة البصل فقال: "بكم هذه؟ فقال: بفلس، فقال: زد فيها"<sup>(103)</sup>. وكان الوليد أول من أجرى طعام شهر رمضان في المساجد، وصام الاثنين والخميس فأدمنهما. "وهو أول من أخذ بالقذف والظنة وقتل بهما الرجال، وكان ممن أحدث قتل العصاة"<sup>(104)</sup>. وكان يقول: "لا ينبغي للخليفة أن يناشد، ولا يكذب، ولا يسميه احد باسمه"<sup>(105)</sup>. وقيل أن الوليد كان يختم القرآن في كل ثلاثة أيام، وكان يكثر من قراءة القرآن في رمضان، ويختم كل يوم فيه ختمة<sup>(106)</sup>، وكان حريصاً على أن يتعلم المسلمون القرآن وعلومه، فقد أتاه رجل من مخزوم يشتكي الدين، فقال له الوليد: "ان كنت مستحقاً لذلك، فقال له الرجل: يا أمير المؤمنين فكيف لا أكون مستحقاً لذلك مع قرابتي! قال: أقرأت القرآن؟ قال: لا، فأدناه منه ونزع عمامة الرجل بقضيب كان بيده وقرعه قرعات بالقضيب، وضمه لرجلٍ يُقرئه القرآن. وقام إليه عثمان بن يزيد بن خالد بن أسيد، فقال: يا أمير المؤمنين، ان علي ديناً، فقال: أقرأت القرآن؟ قال: نعم فاستقرأه عشر آيات من الأنفال، ومثلها من براءة، فقرأها، فقال: نعم، نقضي عنكم، ونصل أرحامكم على هذا"<sup>(107)</sup>. نرى مما تقدم ان الوليد جعل المفاضلة بين الرجلين "قراءة القرآن وحفظ آياته".

هناك الكثير من المواقف التي تشير إلى أن الوليد لم يكن يتمتع بسرعة البديهة او حتى الحكمة والفتنة، فعندما أمر الوليد بهدم بيعة (كنيسة) كتب له الأحزم ملك الروم،

وقال له: "ان من قبلك من الخلفاء اقروها، فان أصبت فقد اخطأوا وأن اخطأت فقد أصابوا". ولم يعرف الوليد كيف يرُد عليه فقال: "من يجيبه؟" فقال الفرزدق: "أنا"<sup>(108)</sup>، فكتب إلى ملك الروم "داوود وسليمان، إذ يحكمان في الحرث، إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين، ففهمناها سليمان، وكلاً أتينا حكماً وعلماً".

وبالرغم من كون الوليد لحّان، ولا يتمتع بسرعة البديهة إلا أنه وعند بعض المؤرخين ومنهم الطبري يُعد أفضل خلفاء بني أمية، وذلك لأنه بنى المساجد وأعطى الناس، وأعطى المجذومين، وقال: "لا تسألوا الناس". وأعطى كل مُقعد خادماً، وجعل لكل ضرير قائداً، إضافة لما تمّ في عصره من الفتوحات<sup>(109)</sup>. وكتب لوالي المدينة بتسهيل الثنايا وحفر الآبار، وأن يعمل فوارة<sup>(\*)</sup>، فعملها وأجرى الماء فيها، كما أمر بإصلاح الطرق وعمل الآبار في كل أنحاء البلاد. وهو أول من أحدث المستشفيات في الإسلام، وكان قد رتب للقراء أموالاً وأرزاقاً، وأقام بيوتاً ومنازل يأوي إليها الغرباء<sup>(110)</sup>. إن اهتمام الوليد بهذه الفئات الإجتماعية يدل على طبيته، ورفقه في الناس. وكان رؤوفاً بإخوته ومراعياً لسائر ما أوصاه به أبوه عبد الملك، وكان كثيراً ما ينشد أبياتاً قالها عبد الملك وصّاه فيها على أخوته وكان يرددها كي يذكر نفسه بها وأشهرها:

انفوا الضغائن عنكم وعليكم  
عند المغيب وفي حضور المشهد

(\*) الفوارة من الماء: منبعه، فار الماء - فوراً - خرج من الأرض وجرى متدفقاً.

وكانت هناك محاولات كثيرة للإيقاع بين الوليد وسليمان، فبلغ الوليد ان سليمان  
 يتمنى موته لما له من العهد، فكتب الوليد الى سليمان يُعاتبه، وضمّن رسالته ابياتاً من  
 الشعر جاء فيها:

لعل الذي يرجو فنائي ويدعي                      به قبل موتي أن يكون هو الردي

فأجابه سليمان برسالة نفى فيها ما وجه إليه وكتب للوليد يقول: "متى سمع أمير  
 المؤمنين من أهل النميمة ومن ليست له رويّة او شكّ ان يسرع في فساد النيات، ويقطع  
 بين ذوي الأرحام والقرابات"<sup>(111)</sup>. وكتب في أسفل كتابه:

ومن لا تغمض عينه عن صديقه                      وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتبُ

ومن تتبع جاهداً كل عثرة                      يجدها ولم يسلم له الدهر صاحب

فكتب الوليد لسليمان يقول: "ما أحسن ما اعتذرت به وحذوت عليه، وانت الصادق  
 في المقال، والكامل في الفعال، وما شيء أشبه بك من اعتذارك ولا ابعد مما قيل فيك،  
 والسلام"<sup>(112)</sup>.

كان سليمان بن عبد الملك على الضدّ من أخيه الوليد، حيث كان سليمان فصيحاً،  
 بليغاً، مفوهاً، مؤثراً للعدل، ومحباً للغزو<sup>(113)</sup>. فقد أفسد الوليد ذات مرة في أرض لعبد الله  
 بن يزيد بن معاوية، فشكا خالد بن يزيد إلى عبد الملك، فقال له عبد الملك: "ان الملوك إذا  
 دخلوا قرية أفسدوها"، ودار بينهم حديث فعيّر خالد عبد الملك بالوليد، فقال عبد الملك: "ان  
 كان الوليد يلحن فسليمان أخوه"<sup>(114)</sup> مفتخراً بفصاحة سليمان. وسليمان هو أبو أيوب، وأمه  
 ولادة بنت العباس أم أخيه الوليد<sup>(115)</sup>. ولقب سليمان بمفتاح الخير لأنه افتتح عهده بإطلاق

الأسرى، وأذهب عنهم الحجاج، وأحسن إليهم. واستخلف عمر بن عبد العزيز<sup>(116)</sup>. وكان لسليمان نزعة دينية واضحة في خطبه، ومثال ذلك ما جاء بخطبته عند توليه الخلافة، حيث قال فيها: "إن الدنيا، دار غرور وباطل وزينة وتقلب بأهلها، تُضحكُ باكيها، وتبكي ضاحكها وتخيف آمنها، وتؤمن خائفها وتثري فقيرها، وتفقر مثرها، ميالة بأهلها، عباد الله: اتخذوا كتاب الله إماماً، وارضوا به حكماً، واجعلوه لكم هادياً ودليلاً...<sup>(117)</sup>."

لعل أهم ما أثارَ على سليمان في فترة حكمه وفعله للخيرات، هو وجود عمر بن عبد العزيز إلى جانبه. وقد ذكر سعيد بن عبد العزيز أن سليمان ولي وهو إلى الشباب والترف أميل، فقال لعمر بن عبد العزيز: "يا أبا حفص إنا قد وليناك ما ترى، ولم يكن لنا بتدبيره علم، فما رأيت من مصلحة العامة فمُرَّ به يكتب"<sup>(118)</sup>، فكان من ذلك ما قام به من عزل عمال الحجاج، وإخراج من في سجون العراق. وكان سليمان يسمع كلام عمر بن عبد العزيز بكل ما يأمره به. والمتتبع لسيرة سليمان بن عبد الملك يلاحظ تركيز الكتب على خطبه ولا يدل ذلك إلا على بلاغته وفصاحته في القول. وكان أول كلام بارع سمعه الناس من سليمان بن عبد الملك قوله: "الكلام فيما يعينك خير من السكوت عما يضرك، والسكوت عما لا يعينك خير من الكلام فيما يضرك"<sup>(119)</sup>.

أما عمر بن عبد العزيز ورغم أن فترة حكمه لم تشهد أحداث عسكرية كبيرة، ولم تدم أكثر من عامين ونصف العام، اهتم فيها بالأمر الداخلي، وولى فيها من هم جديرون بالثقة، ومنع لعن علي على المنابر. وتسامح مع أبناء الديانات الأخرى<sup>(120)</sup>. عُدَّتْ فترته من أزهى الفترات واعتبره المسلمون خامس الخلفاء الراشدين ويُعد نموذجاً

تتغنى به الكتب التاريخية الإسلامية، لأن سيرته تختلف عن سبقه من خلفاء بني أمية، وعنه يقول سفيان الثوري: "الخلفاء خمسة: أبو بكر، عمر، عثمان، وعلي وعمر بن عبد العزيز"<sup>(121)</sup>. وعندما يتناول السيوطي تاريخ عمر بن عبد العزيز يقول: "ال خليفة الصالح، أبو حفص، خامس الخلفاء الراشدين". إن تميز عمر عن خلفاء بني أمية يدعونا للوقوف عنده أكثر من غيره من خلفاء بني أمية والحديث عنه باستفاضة، والتركيز على نشأته.

فعمر هو ابن عبد العزيز بن مروان بن الحكم. وأمه هي أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب. ولد عمر بطلوان<sup>(\*)</sup> وهي قرية مصرية، وكان والده وقت ولادته والياً على مصر. اشتهر والده عبد العزيز بن مروان بالورع والتقوى، وكان حريصاً على مجالسة الصحابة ورواة الحديث والاستماع إلى الشعر والأدب، حتى كان مجلسه ندوة للفقهاء والعلماء والأدباء. و أمه كانت ورعة، لينة الجانب ورضية الوالدين<sup>(122)</sup>. في هذه البيئة نشأ عمر الذي حفظ القرآن وهو صغير، وحرص والده على إرساله للمدينة المنورة ليتأدب فيها، وكان هو بنفسه حريصاً على الذهاب للمدينة حيث قال لو الده: "ترحلني إلى المدينة، فأقعد إلى فقهاء أهلها، وأتأدب بأدابهم"<sup>(123)</sup>، فذهب للمدينة وكان يختلف إلى عبد الله بن عبيد الله بن عبد الله يسمع منه العلم. وجالس فقهاء المدينة وأخذ من هديهم وسمع منهم. واشتهر بالمدينة بالعلم والعقل مع حداثة سنه<sup>(124)</sup>. وكان والده قد طلب من صالح بن كيسان أن يتعاهده ويهتم به أثناء وجوده في المدينة، فأبطأ عمر يوماً عن الصلاة، فقال

(\*) معظم المصادر تجمع على أنه ولد بطلوان، على أن محمد الكتبي يذكر أنه ولد في المدينة المنورة سنة 60هـ.

له صالح: "ما حبسك؟ فقال: كانت مُرجلتي تصلح شعري، فكتب إلي أبيه بذلك، فأرسل أبوه رسولاً، فلم يزل حتى حلق شعره" (125).

لعب الفقهاء دوراً كبيراً في صقل شخصية عمر بن عبد العزيز. ومن أهم الأمور التي تأثر بها عمر وأخذها عن الفقهاء مسألة سبّ علي بن أبي طالب، فروى عمر بن عبد العزيز: "كنت بالمدينة أتعلّم العلم وكنتُ ألزم عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، فبلغه عني شيء من ذلك - سبّ علي - فأتيته يوماً وهو يصلي فأطال الصلاة، فقعدت أنتظر فراغه، فلما فرغ من صلاته، التفت إليّ، فقال لي: متى علمت أنّ الله غضب على أهل بدر وبيعة الرضوان بعد أن رضي عنهم؟ قلت: لم أسمع ذلك. قال: فما الذي بلغني عنك في عليّ، فقلت معذرة إلى الله واليك" (126). وترك عمر منذ ذلك اليوم سبّ علي. وفي نفس السياق كان عمر يقول لوالده عبد العزيز عندما يسبّ علياً أثناء خطبته (خطبة عبد العزيز) "يا أبة أنك تمضي في خطبتك فإذا أتيت على ذكر عليّ عرفتُ منك تقصيراً؟ قال: أوفطنت لذلك؟ قلت: نعم. فقال: يا بنيّ إنّ الذين حولنا لو يعلمون من عليّ ما نعلم تفرّقوا عنا إلى أولاده" (127).

رغم العيشة المرفهة التي عاشها عمر إلا أنّ والده لم يضمه إلى خادم وهو غلام. ويمكن معرفة ذلك من خلال الحادثة التي تعرض لها عمر في صباه، فقد وقع عن دابة من دوابّ أبيه، فشجّت رأسه، وكان غلاماً بدمشق فضمته أمّه إليها وأخذت تمسح الدم عن وجهه. فدخل أبوه عليها وهي على تلك الحال، فأخذت تلوم أبي عمر وتقول له: "ضيّعت ابني، ولم تضم إليه خادماً ولا حاضناً يحفظه من مثل هذا! فقال لها: اسكتي يا أم عاصم،

فطوباك ان كان أشجّ بني أمية<sup>(128)</sup>. وقد نرى من خلال هذا ان عبد العزيز كان معنياً بأن ينشأ عمر بعيداً عن الدّلال، والرفاهية، والالتكال على الخدم والاعتماد على نفسه حتى ينشأ كما نشأ والده. إلا أن هذا الحال لم يستمر، فعند وفاة أبيه، طلب عبد الملك من عمر أن يحضر إلى دمشق، وقام بخلطه بأولاده، ليس هذا وحسب بل وقدمه على كثير منهم، وزوّجه بابنته فاطمة، وولاه المدينة<sup>(129)</sup>، وقد تولى المدينة وهو في عمر الخامسة والعشرين، فدعا عشرة من فقهاء المدينة - وطلب منهم العون والمشورة في إدارة ولايته، كما طلب منهم ان يخبروه عن أعمال التعدي والمظالم. وفي العام 90هـ تولى إمارة مكة والطائف والحجاز، وتمّ عزله بتحريض من الحجاج عام 93هـ<sup>(130)</sup>، وعمل عمر كمستشار للوليد وأصبح كالوزير لسليمان. وكان سليمان والرعية يستفتونه في أمورهم.

تأثر عمر بالبيئة المنعمة التي عاش فيها، فبدت آثارها عليه، في البذخ والتزرف والتبخر، وساعده في ذلك ما كان يملكه من أموال إرثاً عن أهله، او هبةً من بني أمية<sup>(131)</sup>. وكان يفرط في التنعم، ويختال في مشيته، لكنه نبذ هذا النوع من الحياة بعد توليه أمر الخلافة فزهد في الدنيا. ومن الشهادات بحق عمر ما قاله أنس بن مالك "ما صليتُ خلف إمام أشبه برسول الله "ص" من هذا الفتى"<sup>(132)</sup>، يعني عمر بن عبد العزيز. وكان عمر يتم الركوع والسجود ويخفف القيام والقعود. وسئل محمد بن علي بن الحسين عن عمر يوماً، فقال "هو نجيب بني أمية، وإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده"<sup>(133)</sup>. وقال عنه الذهبي: "كان حسن الخلق والخلق، كامل العقل، وافر العلم، فقيه النفس، ظاهر الذكاء والفهم، أوهاً منيباً، فانتأ الله تعالى، زاهداً مع الخلافة"<sup>(134)</sup>. وشهد الإمام مالك بعدالة عمر



حيث قال: "كان عندنا هاهنا رجلاً صالحاً عادلاً، فلما ولي الخلافة إزداد وارتفع وزهد في الدنيا، وارتفع إلى ما كان عليه"<sup>(135)</sup>. وأما عمر فكان يقول عن نفسه: "لو أقيمت فيكم خمسين عاماً ما استكملت فيكم العدل. أني لأريدُ الأمر فأخاف الا تحمله قلوبكم، فأخرج منه طمعاً من طمع الدنيا. فإن انكرت قلوبكم هذا"<sup>(136)</sup>. وكانت سيرته مشابهة لسيرة جده عمر بن الخطاب من حيث العدل والعلم. فقد قال عنه سفيان الثوري، "كانت العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة"<sup>(137)</sup> وقال ميمون بن مهران نفس المعنى عندما قال: "كانت العلماء عند عمر تلامذة" وقال مجاهد: أتيناها نعلم فما برحنا حتى تعلمنا منه"<sup>(138)</sup>. وقال القاضي إياس ابن معاوية عن خلقه عندما حدّث أصحابه عن عمر بقوله كنت عند عمر فقلت: "الحياء من الدين، فقال له عمر: بل الحياء هو الدين كله"<sup>(139)</sup>. وتأثر عمر بمن استعان بهم في فترة خلافته من الفقهاء وغيرهم من عائلته، وكان من بين مستشاريه ابنه عبد الملك، وأخوه سهل، ومولاه مزاحم، ورجاء بن حيوة، والحسن البصري وأمثالهم<sup>(140)</sup>.

عرف عمر بتواضعه ، فهولم يترفع عن أخذ العلم والحكمة من أي شخص مهما كانت مكانته أو عمره. فعندما جاءته الوفود مهنئة بتولييه الخلافة، تقدم شاب وأبدى من الحكمة الشيء الكثير، مما دفع عمر بن عبد العزيز للقول:

تعلم فليس المرء يولدُ عالماً      فليس أخو علم كما هو جاهل

وإن كبير القوم لا علم عنده      صغيراً إذا التقت عليه المحافل<sup>(141)</sup>

وبذا نرى بوضوح أنّ ما أثر على شخصية عمر كان عدة عناصر من أهمها شخصية والديه، والفقهاء الذين تربى ونشأ على أيديهم وأخذ العلم عنهم، والمحيطين به أثناء الخلافة حيث قرّب العلماء والفقهاء منه.

إن ما حظي به عمر بن عبد العزيز من الاهتمام بنشأته وتعليمه من قبل المؤرخين لم يحظ به خلفه وهو يزيد بن عبد الملك الذي كان يُكنى بأبي خالد، وكان يقال له "يزيد بن عاتكة" نسبة إلى أمّه عاتكة<sup>(142)</sup>. وأمّه هي عاتكة بنت يزيد بن معاوية. عن ابن جابر قال: "بينما كنا عند مكحول، إذ اقبل يزيد بن عبد الملك، فهممنا أن نوسّع له، فقال لهم مكحول: دعوه يجلس حيث انتهى به المجلس، يتعلم التواضع"<sup>(143)</sup>. وما هذه المقولة إلا دليل على ما كان يصيب قلب يزيد من الكبر والغرور، ومن خلال رواية أخرى ذكرها عبد الله بن بشار حيث قال: "إني لجالس في مسجد النبي محمد "ص" وقد حجّ يزيد بن عبد الملك قبل ان يكون خليفة، فجلس مع المقبري، وابن أبي الغيث، إذ جاء أبو عبد الله القرّاط، فوقف عليه فقال: انت يزيد بن عبد الملك؟ فتألفت يزيد إلى الشيخين الذين معه فقال: أمجنونٌ هذا! فذكروا له فضله وصلاحه وقالوا: هذا ابو عبد الله القرّاط صاحب ابي هُريرة، حتى رقّ له ولان. فقال: نعم، أنا يزيد، فقال له: ما أجملك انك تشبه أباك، ان وُلّيت من أمر الناس شيئاً، فاستوص بأهل المدينة خيراً"<sup>(144)</sup>. وأكمل حديثه معه، واللافت في الأمر، أنّ يزيد لم يكن ليجيب الرجل السائل حتى علم مكانته، وذلك بتأثير من الشيخين اللذين يجلسان معه، وفي ذلك تعالٍ واضح من يزيد على الناس.

ان الكتب التي تناولت سير الخلفاء، لم تذكر الشيء الكثير عن نشأة يزيد، ومنها كتاب تاريخ الخلفاء للسيوطي، في حين استفاضة كتب أخرى بالحديث عن لهوه، وترفه الزائدين. وقد حاول اخوته التعديل من سلوكه والمتمثل بالبحث عن المذات، لكنهم لم يستطيعوا. عندما حجَّ في عهد أخيه سليمان اشترى حباية (جارية) وكان اسمها العالية، بأربعة آلاف دينار من عثمان ابن سهل التي ردت إليه فيها بعد ، وذلك لأن سليمان أراد ان يحجر على أخيه بسبب ذلك<sup>(145)</sup>. لكن يزيد قام برد الجارية بعدما نصب كخليفة للمسلمين .

واللافت للنظر أن أبناء عبد الملك ظلوا متمسكين بوصية عبد الملك، فما حصل بين الوليد وسليمان، تكرر مع يزيد وهشام، حيث بلغ يزيد أن أخاه هشام ينتقصه ويتمنى موته ويعيبُ عليه لعبه بالقينات، فكتب إليه يزيد، أما بعد "فقد بلغني استتقالك حياتي، واستبطاؤك موتي، ولعمري أنك بعدي لواهي الجناح، أجدم الكف، وما استوجبت منك ما بلغني عنك". فأجاب هشام: "أما بعد، فإن أمير المؤمنين متى فرَّغ سمعه لقول أهل الشنآن وأعداء النعم يوشك أن يقدح ذلك في فساد ذات البين، وتقطع الأرحام، وأمير المؤمنين بفضله وما جعله أهلاً له أولى أن يتعمد ذنوب أهل الذنوب، فأما معاذ الله ان استتقل حياتك، او استبطى وفاتك". فكتب إليه يزيد: نحن مغتفرون ما كان منك، ومكذبون ما بلغنا عنك، فاحفظ وصية عبد الملك ابانا، وقوله لنا في ترك التباعي والتخاذل، وما أمر به وحضَّ عليه من صلاح ذات البين واجتماع الأهواء فهو خيراً لك وأملك بك<sup>(146)</sup>. وآثر

هشام الرحيل إلى جوار يزيد مخافة إيقاع أهل البغي بينهما، وبقي هشام بجواره حتى مات.

**هشام بن عبد الملك** هو ابن عائشة بنت هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة بن مخزوم. وكانت حمقاء، أمرها أهلها ألا تكلم عبد الملك حتى تلد. ومما ذكر من صنيعها أنها كانت تتخذ من الوسائد ركوباً لها وتجعلها كالدواب، وكانت تمضغ الكندر<sup>(\*)</sup> وتعمل منه تماثيل، وسمت كل تماثل باسم جارية معينة وتنادي عليها، فطلقها عبد الملك لحمقها. وعندما وُلد هشام سمّاه أبوه منصوراً لأنّ مولده كان في العام الذي قُتل فيه مصعب بن الزبير، فسماه منصوراً كي يتفاهل به، أما أمّه فسمته هشاماً باسم أبيها هشام، ولم ينكر عبد الملك ذلك<sup>(147)</sup>. نشأ هشام في البادية، وكان من أفصح أبناء عبد الملك، "وكان أحزم بني أمية، وأرجلهم حسب وصف اليعقوبي له. يؤخذ عليه بخله، كما كان حسوداً، فظاً، غليظاً، ظلوماً، شديد القسوة، بعيد الرحمة، طويل اللسان"<sup>(148)</sup>. وكانت هذه الصفات لا تؤهله للحكم من وجهة نظر البعض ومن بينهم أقرب المقربين، فقد قال مسلمة بن عبد الملك لهشام قبل تولّيه الخلافة: "كيف تطمع في الخلافة وأنت بخيل وأنت جبان؟ فردّ عليه هشام قائلاً: "لأنني حلِيم واني عفيف"<sup>(149)</sup>. بعض المصادر الإسلامية تصور هذا الموقف بين مسلمة وأخيه هشام، وما دار بينهما ضرب من مزاح. وقال مسلمة لأخيه قبل خلافته الحكم، وفي رواية المسعودي الذي يأخذ على أن هذا الموقف، هو ضربٌ من المزاح بأن جواب هشام كان لأخيه "والله اني حلِيم"<sup>(150)</sup>. وكان

(\*) الكندر: اللبان.

الطبري قد ذكر أن آل مروان هم من عاتبوا هشام في الأمر ووجدوه لا يستحق الحكم لبخله<sup>(151)</sup>، ولم يذكر شخصاً بعينه. على أي حال فإنَّ بخل هشام وجبته كان سبباً في الانتقاص من شرعيته بتولي الخلافة، في حين كان علمه وحلمه هما حجته في تثبيت أحقيته بالخلافة.

وتزدحم القصص عن بخل هشام في كتب التاريخ، ومنها بخله في العطاء، فقد أتى محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب لهشام يوماً، فقال له هشام: "ما لك عندي شيء، ثم قال: إياك ان يغرك احد فيقول: لم يعرفك أمير المؤمنين، اني قد عرفتك، انت محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، فلا تقيمن وتنفق ما معك، فليس لك عندي صلة، فالحق بأهلك"<sup>(152)</sup>. ودخل هشام بستان له مع ندمائه، فطافوا بالبستان، وبه من كل الثمار، وأخذ الندماء يأكلون من هذه الثمار، ويقولون: "بارك الله لأمير المؤمنين"، فقال: "كيف يبارك لي فيه، وانتم تأكلونه؟ ثم قال: لمن يعهد البستان بأن يقلع ما فيه من أشجار، ويزرع مكانها زيتوناً حتى لا يأكل أحد منه شيئاً"<sup>(153)</sup>. ولا يمكن حصر الروايات التي تتحدث عن بخل هشام لكثرتها. وكان جافاً في تعامله مع الناس بعكس ما عرف عن معاوية بن أبي سفيان، فقد شتم هشام رجلاً من الأشراف، فوبخه الرجل وقال له: "اما تستحي ان تستمني وانت خليفة الله في الأرض؟" فاستحيا هشام من الرجل، وقال له: اقتص مني، فقال الرجل: إذا أنا سفيه مثلك، فقال هشام: فخذ مني عوضاً من المال. قال: ما كنت لأفعل، فقال هشام: فهبها لله. قال: هي لله ثم لك. فنكس هشام رأسه واستحيا وقال: والله لا أعود الى مثلها أبداً<sup>(154)</sup>.

وكان هشام بعيداً عن مظاهر اللهو والترف الظاهر بل عاب على الوليد بن يزيد لهوه، وذلك تشكيكاً من هشام بشرعية الوليد بالحكم. لقد كان هشام حازماً مع أبنائه، وكان يرى أنهم بأخلاقهم وعقولهم يمكن أن يكونوا أحق من الوليد بالخلافة. ونتبين موقف هشام هذا في كثير من المواقف منها موقفه عندما بلغه بأن ابنه معاوية قد مات بسبب ركضه وراء ثعلب أراد الإمساك به فسقط عن فرسه ومات، فعندما علم هشام بذلك ما كان منه إلا أن قال: "تالله لقد أجمعت أن أرشحه للخلافة، ويتبع ثعلباً!"<sup>(155)</sup> وفي ذلك إنكار للأعمال التي قام بها ابنه معاوية، لأنَّ هشام كان يؤمن أن منصب الخلافة بحاجة لرجل عاقل. وبالرغم مما يقال عن بخله إلا أنه كان "حازماً عاقلاً وصاحب سياسة حسنة"<sup>(156)</sup>، ووصفه أحدهم ويدعى عقاب فقال: "دخلتُ على هشام فدخلتُ على رجل محشواً عقلاً"<sup>(157)</sup>. وكان يسمع كلام العقل دائماً ولا يسمع ممن حوله. فكان من عادة الخلفاء وأبنائهم الذهاب إلى البادية والهرب من الطاعون، فلما أراد هشام أن ينزل الرصافة قيل له: لا تخرج، فإن الخلفاء لا يُطعنون، ولا نر خليفة طُعن. فقال: "أتريدون أن تجربوا بي! فنزل الرصافة وهي بريّة، وابتنى بها قصرين. وكان يهتم بالدواوين فقال عبد الله بن علي: "جمعتُ دواوين بني مروان، فلم أر ديواناً اصح ولا أصلح للعامّة والسلطان من ديوان هشام"<sup>(158)</sup>.

نرى أن هشام كان قريباً من شخصية والده، فهو مثله من حيث الفصاحة والحرص على الأموال والاهتمام بالدواوين ... الخ. إضافة إلى ما ذكرنا يجب أن نشير إلى قضية هامة هي أنَّ هشام كان ملماً ليس بأمور السياسة فقط بل بالأمور العادية، ولا

يترفع عن القيام بأشياء ترفع عن القيام بها خلفاء سبقوه أو أتوا بعده خاصة عندما كان يجلس مع أصدقائه وندمائيه ، فقد قال هشام للأبرش يوماً: "أوضعتُ عنزك؟ قال: أي والله، فقال هشام: "لكن عنزي تأخر ولادها فالخرج بنا الى أعنزك نصب من ألبانها، قال: نعم، أفأقدمُ قوماً؟ قال: لا، قال: فأقدمُ خبَاءً حتى يضرب لنا؟ قال: نعم، فبعث برجلين بخباء فضرب، وغدا هشام والأبرش وغدا الناس، ففعد كل منهما على كرسي، وقدم الى كل واحد منهم شاة، فحلب هشام الشاة بيده وقال: أتعلم يا أبرش اني لم ابسّ الحليب، ثم أمر بملة فعجنت وأوقد النار بيده، ثم فحصها والقى الملة، وجعل يقلبها بالمحراث، ويقول: يا ابرش، كيف ترى رفقي؟ حتى نضجت، ثم اخرجها، وجعل يقلبها بالمحراث، ويقول جبينك جبينك. والابرش يقول: لبيك لبيك<sup>(\*)</sup>. ثم تغدى وتغدى الناس ورجع<sup>(159)</sup>. وبالتالي فهشام الخليفة يعرف كيف يحلب الغنم وكيف يخبز ... الخ ولديه خبرة بهذه الأمور التي هي من اختصاص الخدم، وعلى الأغلب أنه اكتسبها من نشأته في البادية.

أما الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان فهو ابن ام الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفي، وكان الحجاج المعروف بجبروته وقسوته عم ام الوليد<sup>(160)</sup>. نشأ الوليد كغيره من ابناء العائلة الحاكمة، وتأدب على يد عبد الصمد بن الأعلى الذي رمي بالزندقة<sup>(161)</sup>، فكان ينعت بالزنديق وربما نتيجة لذلك رمي الوليد بالزندقة من قبل بعض المؤرخين. لعب هشام بن عبد الملك دوراً كبيراً في الانقاص من مقام الوليد بن يزيد، وكان يتعمد استفزازه واحراجه امام المسلمين. فقد اراد هشام يوماً اظهار الوليد بمظهر

(\*) هذا ما يقوله الصبيان إذا خبزت لهم الملة.

الماجن الشربيب للخمير، فقال له: "ما شرابك؟ فقال له الوليد: شرابك يا أمير المؤمنين، فقام هشام مغاضباً وخرج من المجلس قائلاً: اهذا الذي تزعمون أنه احمق! ما هو احمق! ولكني لا أظنه على الملة"<sup>(162)</sup>. إن قول هشام يبين أن المحيطين به كانوا أيضاً ممن ينسجون صورة مشوهة لهشام عن الوليد ويغرونه بخلعه من منصب ولي العهد، وتناقلت العامة ما قيل عن الوليد، فالوليد لم يكن أحمقاً بل ذكياً إلا ان ما تناقلته العامة من قصص وروايات عن لهوه ومجونه قد أضرت بشخصه. فقد ذكر ابن خلدون ذلك بقوله: "لقد اساءت القالة فيه كثيراً وكثيراً من الناس نفوا ذلك عنه: انها من شناعات الاعداء الصقوها به"<sup>(163)</sup>. وهنا نرى اختلاف الروايات في الوليد بشكل واضح فمنها من رأت أنه فاسق ومنها من خفت من حدة الهجوم عليه، ومن ذلك نذكر ما يؤكد الذهبي الذي وصف الوليد "بالخليفة الفاسق"، وقال في نهاية ترجمته: "ولم يصح عن الوليد كفر ولا زندقة، نعم اشتهر بالخمير والتلوط فخرجوا عليه لذلك"<sup>(164)</sup>. وهذا ما تؤكد رواية شبيب بن شبة حيث كان في مجلس المهدي فذكر الوليد فقال المهدي: كان زنديقاً، فقام ابن علان الفقيه، قال: "يا أمير المؤمنين، أن الله عز وجل اعدل من ان يولي خلافة النبوة وأمر الأمة زنديقاً لقد أخبرني عنه من كان يشهده في ملاعبه وشربه ويراه في طهارته وصلاته، فكان إذا حضرت الصلاة يطرح الثياب التي عليه المصبغة، ثم يتوضأ ويحسن الوضوء، ويؤتى بثياب بيض نظيفة فيلبسها ويشغل بربه. اترى هذا فعل من لا يؤمن بالله؟ فقال المهدي: بارك الله عليك يا ابن علان، وانما كان الرجل محسوداً في خلاله، ومزاحماً بكبار عشيرة بيته من بني عمومه مع لهو كان يصاحبه، اوجد لهم به السبيل على نفسه"<sup>(165)</sup>. وسأل



الرشيد مروان بن أبي حفصة عن الوليد بن يزيد فقال الرشيد له: "هل رأيت الوليد بن يزيد؟ فقال له: نعم، قال: صفه لي، فقال: كان من أجمل الناس وأشعرهم وأشدهم، قال: أتروي من شعره شيئاً؟ فقال: نعم" (166). وكان الوليد شاعراً مجيداً، فله شعر كثير ومنه على سبيل المثال ما رثى به عمه مسلمة بن عبد الملك حين بلغه نبأ وفاته، وكان مسلمة يدافع عن الوليد ويعاتب هشام بشأن ما يفعله بالوليد من إنتقاص بحقه، ومما قال له في رثاء مسلمة:

اتانا بريدان من واسطٍ	يخبآن بالكتاب المعجـمة
أقول وما البعد الا الردى	امسلم لا تبتعدن مسـلمة
فقد كنت نوراً لنا في البلاد	تضيء فقد اصـبحت مظلمة

ان دفاع مسلمة عن الوليد، قد يُقَلُّ من عبء الاتهامات الموجهة إليه، فكيف يعاتب مسلمة هشام في أمر الوليد؛ إن كان الوليد على فعل مشين، ومسلمة كان معروفاً بالحزم والقوة، وهو من انتقص من امكانية تولى هشام الخلافة لعلمه بمدى بخله وجبنه، فكيف يدافع عن الوليد إن كان يعرف عنه قيامه بالأفعال المشينة وهو ولياً للعهد بعد هشام؟ إن محاولات هشام المتكررة لتشويه صورة الوليد قد ساهمت في تشكيل صورة سلبية عنه .

كان الوليد أكمل بني امية ادباً وفصاحة وظرفاً، وأعرفهم باللغة والحديث (167). وكان يقدر العلم والعلماء، ورغم لهوه، لم يكن يرضى بأن يلعب الشطرنج امام أهل العلم فكيف يظهر الفسوق؟ وما يدلنا على ذلك الرواية التي ذكرها ابن قتيبة في عيون الاخبار،

حيث خرج الوليد حاجاً ومعه عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر، فكانا بالطريق يلعبان الشطرنج، فاستأذن رجلٌ من ثقيف على الوليد، فأذنَ الوليد للرجل وقد ستر الشطرنج بمنديل، فلما دخل الرجل وسلم. وسأل الوليد حاجته قال له الوليد: "اقرأت القرآن؟ قال: لا، يا أمير المؤمنين اشغلنتي عنه أمور وهنات، قال: افتعرف الفقه؟ قال: لا، قال: أفرويت من الشعر شيئاً؟ قال: لا، قال: أفعلت من أيام العرب شيئاً؟ قال: لا، فكشف الوليد المنديل عن الشطرنج وقال لعبد الله شاهك، فقال له عبد الله: يا أمير المؤمنين! قال: اسكت فما معنا أحد" (168). كان الوليد قد احترم الرجل ظناً منه أنه يملك علماً أو شعراً، أوفقها... إلخ فلما أدرك أنه ليس عالماً أو فقيهاً أو شاعراً، لم يخجل من إكمال لعبه بالشطرنج، فهو إذاً يحترم الناس حسب قدرهم، وحسب علمهم. والواضح أن الوليد لم يكن يجاهر بالمعاصي، بل كان يشرب ويلهو بالقصر، فكيف يخفي لعبه الشطرنج، ولا يخفي شربه للخمر؟

ولم يكن الوليد ذا شخصية ضعيفة بل كان شجاعاً، قوي الجسم، صاحب مروءة، وكانت أعماله التي قام بها تدل على حبه للناس، ومراعاته لظروفهم. فقد زاد في أعطيات أهل الشام، كما أجرى على عميانهم وكساهم، وأمر لكل منهم بخادم وقائد، وكان يطعم كل من وفد إليه، ويطعم من صدر من الحج، وينزله بمنزل يقال له الدير ثلاث أيام ويعلف دوابه، ولم يقل لشيء سئل عنه لا. وقال: "ما تعودت غير نعم" (169) ومن ضمن ما عاتب به الوليد من جاؤوا ليقتلوه قوله لهم معاتباً "ألم أزد في أعطياتكم؟ ألم أرفع عنكم المؤن؟ ألم أعط فقراءكم؟ فقالوا: ما ننقم عليك في أنفسنا لكن ننقم عليك انتهاك ما حرم الله.

وشرب الخمر. ونكاح أمهات أولاد أبيك؟ واستخفافاً بأمر الله<sup>(170)</sup>. ورغم ما قيل في الوليد فهو من ظرفاء بني أمية وشجعانهم وأجوادهم<sup>(171)</sup>. ويكفي الإشارة إلى شجاعته حين رفض الهرب من يزيد عندما أشار عليه أصحابه بالهرب، فقال: "ما ينبغي للخليفة أن يدع عسكره وحرمة قبل أن يقاتل"<sup>(172)</sup>. وما يدلنا على بعده عن الفسق موقفه عندما احاط به خصومه ليقتلوه، وأخذ المصحف، وقال: "أقتل كما قتل ابن عمي عثمان"<sup>(173)</sup>.

وكان الوليد كما وصف البعض "شديد البطش" طويل اصابع الرجلين حتى قيل أنه كان ينزع سكة حديد بخيط يشده في رجله وهو على الدابة وكان يثبت ولا يمس الدابة<sup>(174)</sup>.

ويرى ابن طباطبا أن الوليد قبل الخلافة كان يلهو ويشرب، واستمر هذا الحال بعد توليه الخلافة، بل زاد انهماكه بها. إن سياسته الإنتقامية وإساءته لأهله خاصة أبناء عمومته حيث طرد البعض، وسجن آخرين، خاصة من ناصرُوا هشام ضده، دفعت أقراره لمقاتلته، وكان المتولي لذلك يزيد بن الوليد بن عبد الملك<sup>(175)</sup>.

**يزيد بن الوليد بن عبد الملك** أمه أم ولد اسمها شاه افرید بنت فيروز بنت يزجرد بن شهریار بن كسرى. وسمي يزيد الناقص لأنه انقص زيادة اهل الشام التي زادها الوليد بن يزيد لهم، وردها على ما كانت عليه زمن هشام<sup>(176)</sup>. وهو القائل:

أنا ابن كسرى وأبي مروان                      وقيصر جديّ وجدّ خاقان<sup>(177)</sup>

اتصف يزيد بالفصاحة، كما كان من أهل الورع والصلاح<sup>(178)</sup>. وكان من أبلغ خلفاء بني أمية، وهناك مواقف كثيرة تدلنا على ذلك منها على سبيل المثال، ما بعث به

إلى مروان بن محمد<sup>(\*)</sup> "أما بعد، فأني رأيتك تقدّم رجلاً وتؤخر أخرى فاعتمد على أيهما شئت". فقال له مروان برسالة مماثلة: "أنا على لقاء العساكر أقوى مني على لقاء هذه الكلمات"<sup>(179)</sup>، ثم أذعن ودخل فيما دخل فيه الناس. إن قول مروان يدل على قوته وشجاعته، في حين أنه لا يستطيع مجازاة يزيد في الفصاحة، والأقوال البليغة. وعندما احتج الناس على مقتل الوليد وخاصة "أهل حمص"، خطب يزيد بالناس مبرراً قتله "خرجت غضباً لله ورسوله ودينه. داعياً إلى الله وكتابه وسنة نبيه، لما هدمت معالم الهدى، وأطفئ نور أهل التقوى، وظهر الجبار العنيد، المستحل لكل حرمة، والراكب لكل بدعة، مع أنه والله ما كان يصدق بالكتاب، ولا يؤمن بيوم الحساب، وإنه لابن عمي في الحسب، وكفي في النسب"<sup>(180)</sup> وكان يزيد الناقص قديراً كما ذكر الطبري، حيث كان يذهب إلى قول المعتزلة، وما يذهبون إليه في الأصول الخمسة من (التوحيد والعدل والوعيد والأسماء والأحكام) والقول بالمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والمعتزلة تفضل في الجانب الديني يزيد بن الوليد على عمر بن عبد العزيز<sup>(181)</sup>. وكان يزيد يبتعد عن اللهو والترف، ويكره الغناء، بل يحث دائماً على الابتعاد عنه.

من الملاحظات التي يمكن أن يخلص إليها المرء عند النظر في سيرة أحفاد عبد الملك بن مروان من الخلفاء أن الكتب لم تركز على الحديث عن نشأتهم أو تربيتهم، ربما لأن سلسلة من أبناء عبد الملك حكموا فكان التركيز عليهم، وليس على أبنائهم، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن نشأتهم كانت عادية في كنف القصور الخاصة بالخلفاء، لذا

(\*) مروان بن محمد: آخر خلفاء بني أمية (مروان الحمار).

كان من البديهي أن يحظوا بالرفاهية والترف، ويتوفر لهم كل الإمكانيات. وواحداً من هؤلاء الخلفاء كان إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك وكانت أمه أم ولد وهي تدعى دبرة<sup>(182)</sup>. حتى أن المؤرخين يختلفون في اسم أمه فيذكر اليعقوبي أنها تدعى سعار<sup>(183)</sup>. إنَّ عدم الاهتمام بنشأة إبراهيم هي نتيجة طبيعية كون إبراهيم لم يستمر في الحكم كثيراً، ولم يكن له ذلك الأثر عند المسلمين، حتى أن كتب التاريخ في الأغلب تُترجم لحياته تحت لقب الإمام وليس الخليفة. إضافةً لذلك فإن إبراهيم لم يكن مرشحاً للخلافة وبالتالي لم يكن من المتوقع أن يصبح إبراهيم خليفة، لذا لم يكن هناك اهتمام بنشأته. ويقول العصامي: كان إبراهيم قليل العقل، قليل التدبير<sup>(184)</sup> فانقضت الناس عليه ولم يتم له الأمر ... وروى أن إبراهيم بن الوليد جاء للزهري وعرض عليه كتاباً من علم، فقال إبراهيم للزهري: "أحدث عنك بهذا يا أبا بكر؟ قال: نعم، فمن يحدثكموه غيري"<sup>(185)</sup>.

لقب مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بالحمار. وهذا اللقب الذي كان يشير إلى استمراره في الحرب مع أعدائه، لأنه لم يكن يجف له لبد في مقاتلة أعدائه ومخالفه. وقيل في نفس السياق بأنَّ العرب تسمي كل مائة سنة حماراً فلماً قارب بنو أمية على المئة سنة قالوا: "مروان الحمار". ويقال: فلان أصبر من حمار<sup>(186)</sup>. وكان مروان آخر الخلفاء الأمويين وأمّه أم ولد، وهي من الأكراد، ويقال لها لبابة<sup>(\*)</sup>، وكانت لإبراهيم بن الأشر النخعي أخذها محمد بن مروان يوم قتله ابن الأشر فولدت له مروان، وعبد العزيز ومنصور وأم عبد الملك. ويقال أنها كانت أولاً عند مصعب بن الزبير<sup>(187)</sup>.

(\*) ذكر اليعقوبي في تاريخه أن اسمها "رياً". واكتفت بعض المصادر بالإشارة إلى أنها أم ولد ولم تذكر اسمها.

كان مروان بن محمد مشهوراً بالفروسية والإقدام والرجولة، والدهاء والعسف<sup>(188)</sup>. وكان كثير المروءة، كثير التعجب، يعجبه اللهو والطرب، إلا أن أمور الحرب كانت تشغله<sup>(189)</sup>. وعنه جاء في تاريخ دمشق لابن عساكر: "كان مروان عظيم المروءة والكبر، يحب اللهو والسماع، والنشيد، غير أنه شغل بالحرب، ولم يكن شيء أحب إليه من الحركة والأسفار"<sup>(190)</sup>. وقال عنه أبو جعفر المنصور: "مروان، لله در مروان، ما كان أحزمه وأمرسه وأعفه عن الفية"<sup>(191)</sup>. وقد تأدب مروان على يد الجعد بن درهم، ولقب مروان بالجعدي نسبة إليه<sup>(192)</sup>. ومنه تعلم القول بخلق القرآن والقدر وغير ذلك. وقيل كان الجعد زنديقاً<sup>(\*)</sup>، فكان الناس يذمون مروان بنسبه له<sup>(193)</sup>. كان مروان قد ولي اذربيجان وأرمينية والجزيرة أيام هشام بن عبد الملك، وكان لا يفارق الغزو في سبيل الله وقائل طوائف كثيرة منهم الترك والخزر، فكسروهم وقهرهم، وقد زادت شجاعته وزاد إقدامه نتيجة ذلك<sup>(194)</sup>. وكان لمروان كغيره من الخلفاء مجالس شورى ومؤانسة، فقد جلس يوماً، وقد أحيط به وعلى رأسه خادم له قائم، فقال لبعض من يخاطبه: "ألا ترى ما نحن فيه؟ لهفي على ما ذكرت، ونعم ما شكرت، ودولة ما نصرت". فقال له الخادم: "يا أمير المؤمنين من ترك القليل حتى يكثر، والصغير حتى يكبر، والخفي حتى يظهر، وآخر عمل اليوم لغد، حلّ به أكثر من هذا". فقال: "هذا القول أشد عليّ من فقد الخلافة"<sup>(195)</sup>. إنّ هذه الكلمات أثرت في مروان بن محمد أكثر من فقدته الخلافة حسب

<sup>(\*)</sup> الجعد بن درهم: وحسب ما جاء في الأعلام للزركلي هو من الموالي، مبتدع، له أخبار في الزندقة، سكن الجزيرة الفراتية، وأخذ عنه مروان بن محمد لما ولي الجزيرة أيام هشام. وعنه قال الذهبي: مبتدع ضال، رغم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى، فقتل على ذلك في العراق يوم النحر (عيد الأضحى).

تعبيره، رغم أنه في موقف سابق ذكر ليزيد بن الوليد بأنه غير قادر على صدّ كلماته "كلمات يزيد" بمثلها، ولكنه سيواجه يزيد بالسيف، أي بالطريقة التي يتقنها. والجدير ذكره أنه كان لمروان بن محمد عريف على الشعراء يخبر أشعارهم، فيحسن لمحسنهم، ويرعى مسيئهم<sup>(196)</sup>. وهذا المنصب "عريف الشعراء"، ما هو إلا دليل على اهتمام مروان بالشعر وقد يكون سبب وجود هذا المنصب هو إنشغال مروان بالحرب، فترك لعريف الشعراء حرية التصرف مع الشعراء، وفي ذلك تقدير من مروان للشعر. ويمكن أن نفهمه من وجه آخر، وهو عدم مقدرة مروان على معرفة القول الجيد من الشعر، وترك هذا الأمر لمن يقدرونه، مع أنّ انشغاله بالحرب قد يكون التبرير الأقوى، خاصةً أن لمروان بن محمد شعر جميل، وبالتالي يمكنه ان يميز بين الغث والسمين.

كان مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية، شجاعاً مقداماً، لكنّ إقدامه لم يكن كافياً للوقوف في وجه الزحف العباسي للإستيلاء على الحكم .

كان السفاح "أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أول الخلفاء العباسيين، أمّه هي ريطة الحارثية، وكان مولده ومنشأه بالشرارة في جنوب بلاد الشام، ووصف بالفصاحة والعلم والأدب<sup>(197)</sup>. ففي خطبته الأولى قال:

فإن لم اكن فيكم خطيباً فإنني بسيفي إذا حدّ الوغى لخطيبُ

فَعَجِبَ النَّاسُ مِنْ بِلَاغَتِهِ وَفَصَاحَتِهِ<sup>(198)</sup>. وحسب قوله نشأ السفاح نشأة عربية،

أثرت في شخصيته عندما ولي الخلافة، وكان الغالب عليه أبو الجهم بن عطية الباهلي،

وكان له سُمّار وجلساء منهم أبو بكر الهذلي وخالد بن صفوان وعبد الله بن شبرمة وجبله بن عبد الرحمن الكندي<sup>(199)</sup>، وآخرون.

وكان السفاح يميل إلى السماع والمحادثة، ويستمتع إلى مفاخرات العرب من نزار ويمن والمذاكرت بذلك. هناك أخبار كثيرة لخالد بن صفوان وغيره يتحدث فيها عن مفاخرات ومنادمات ومسامرات مع أبي العباس ذكرها المسعودي في مروج الذهب<sup>(200)</sup>. كما أن السفاح اهتم برواية الأحاديث النبوية، فقد حدّث عن أخيه إبراهيم بن محمد الإمام، وروى عنه عمه عيسى بن علي<sup>(201)</sup>، ولم يكن أحد من الخلفاء يحب مسامرة الرجال مثل أبي العباس السفاح، فكان يكرر قوله: "إنما العجب فيمن يترك أن يزداد علماً ويختار أن يزداد جهلاً"، فقال له أبو بكر الهذلي: "ما تأويل ذلك الكلام يا أمير المؤمنين؟" فقال له السفاح: "يترك مجالسة مثلك وأمثال أصحابك، ويدخل إلى امرأة أو جارية فلا يزال يسمع سخفاً، ويروي نقصاً"، فقال له الهذلي: "لذلك فضلكم الله على العالمين، وجعل منكم خاتم النبيين"<sup>(202)</sup>. ونشير إلى أن السفاح من الخلفاء القلائل الذين قنعوا بزوجة واحدة، ولم يتجه للجواري<sup>(203)</sup>. وتأثر السفاح وغيره من الخلفاء العباسيين بنصائح المقربين، وبالبيئة التي نشأت فيها الخلافة العباسية. فقد ظهر السفاح لندمائه في أول أيام خلافته، ثم احتجب عنهم وكان ذلك بعد سنة من خلافته. وكان قعوده من وراء الستارة بمشورة من أسيد بن عبد الله الخزاعي، وذلك تمثلاً بسيرة أردشير بن بابك وأمّه، حتى أنّ السفاح كان يطرب من وراء الستار، ويصيح بالمطرب له من المغنين ويقول له: "أحسنْتَ والله، أعد هذا الصوت"<sup>(204)</sup>.



ولقب السفاح بهذا اللقب لكثرة سفكه الدماء، إلا أن البعض يرجعه لكرمه وسخائه فقد كان أكرم الناس في المعاشرة، وأسمحهم بالمال<sup>(205)</sup>. وكان حليماً جواداً، وصولاً لذوي أرحامه. فقد حدّث محمد بن علي بن سليمان النوفلي عن جدّه سليمان قال: دخلنا على أبي العباس، وكان عنده جماعة من بني هاشم، فأدنانا حتى أجلسنا معه، ثم قال: "يا بني هاشم! احمداوا الله إذ جعلني فيكم، ولم يجعلني بخيلاً ولا حسوداً"<sup>(206)</sup>. وهنا نعود إلى الوراثة لنقارن بين موقف معاوية ورفع له لمنزلة قريش وصلته بهم، وبين السفاح الذي اعتبر وجوده في الحكم هو نعمة لبني هاشم يجب أن يحمداوا الله عليها، فمعاوية الذي أراد أن تكون قريش عصب حكمه وخلافته، أراد السفاح من بني هاشم أن يكونوا عصبته، كما أنه أراد أن يذكرهم بأنه نعمة بعثها الله لهم. وكان السفاح حريصاً على صلة بني هاشم في حين أن علي بن أبي طالب لم يكن يجامل بني هاشم على حساب غيرهم من المسلمين. وما هذا إلا دليل على كون معاوية والسفاح يتمتعان بحنكة سياسية أكبر من علي، لعلمهما بمدى تأثير أقاربهم على دعم حكمهما، ومدى تأثير العصبية على الحكم. فقد قال سعيد بن مسلم الباهلي: دخل عبد الله بن حسن على السفاح مرة، والمجلس مليء ببني هاشم والشيعية ووجوه الناس، ومعه مصحف، فقال: "يا أمير المؤمنين، أعطنا حقنا الذي جعله الله لنا في هذا المصحف، قال له: إنّ علياً جدك كان خيراً مني وأعدل، ولي هذا الأمر، أفأعطى جدك الحسن والحسين، وكانا خيراً منك، شيئاً؟ وكان الواجب أن أعطيك مثله، فإن كنت فعلت فقد أنصفتك، وإن كنت زدتك فما هذا جزائي منك، فانصرف ولم يحر جواباً، وعجب الناس من جواب السفاح"<sup>(207)</sup> لفطنته. إنّ هذا الموقف لا ينم عن بخل من

السفاح، وإنما عن موقف رجل عربي يرفض الخضوع لأي شخص يريد ابتزازه أمام جلسائه، فهو لم يخضع لآراء عشيرته إن لم توافق آراءه.

وكان السفاح كغيره من العرب ممن يحفظون الشعر ويقولونه ومن شعره في بني

أمية:

تتاولتُ تُأري من أمية عنوة      وحزتُ بثأري اليوم من سلفي قسراً  
وألقيتُ ذلاً من مفارق هاشم      وألبستها عزاً وأعليتها قدراً<sup>(208)</sup>

**ابو جعفر المنصور:** هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، انتمى

لنفس البيئة التي انتمى لها السفاح، فعبد الله من مواليد الحميمة بالشرارة بجنوب بلاد الشام،

أمه سلامة البربرية وهي أم ولد. أدرك المنصور جده ولم يرو عنه ولكنه روى عن أبيه

وعن عطاء بن يسار. تربي المنصور وسط كبار رجال بني هاشم، وصحب جده وأبيه،

فنشأ أديباً فصيحاً، ملماً بسير الملوك والأمراء. وكان فقيهاً وراويماً لحديث الرسول محمد

"ص"<sup>(209)</sup>. كان المنصور حريصاً على طلب العلم، وعلى تتبع سيرة هشام بن عبد الملك

والسؤال عن أعماله<sup>(210)</sup>. ويصفه الزركلي بقوله والمنصور "والد العباسيين جميعاً، وكان

أفلمهم شجاعة وحزماً إلا أنه قتل خلقاً كثيراً حتى استقام له ملكه"<sup>(211)</sup>. ووصفه علي بن

ميسرة الرازي حين رآه سنة 125هـ في مكة بقوله: رأيت أبا جعفر بمكة، "فتى أسمر

رقيق السمرة، موفر اللمة، خفيف اللحية، رطب الجبهة، أفتى الأنف بين القنى، أعين كأن

عينيه لسانان ناطقان تخالطه أبهة الملوك بزى النسائك، تقبله القلوب، وتتبعه العيون،

يعرف الشرف في تواضعه، والعنق في صورته، واللب في مشيته"<sup>(212)</sup>.

وكان أبو جعفر قبل الخلافة يرحل في طلب العلم، فبينما هو يدخل منزلاً من المنازل التي تعقد فيها حلقات العلم قبض عليه صاحب الرصد، فقال له: "زن درهمين قبل أن تدخل"، فقال المنصور: "خلّ عني فإني رجل من بني هاشم، قال: زن درهمين قال: خلّ عني فإني من بني عم رسول الله "ص"، قال: زن درهمين، قال: خلّ عني فإني رجلٌ قارىءٌ لكتاب الله، قال: زن درهمين، قال: خلّ عني فإني رجلٌ عالم بالفقه والفرائض، قال: زن درهمين، فلما أعياه أمره وزنُ الدرهمين، فرجع ولزم جمع المال حتى لقب بأبي الدوانيق"<sup>(213)</sup>. ورغم أن هذه الحادثة كانت قبل خلافته إلا أنه ظلّ محتفظاً بصفة الحرص على المال، لأنّ شيئاً لم يشفع له وقت الضيق سوى ماله وهنا أدرك المنصور أن المال هو من أعمدة السلطة، لذا حرص على إبقاء خزينته ممتلئة لمن بعده.

لما حجّ المنصور التقى بمالك بن أنس في الحج فأدناه منه وتحادثا، فحدّث المنصور عن مضوا من السلف والعلماء، فقال مالك عن المنصور: "وجدته أعلم الناس، بما اجتمعوا عليه، وأعرفهم بما اختلفوا فيه، حافظاً لما روي، واعياً لما سُمع"، ثم قال المنصور لمالك: "يا أبا عبد الله ضع هذا العلم ودوتّه، ودونّ منه كتباً، وتجنب شذائد عبد الله بن عمر ورخص عبد الله بن عباس، وشواذ ابن مسعود، واقصد إلى أواسط الأمور، وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة رضي الله عنهم"<sup>(214)</sup>. إنّ رأي مالك في المنصور يبرهن على سعة علم المنصور، وثقافته العالية. وكان المنصور حريصاً على مصاحبة أهل العلم وحثّ أبناءه على ذلك وقال في ذلك لأحد أبنائه "ولا تجلس مجلساً إلا ومعك من أهل العلم من يحدثك"<sup>(215)</sup>. وللمنصور خطب كثيرة وكلام مشهور تدل على بلاغته في

القول وحكمته في الحياة، ومن كلامه "الملوك تحتل كل شيء إلا ثلاثة خلال: إفشاء السر، والتعرض للحرم، والقدح في الملك"<sup>(216)</sup>. قال إسحاق بن عيسى: "لم يكن أحد من بني العباس يتكلم فيبلغ حاجته على البديهة غير المنصور، وأخيه العباس بن محمد، وعمهما داوود بن علي"<sup>(217)</sup>. إنَّ كون المنصور عارفاً بالفقه والأدب، ومطلعاً على الفلسفة والفلك ومُحباً للعلم والعلماء، فقد كان من أوائل الخلفاء العباسيين الذين عنوا بالعلم. وفي أيامه شرع العرب بطلب علوم اليونان والفرس، وعمل أول اسطرلاب في الإسلام صنعه محمد بن إبراهيم الفزاري<sup>(218)</sup>. أما عن قضاء المنصور ليومه فقد قيل أن المنصور كان يشغله في صدر نهاره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والولايات والعزل، وشحن الثغور والأطراف، وأمن السُّبُل، والنظر في الخراج والنفقات ومصلحة معاش الرعية، والتلطف بسكونهم وهديبهم. وبعد صلاة العصر كان يجلس مع أهل بيته، أما عند صلاة العشاء فيجلس للنظر فيما ورد من كتب الثغور والأطراف والآفاق، ويشاور سماره، فإذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه، وانصرف سماره، فإذا مضى الثلث الثاني من الليل توضأ وقام للصلاة، ويستمر على هذا الحال حتى مطلع الفجر، ثم يخرج فيصلي بالناس، ثم يدخل فيجلس في إيوانه<sup>(219)</sup>.

كان المنصور حريصاً على نصح أبنائه وحثهم على العلم، وكان له دور كبير

في صقل شخصيتهم القيادية، وثقافتهم، وكان المنصور مقلداً في الشعر. ومن شعره:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة      فإن فسّاد الرأي أن تترددا

ولا تمهل الأعداء يوماً بقدرة      وبادرهم أن يملكوا مثلها غداً<sup>(220)</sup>

**المهدي محمد بن المنصور.** ولد بأيدج<sup>(\*)</sup>. أمّه أروى بنت منصور الحميرية. نشأ في بيت الخلافة، حيث كان في العاشرة من عمره عندما تولى والده الخلافة. اهتم المنصور بتتقيفه وتأهيله لولاية العهد، فعهد بتتقيفه وتعليمه إلى المفضل الضبي، حيث قام بتعليمه اللغة، والأدب، والفصاحة، وحبب إليه الشعر، فنشأ المهدي نشأة عربية، ومن خلال مؤدبه مال إلى العلم والأدب، كما عكف على حفظ أيام العرب، ونشأ على مكارم الأخلاق، ودراسة الأخبار والأشعار، فكان فصيحاً بليغاً. علماً أن الضبي جمع الأمثال العربية في كتاب "أمثال العرب"<sup>(221)</sup>.

عمل المنصور على صقل روح المهدي العسكرية عندما بعثه إلى خراسان وطبرستان كقائد للجيش العباسي هناك لإخماد الثورات والفتن فيها، وكان عمره وقتئذ خمسة عشر سنة. وعندما أيقن المنصور أن المهدي قد اكتملت ثقافته العلمية والعسكرية ولاه العهد عام 147هـ، ولم يكتف بهذا القدر، بل استعان به لإدارة شؤون خراسان، ولما عاد من الرّي بنى له ولجنده الرصافة عام 151هـ، ثم جعله أميراً للحج في العام 153هـ<sup>(222)</sup>. كان المهدي راوياً للأحاديث، فقد روى عن أبيه، وعن مبارك بن فضالة. وقال عنه الشيخ شمس الدين: "وما علمت قيل فيه جرحاً ولا تعديلاً"<sup>(223)</sup>. ومنتذكر لقاء المنصور مع مالك بن أنس، حين طلب منه المنصور وضع الكتب، وطلب منه الاستعجال قائلاً: "فتعجل بذلك وَضَعَهَا، فسيأتيك محمد المهدي ابني العام القابل - إن شاء الله - إلى المدينة، ليسمعها منك، فيجداك وقد فرغت من ذلك إن شاء الله"<sup>(224)</sup>. ولما أخذ مالك بتدوين

(\*) إيدج: بلد بين خوزستان وأصبهان، تقع في وسط الجبال، ويقع بها تلج كثير.

كتبه، ووضع علمه قدم عليه المهدي، فسأله عما صنع فيما أمره به المنصور، فأتاه بالكتب وهي كتب الموطأ، فأمر المهدي بنسخها، وقرئت على مالك. فلما أتمَّ قراءتها، أمر له بأربعة آلاف دينار، ولابنه بألف دينار<sup>(225)</sup>. وكان المنصور قد ضمَّ الشرقي بن القطامي إلى المهدي عندما ولاه على الرِّي، وأمره أن يأخذه بحفظ أيام العرب، وحثه على مكارم الأخلاق، وقراءة الأشعار، وكان المهدي يملُّ أحياناً فيطلب من ابن القطامي أن يسرِّي عنه، فقال له ذات ليلة: "يا شرقي أرح قلوبنا بشيء يلهيه"، فقال له: نعم: "أصلح الله الأمير"، وقصَّ عليه حكاية من حكايا ملك الحيرة، وكانت القصة مضحكة حتى ضحك المهدي وفحص برجليه، وبعد انتهاء القصة، قال المهدي للشرقي: "أحسنت". ووصله<sup>(226)</sup>.

وكان من خلق المهدي الحياء، والعفو، والجود والحلم، ولم يكن يشرب النبيذ ولكنه في الوقت نفسه أجازَه لجلسائه وسماره، وذلك بعكس والده المنصور، الذي لم يسمح به لجلسائه. وكان المهدي يتأثر عند قراءة القرآن الكريم<sup>(227)</sup>، وهو أول من أمر بتصنيف كتب الجدل للرد على الزنادقة والملحدین<sup>(228)</sup>. امتاز بالشجاعة حيث قال عن نفسه: "ومالي لا أكون شجاعاً وما خفت أحداً إلا الله"<sup>(229)</sup> وكان شديد الإيمان وما يعزز ذلك ما فعله، عندما هاجت ريحٌ سوداء يوماً، فخاف الناس أن تكون الساعة، فسجد المهدي على التراب، وقال: "اللهم لا تشمت بنا أعدائنا من الأمم، ولا تفجع بنا نبينا، اللهم وإن كنت أخذت العامة بذنبي فهذه ناصيتي بيدك، فما أتمَّ كلامه حتى انجلت"<sup>(230)</sup>.

**موسى الهادي بن المهدي، أمّه هي الخيزران، وهي بربرية<sup>(231)</sup>. وكما كان**

**المهدي ذا ثقافة واسعة، كانت الخيزران كذلك من أهل العلم والرأي<sup>(232)</sup>. وكان للهادي**

عادةً لا يحبها المهدي وهي فتح الفم بشكل دائم، فما كان المهدي إلا أن ولّى خادماً للهادي، كلما رآه مفتوح الفم، قال له: "موسى أطبق". فيفيق على نفسه، ويطبق شفثيه<sup>(233)</sup> لذا اشتهر بـ "موسى أطبق". ونشأ الهادي في جو محب للعلم والعلماء، فشب كثير الأدب، مُحباً له<sup>(234)</sup> وكان أديباً، تعلوه الهيبة<sup>(235)</sup>. ومما يدل على فصاحته ما جاء في رواية الحراني، حيث قال: أمر الهادي بإدخال الناس عليه، عند جلوسه للمظالم، قائلاً للحراني: "أئذن للناس عليّ بالجفلى لا بالنقري"، فخرج الحراني وهو عاجز عن فهم قول الهادي، وخشي الحراني من مراجعة الهادي، فبعث الحراني لأعرابي كان قد وفد على الهادي، فسأله الحراني عن الجفلى والنقري، فقال: الجفلى جفالهم، والنقر ينقر خواصهم<sup>(236)</sup>. فأمر الحراني بالستور فرفعت، ودخل الناس أفواجا، وظل الهادي ينظر في المظالم إلى الليل، فلما تقوَّض المجلس مثل الحراني بين يدي الهادي، فقال له الهادي: "كأنك تريد أن تذكر شيئاً، يا علي"، فقال الحراني: "نعم يا أمير المؤمنين، كلمتني بكلام لم أسمعته قبل يومي هذا، وخفت مراجعتك، فنقول: "أتحجبنى وأنت لم تعلم كلامي!" فبعثت إلى أعرابي كان عندنا ففسر لي الكلام، فكافئته عني يا أمير المؤمنين. فقال: "نعم، مائة ألف درهم تحمل إليه"، فقال له الحراني: "يا أمير المؤمنين، إنّه أعرابي جلف، وفي عشرة آلاف درهم ما أغناه وكفاه، فقال الهادي: "ويلك يا علي! أجود وتبخل"<sup>(237)</sup>. إن هذه القصة تعطينا انطباعاً جيداً عن شخصية الهادي، الذي كان يكرس يومه لاستقبال من يحمل الشكاوي من الناس (سواء العامة منهم أم الخاصة)، إضافة لذلك فهو لم يترفع عن مقابلة الناس مهما كان مستواهم الاجتماعي، كما ان عدم فهم الحراني لكلمات الهادي، لا تدلنا

إلا على فصاحة الهادي، وتربيته العربية، وثقافته الواسعة في اللغة العربية وقد نلاحظ أن شخصية الهادي كانت مهابة. كما أن هذه القصة تؤكد على كرم الهادي.

ولعل ما قيل في خروج الهادي يوماً لعيادة أمه المريضة "الخيران"، ورجوعه إلى دار المظالم وذلك بعد أن نصحه الربيع بن بزيع العودة والنظر في المظالم فقد نصحه قائلاً: "ألا أدلك على ما هو أنفع لك من هذا! انظر في المظالم"، فما كان من الهادي إلا أن رجع إلى المظالم، وأذن للناس، وأرسل إلى أمه يتعرّف أخبارها<sup>(238)</sup>. وقال لرسوله إلى أمه: "قل لها إن عمر بن بزيع أخبرنا من حقّ الله بما هو أوجب علينا من حقك، فملنا إليه ونحن عائدون إليك في غد إنشاء الله"<sup>(239)</sup>.

وتصف كتب التاريخ الهادي بقسوة القلب، وشراسة الأخلاق وبأنه كان صعب المراس<sup>(240)</sup>. وربما ما يذكر في كتب التاريخ عن طباع الهادي تعود لما قام به من تنكيل بالعلويين، وتمثيله بالأمويين والخوارج والزنادقة. وكان قد أخذ أكثرهم على الظنة والريبة<sup>(241)</sup>. في نفس الوقت هناك أمثلة كثيرة تدل على عفو الهادي وسماحته، بل ومنحه الفرصة لمن يريد إيقاع العقوبة بهم، وهذا بالطبع انطبق على رجال بلاطه. ومن أمثلة ذلك ما رواه ابن مالك<sup>(\*)</sup> عن الهادي، فعندما تولى الخلافة بعث الخليفة في طلبه، حتى أنه يقول في روايته عند دخوله على الهادي: "فدخلت عليه متكفناً متحنطاً، وإذا به على كرسي، والسيف والنطع بين يديه، فسلمت، فقال: لا سلّم الله على الآخر! تذكر يوم بعثت إليك في أمر الحراني، وما أمر به أمير المؤمنين من ضربه وحبسه فلم تجبني، وفي

(\*) عبد الله بن مالك: كان صاحب الشرطة في عهد المهدي والهادي.



فلان، وفلان ...، وجعل يعدد ندماءه. فلم تلتفت إلى قولي، ولا أمري؟ فقال له ابن مالك: نعم يا أمير المؤمنين، أفتأذن لي في استيفاء الحجة؟ قال: "نعم"، فقال ابن مالك: "ناشدتك بالله يا أمير المؤمنين، أيسرك أنك وليتني ما ولاني أبوك، فأمرتني بأمر، فبعث إليّ بعض بنيك بأمر يخالف أمرك، فاتبعت أمره وعصيتُ أمرك؟ قال: "لا"، فقال ابن مالك: كذلك أنا لك، وكذا كنت لأبيك". فاستدناه الهادي فقبل يده، وأمر الهادي بخلع له، وقال الهادي له: "قد وليتك ما كنت تتولاه، فأمض راشداً"<sup>(242)</sup>. وخرج ابن مالك من عند الهادي، وخاف أن يُغير الهادي رأيه، وقال في نفسه حسب ما يروي "حدثُ يشرب، والقوم الذين عصيته في أمرهم ندماءه، ووزراؤه، وكتّابه، فكأنني بهم حين يغلب عليهم الشراب قد أزالوا رأيه فيّ، وحملوه من أمري ما كنت أكره وأتخوّفه". فذهب إلى بيته فسمع وهو جالسٌ مع ابنته صوت خيل وضوضاء، وإذا بالهادي يلحق به، حيث أقبل عليه بخيله مع مرافقيه، وكان الهادي يتوسط خدمه، ولما فتح ابن مالك الباب دخل الهادي على حماره، فقبل عبد الله بن مالك يده، وقبل حافر حمار الخليفة، فجلس الهادي مع ابن مالك، وقال له: "فكرت في أمرك، فقلت يسبق إلى قلبك أني إذا شربت، وحولي أعداؤك، أزالوا ما حسُن من رأيي فيك، فأقلقتك وأوحشتك، فصرتُ إلى منزلك لأؤنسك وأعلمك أن السخيمة<sup>(\*)</sup> قد زالت عن قلبي لك، فهات، فأطعمني مما كنت تأكل، وافعل فيه ما كنت تفعل، لتعلم أني تحرّمت بطعامك، وأنستُ بمنزلك، فيزول خوفك، ووحشتك. فأدنى ابن مالك منه الرقاق والسكرجة

(\*) السخيمة: الحقد، الغضب.

التي فيها الكامخ، فأكل الهادي منها ثم قال: "هاتوا الزلّة(\*) التي أزللتها لعبد الله من مجلسي، فأدخل له 400 بغل موقرة دراهم. وقال هذه زلّتك، فاستعن فيها على أمرك، واحفظ لي هذه البغال عندك، لعلني أحتاج إليها يوماً لبعض أسفاري. ثم قال: "أظنك الله بخير، وانصرف راجعاً"<sup>(243)</sup>. إنّ هذه الرواية تعطينا الكثير من التفاصيل عن شخصية الهادي الذي كان يشرب الخمر، مع أن والده المهدي كان يمنعه ويحاول إبعاده عن رفاق السوء الذين يشربون الخمر، والذين لاحقاً أصبحوا أعوان الهادي أثناء خلافته. من جهة أخرى فهذه القصة تدل على مدى التبذير الذي امتاز به خلفاء المنصور مثل المهدي والمأمون، وما الهادي إلا مثلاً لعدم اكتراث الخلفاء العباسيين بضرورة الحفاظ على أموال الدولة بالعكس مما كان يفعل جده المنصور. وقد وصفه الذهبي بقوله: "وكان الهادي يتناول المسكر، ويلعب، ويركب حماراً فارهاً، ولا يقيم أبهة الخلافة ... وله سطوة وشهامة"<sup>(244)</sup>.

واتهم كثير من المؤرخين الهادي بأنه أضاع أبهة الخلافة، مع أن هذا الموقف لو صدر من خليفة مثل الرشيد لاعتبر تواضعاً. فقد كان نهجه مخالفاً لنهج الخلفاء من قبله فقد منع الناس من الدخول على الخلفاء، حتى وصل الأمر لعدم سماع نداء إلا من وراء حجاب. وربما يعود اتهامه بضياع ابهة الخلافة إلى ركوبه حماراً بشكل دائم ولم يركب الخيل، مع إنّ ذلك يجب ان لا يعتبر انتقاصاً من ابهة الخلافة. وفي فترة لاحقة امتنع الهادي عن ركوب الحمار بسبب حادثة حصلت معه، فقد كان يوماً ببستان له في بغداد،

(\*) الزلّة: الاسم من زلّ - والوليمة - والخطبة - العرس والضيعة والسقطة - اسم ما تحمله من مائدة صديقك أو قريبك ويقال: "من دنانيرك زلّ ومنها وزن" أي منها ناقصة بالوزن ومنها تامة الوزن.

وهو يركب على حمار، فأخبره جنده بأنهم قد ظفروا برجل من الخوارج، فأمرهم الهادي بإدخاله فلما اقترب منه الخارجي، أخذ سيفاً من بعض الحرس، وأقبل يريد قتله، ففتح الحرس عنه خوفاً، وبقي الهادي وحده بمواجهة الخارجي، ولم يتحرك، وظل واقفاً على حماره، فلما اقترب الخارجي منه، صاح الهادي: "اضربا عنقه" ولم يكن وراءه أحد، ليوهمه بوجود حرس خلفه، فالتفت الخارجي لينظر، فقفز عليه الهادي وصرعه، ثم أخذ السيف من يده وضرب عنقه. فخاف الحرس من الهادي لأنهم تركوه وحده في مواجهة الخارجي. ولكنَّ الهادي لم يراجع حراسه فيما حدث، فقال من معه: "قوالله ما أنكر علينا تحينا ولا عدلنا على ذلك"<sup>(245)</sup>. و بعد هذه الحادثة لم يركب حماراً، ولم يفارقه سيفه.

إن ما ذكر عن شراسة أخلاقه تتنافى مع عدم معاتبته لحرسه، وكان من الأجدر به أن يعاقب حرسه ومرافقيه ممن تخاذلوا عن نصرته. لعل ما ذكره المسعودي عن شراسة طبع الهادي تعود لكون المسعودي شيعيَّ الهوى. أما الثابت عن الهادي بأنَّ شجاعته وشدته على أعدائه تعود لتربيته العربية وقضائه أكثر أيامه في الحروب والغزو<sup>(246)</sup>. وتشير الكتب التاريخية إلى أن الهادي اختلف عن أبيه المهدي في "معاملته للناس"، وفي هذا يقول يوسف العشي: فقد كان طبعه مختلفاً عن طبع والده، فقد كان والده لين الجانب محبباً إلى الناس، أما هو فكان شرساً في معاملته جريئاً قاسياً شديداً، ولا يهتم بالناس ولا بما يقولون عنه. وكانت سياسته متمشية مع أخلاقه وطبعه. وخالف سياسة والده في تأليف قلوب آل علي، فنتبهم وقسا عليهم، وقطع عنهم الصلات والعتاء وجفاهم، فجفاهم عماله أيضاً<sup>(247)</sup>.

إنّ المنتبغ لأمر الهادي فيما يرويه الطبري يجد أنه على عكس ذلك، فقد ذكر محمد بن عبد الله بن يعقوب بن داوود أنّ الهادي أمر علي بن عيسى بن ماهان بضرب يعقوب بن داوود مئة سوط، فدخل علي بن داوود، وكان يمسّ ابن داوود مساً حتى عدّ للمئة، ثم خرج، فقال له الهادي: "ما صنعت بالرجل؟ قال: صنعت ما أمرت به". قال: فما حاله؟ قال: "مات". قال: "إنا لله وإنا إليه راجعون! ويلك! فضحتني والله عند الناس، هذا رجلٌ صالح، يقول الناس: قتل يعقوب بن داوود؟ قال: فلما رأى شدة جزعه، قال: هو حيٌّ يا أمير المؤمنين لم يمت، قال: الحمد لله على ذلك"<sup>(248)</sup>. إذا الهادي كان يهتم بأمر الناس ويحسب لهم حساباً، ولولا ذلك لما قال لعلي "فضحتني والله عند الناس؟" حتى عندما تمّ قتل الحسين بن علي بن الحسين وهو المقتول بفخ<sup>(\*)</sup>، جيء برأسه إلى الهادي، وأظهر الذين أتوا برأسه الاستبشار، فبكى الهادي وزجرهم، وقال: "أتيتموني مستبشرين كأنكم أتيتموني برأس رجل من الترك أو الديلم، إنه رجلٌ من عترة رسول الله "ص"، ألاّ إنّ أقلّ جزائكم عندي ألاّ أتيتكم شيئاً"<sup>(249)</sup>. كما أن قوله لحاجبه الفضل بن الربيع يوماً: "لا تحجب عني الناس فإن ذلك يزيل عني البركة، ولا تلق إليّ أمراً إذا كشفته أصبته باطلاً، فإن ذلك يوقع الملك، ويضر بالرعية"<sup>(250)</sup>. إنّ ما قيل عن سوء تصرف الهادي يعود إلى تأثير المؤرخين بالخلاف بينه وبين الرشيد، ومحاولة الهادي خلع أخيه الرشيد من ولاية العهد. ولربما إنّ محاولة تشويه صورة الهادي كانت محاولة من قبل المؤرخين لكسب ود

<sup>(\*)</sup> فخ: هو واد بمكة، ويوم فخ كان أبو عبد الله الحسين بن علي بن الحسن بن علي خرج يدعو إلى نفسه عام 169هـ وبابعه جماعة من العلويين، فلما كان بفخ لقيته جيوش العباسيين بقيادة العباس بن محمد بن علي، وأعطوه الأمان ويقال بأن مباركاً التركي شقه بسهم فمات وحمل رأسه للهادي.

الرشيد. فالرواية التي ذكرها يحيى بن الحسين بن عبد الخالق عن أبيه، ورؤيته للهادي "وببده قناة لا يدرك أحداً إلا طعنه"<sup>(251)</sup>، في عيساباذ وهو خليفة، دون إعطاء الأسباب لذلك، تجعل الإنسان يفكر ملياً قبل أن يصدر الأحكام على الهادي. فهل كان يفعل ذلك نتيجة سكره الشديد مثلاً، أم أنه كان متعطشاً للدماء، أم أنه كان مريضاً نفسياً أم أن سيرة الهادي تعرضت لكثير من التشويه على يد من قتلوه!.

ربما يعود سبب تشويه سمعة الهادي إلى عدم إجلاله لعدد كبير من العلماء والمؤرخين في عصره، إنه كان حريصاً على الجلوس مع عيسى بن دأب، وكان محباً لسماع العلم منه. وكان عيسى من أهل الحجاز ومن أكثر أهل عصره علماً وأدباً ومعرفة بأخبار الناس وأيامهم. وكان الهادي يُجله ويحترمه ويدعو له بما يتكئء عليه عند جلوسه، ولم يكن غيره يطمع منه في ذلك. وكان يقول له: "يا عيسى ما استطلت بك يوماً ولا ليلة، ولا غبت عني إلا ما ظننتُ أني لا أرى غيرك"<sup>(252)</sup>. في مقابل ذلك كان الرشيد يجلس كل العلماء في زمانه، ويعاملهم بمنتهى الاحترام.

**هارون الرشيد:** هو شقيق الهادي، ونشأ بنفس البيئة التي نشأ بها الهادي، فهو ابن الخيزران، ولد بالرّي، وأرضعته زينب بنت منير أم الفضل بن يحيى البرمكي، فأرضعت الرشيد بلبان الفضل، وأرضعت الخيزران الفضل بلبان الرشيد<sup>(253)</sup>. وعن ذلك قال يحيى بن برمك: "وكان الرشيد دُفع إلينا مولوداً في الخرقّة، فغذته ثديّ نساننا، ورُبّي في حجورنا"<sup>(254)</sup>. وكان يحيى بن خالد البرمكي من أشهر رجال عصره علماً وأدباً وفضلاً وجوداً، ونبلاً ولهذه الصفات اختاره المهدي كاتباً ونائباً لابنه هارون، وكان كاتباً لبيباً

بليغاً، أديباً سديداً، صائب الآراء، حسن التدبير، ضابطاً لما تحت يده، قوياً على الأمور جواداً يباري الريح بالكرم والجود، كما عرف بالعفة<sup>(255)</sup>. وجاء في كتاب الإمامة والسياسة أن أبا جعفر المنصور قال للمهدي عندما رأى الرشيد وقد ترعرع في أول رؤية رآه فيها: "إنَّ هذا الأعين<sup>(\*)</sup> سيلي هذا الأمر، ويسير فيه سيرة صالحه، فقال المهدي: يا أبت، أتظن ذلك؟ فقال المنصور: ما هو بالظن، ولكنه يقين، ويكون ملكاً بضعاً وعشرين سنة، وتقتله الحمى الربيع<sup>(256)</sup>". وكان الرشيد قد تعلم على يد كبار الأساتذة مثل الكسائي وأبي يوسف القاضي، ومحمد بن الحسن الشيباني، وغيرهم<sup>(257)</sup>. ولما كانت سنة 174هـ خرج هارون الرشيد حاجاً إلى مكة فقدم المدينة زائراً قبر النبي "ص"، فبعث إلى مالك بن أنس، فسمع منه كتاب الموطأ، وحضر مجلسه فقهاء الحجاز والعراق والشام واليمن، ولم يتخلف منهم أحد إلا حضر ذلك الموسم مع الرشيد وكان قارئ الموطأ يومئذ حبيب كاتب الرشيد. وبعد الانتهاء من قراءة الموطأ، سألهم الرشيد: "هل انكرتم شيئاً من هذا العلم؟ فقالوا: ما أنكرنا شيئاً إلا ما ذكر من أمر الدماء والتدمية في القتل؟"<sup>(258)</sup> وطلب الرشيد من مالك بن أنس أن يبين دعواه قائلاً لمالك: "أوضح لهم حجتك في ذلك وأنا معك عليهم، فإنني لا أعلم بعد أمير المؤمنين أحداً أعلم منك"<sup>(259)</sup>. وأوضح مالك حجته أمام الرشيد، إن الرشيد في جملته الأخيرة "لا أعلم بعد أمير المؤمنين أحداً أعلم منك" إن هذه الجملة تشير بوضوح إلى أن الرشيد وضع نفسه بمنزلة علمية أعلى من منزلة مالك بن أنس، مع أن الرشيد كان يتواضع للعلماء ويحترمهم إلا أنه أمام هذا الحشد من الفقهاء والعلماء أراد أن

(\*) الأعين: الذي عظم سواد عينه في سعة.

يعزز هيئته كخليفة، حتى أنّ هذه المعاملة الخاصة للعلماء وتواضعه اكسبته محبتهم وعززت شهرته التي لم يصل لها أحد من الخلفاء قبله، فقد كان الرشيد يأتي بنفسه إلى بيت الفضيل بن عياض<sup>(\*)</sup>، وكان الفضيل بمكة، فمرّ به هارون الرشيد، فقال الفضيل لمن معه: "الناس يكرهون هذا، وما في الأرض أعزّ عليّ منه، لو مات لرأيت أموراً عظيماً"<sup>(260)</sup>. فهو كعالم يحب ويحترم الرشيد، في حين يتضح لنا من خلال كلام الفضيل بأن الناس يكرهون الرشيد ولا نعرف ما سبب هذا الكره. لان كتب التاريخ تصف لنا الرشيد بأنه "من أميز الخلفاء وأجلّ ملوك الدنيا"، وبأنه كان يصلي في اليوم مائة ركعة إلى أن مات، ويتصدق من صلب ماله بألف درهم، وكان محبباً لأهل العلم، وبأنه كان يعظم حرّمات الله<sup>(261)</sup>. فما هو الشيء الذي فعله الرشيد كي يكرهه الناس؟ وكان الرشيد يخرج متتكرراً لحضور مجالس العلم ببغداد. فقد ذكّر "أن الرشيد كان كثيراً ما يتلثم ويحضر مجالس العلماء بالعراق وهو لا يُعرَف"<sup>(262)</sup>. فهل كان يفعل ذلك لأنه أراد أن يحصل على العلم كأبي طالب علم، وهل كان يفعل ذلك من باب التواضع، أم من باب أن العلم يؤتى ولا يأتي!.

إنّ ما هو واضح أنّ الرشيد عامل أهل العلم بطريقة خاصة حتى أنه لما مات ابن المبارك جلس للعزاء وأمر الناس أن يعزوه<sup>(263)</sup>. "وكان حريصاً على أن يحج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحجّ أحجّ ثلاثمئة رجل بالنفقة السابعة والكسوة الباهرة. وكان حريصاً على تتبع سيرة المنصور، ويعمل بها إلا في بذل المال، فإنه وحسب ما قاله

(\*) أحد فقهاء مكة في العصر العباسي.

المؤرخون لم ير خليفة قبله كان أعطى منه للمال، وكان لا يضيع عنده إحسان محسن، ولا يؤخر ذلك في أول ما يجب ثوابه»<sup>(264)</sup>.

ومن الجدير ذكره أنّ المهدي كان حريصاً على تربية أبنائه تربية عسكرية، ولا نجد أن الكتب تتحدث عن شراسة طباع الرشيد، كما تحدثت عن شراسة طباع الهادي، مع أنّ المهدي بعث الرشيد في سن الثانية عشرة قائداً للجيش المتوجه إلى الجبهة البيزنطية. وألقى به أبوه في خضم الأحداث بتوليته أمر الصائفة عام 163هـ وولاه المغرب كله، وفي هذه الفترة كان يحيى البرمكي نائباً له يساعده بالقيام بأعباء هذا الأمر. وجرت معركة هرقله بقيادته، وتولى عام 166هـ ولاية العهد بعد الهادي<sup>(265)</sup>. وهناك من ذكر بأنّ المهدي أراد العدول عن ولاية العهد للهادي لأنه أراد تولية الرشيد بعده مباشرة، وترجع كتب التاريخ السبب في ذلك إلى كون أم الرشيد الخيزران كانت تحبه وتؤثره على أخيه الهادي، كذلك فإن ما عُرف به الرشيد من نكاه وفصاحة وكفاية رفعت رصيده عند أمه وعند الآخرين، إلا أن المهدي لم يقيم بذلك لأنّ منيته حالت دون هذا الأمر<sup>(266)</sup>. من الواضح أن المهدي كان يحاول منع الهادي من شرب الخمر، والابتعاد عن اللهو، في حين يظهر المهدي في حياة الرشيد الناصح الدائم له بالمزيد من العمل والجد فقد وصّاه يوماً قائلاً له: "سَمّر واجتهد وجدّ، وخذ بالحزم والكرم"<sup>(267)</sup>. أن الرشيد قد أخذ بهذه النصيحة وبغيرها من نصائح والده، وعمل بها. وكان الرشيد قد قسّم الأيام والليالي إلى سبع، لكل يوم وليلة شأن خاص عنده، فليلة لوزرائه يذاكرهم أمور الناس، ويشاورهم في الأمور الهامة. وليلة للكتاب يحمل عليهم الدواوين ويحاسبهم عما لزم من أموال المسلمين،



ويرتب ما ظهر من الأمور التي تعنى بصالح المسلمين. وليلة للقواد وأمراء الأخبار يذاكرهم أمر الأمصار، ويسألهم عن الأخبار، ويوقفهم على ما تبين له من صلاح الكور، وسد الثغور. وليلة للعلماء والفقهاء يذاكرهم العلم، ويدارسهم الفقه، وليلة للقراء والعباد يتصفح وجوههم، ويتعظ برويتهم، ويستمتع لوعظهم ويرقق قلبه بكلامهم. وليلة لنسائه وأهله ولذاته، يتلذذ بدنياه، ويأنس بنسائه. وليلة يخلو بنفسه لا يعلم أحد قرب أو بعد ما يصنع. ويكمل الدينوري هذه الرواية بقوله: "ولا شك أنه يخلو فيها برّبّه يسأله خلاص نفسه، وفكاك رقه"<sup>(268)</sup>.

إنّ الرشيد لم يكن الخليفة الأول الذي تذكر لنا المصادر أنه قسم الأسبوع على هذا النحو، فقد ذكرت هذه المصادر أن معاوية والمنصور قد قسموا يومهم إلى ما قسمه الرشيد، وكغيره من الخلفاء العظام، فعند الحديث عنه يظهر تحيز المؤرخين له ومن أمثلة ذلك ما يذكره الذهبي فيقول: "أخبار الرشيد يطول شرحها، ومحاسنه جمّة، وله أخبار في اللهو واللذات المحظورة والغناء، سامحه الله!"<sup>(269)</sup>. إن عدم التفصيل في هذه الأمور، والدعاء له بالغفران تشير إلى مدى تحيزهم له، وقد لعبوا دوراً مهماً في تحسين صورته، وإظهاره بالخليفة العظيم، فغيره من الخلفاء نعت بالفسق كونهم سمعوا الأغاني وكان لهم أخبار في اللهو، لا أحد ينكر أن عهد الرشيد شهد كثيراً من التقدم والازدهار في الحياة العلمية والاقتصادية، ولذلك اعتبرت فترته من العصور الذهبية في التاريخ الإسلامي.

يشير الجاحظ إلى أن ما ساعد الرشيد على نيل شهرة عظيمة هو اجتماع أمور كثيرة له لم تجتمع لغيره من الخلفاء مثل: "وزراؤه البرامكة، وقاضيه أبو يوسف، وشاعره

مروان بن أبي حفصة، ونديمه العباس بن محمد عمّ أبيه وحاجبه الفضل بن الربيع أتية الناس وأعظمهم، ومغنيّه إبراهيم الموصلي، وزوجته زبيدة<sup>(270)</sup>. إن الحكم على فترة الرشيد بهذه الصورة كان بفضل الأعلام التي كتبت عنه وله، ولا شك أن الرشيد خليفة له مكانته لكنه ليس بأفضل من المنصور والمهدي ومع ذلك حظي بمدح مبالغ فيه وتحاول المصادر إظهار مناقبه خاصة ما يتعلق بالجانب الديني والتركيز عليها، ومن ذلك ما ذكر عن حجه ماشياً. ففي عام 179هـ، اعتمر الرشيد في رمضان ودام على إحرامه إلى أن حجّ، ومشى من مكة إلى عرفات<sup>(271)</sup>.

ومما يحسب للرشيد ميله إلى أهل الأدب والفقهاء، وكرهه المرء في الدين. فقد كان يقول هو شيء لا نتيجة له، وبالحرى أن لا يكون فيه ثواب<sup>(272)</sup>. وعرف عن الرشيد كثرة بكائه عند الوعظ، والتذكير بيوم القيامة. فقد قال ابن السمال له مرة: "تواضعك في شرفك أشرف من شرفك"<sup>(273)</sup>، ثمّ وعظه فأبكاها، كما قال منصور بن عمّار: "ما رأيت أغزر دمعاً عند التذكير من ثلاثة" وذكر من بينهم الرشيد<sup>(274)</sup>. إن هذا الحرص على إظهار شخصية الرشيد القريبة من الدين والحفاظ على عدم المساس بهيئته قد رفعت رصيده عند المؤرخين. وهذا الحرص نلمسه من قصص الرشيد مع ندمائيه، وكان من بينهم ابن أبي مريم الذي كان ينادم الرشيد ويضحكه، وكان عنده فضيلة بأخبار الحجاز وغيرها. وكان الرشيد قد حرص على إنزاله في قصره، ونبهه الرشيد إلى صلاة الصبح يوماً، فقام وتوضأ، وأدرك الرشيد وهو يقرأ: "ومالي لا أعبد الذي فطرني" فقال ابن أبي مريم: "لا أدري والله". فضحك الرشيد وقطع الصلاة، ثم أقبل عليه قائلاً: "ويحك اجتنب

الصلاة والقرآن، وقل فيما عدا ذلك<sup>(275)</sup>، وبالتالي فقد وضع الرشيد حدوداً لندمائه، عليهم عدم تجاوزها وخاصة فيما تعلق بأمر الدين.

إلى جانب ذلك فإن المصادر ذكرت الكثير من القصص والحكايات التي تشير إلى تمتع الرشيد بالحياة، ولعبه ولهوه فقد ذكرت زوجته زبيدة لابنه المأمون ذات مرة أنها: "لعبت يوماً مع أبيك بالشطرنج على شرط فغلبنني، فجردني من ثيابي وطاف بي القصر وأنا عريانة"<sup>(276)</sup>. ولكن المصادر كانت تمر عما كان يحدث في قصر الرشيد من لهو وغناء باستحياء.

كان الرشيد أباً حريصاً على تعليم أبنائه، ومع ذلك فقد ظهرت في عهد أبنائه حرباً ضروساً بين المسلمين بسبب تقسيمه للدولة بينهم، وإعطائه الخلافة للأمين كونه ابن زبيدة، ولأن العرب كانوا يفضلونه على أخيه المأمون.

كان مولد محمد الأمين بالرصافة، اهتم الرشيد به اهتماماً بالغاً، فكان يبعث به مع أخيه عبد الله "المأمون إلى الفقهاء والمحدثين، فيسمعان منهم، ويحضر لهما أهل الكلام والنظر. كما كلف علي بن حمزة الكسائي والمفضل العنبي بتعليمه. وكان الرشيد حريصاً على حضور أبنائه المناظرات اللغوية والأدبية<sup>(277)</sup>". وأسند عن إسماعيل بن أبي محمد الزيدي أنه قال: "كان أبي يكلم الأمين والمأمون بكلام يتفصحن به، ويقول: كان أولاد الخلفاء من بني أمية يخرج بهم إلى البدو حتى يتفصحو، وأنتم أولى بالفصاحة منهم"<sup>(278)</sup>. وكان من بين الذين أدبوا الأمين يحيى بن المبارك اليزيدي، والأحمر النحوي، وفي ذلك يقول الأحمر: "وكننت كثيراً ما أشد عليه في التأديب، وأمنعه الساعات التي

يتفرغ فيها للعب"، فشكا الأمين ذلك إلى خالصة جارية زبيدة، فجاءت خالصة برسالة من زبيدة للأحمر النحوي تطلب منه فيها أن يجعل للأمين وقتاً يلهو فيه، فقال لها الأحمر: "إن أمير المؤمنين في عظم قدره لا يحتمل عليّ التقصير، ولا يرضى منه بالزلل في المنطق، والجهل بشرائع الدين والسنن، والغفلة عن الأمور التي فيها قوام السلطان وأحكام سياسة الرعية"<sup>(279)</sup>. وبررت خالصة موقف زبيدة بأنها أم وتخاف على ابنها. إن ما سبق يظهر لنا مدى الضغط الواقع على الأمين، فالرشيد كان يريد تأهيل ابنه لولاية العهد، وكان يريد أن يكون عالماً وفقياً وأديباً، لكي يصلح لولاية العهد. إن هذا الضغط ربما كان بسبب معرفة الرشيد بميل ابنه للهو والترف حيث ظهر هذا بشكل واضح خلال حديثه مع الأصمعي حيث قال عنه: "إن محمد يميل له بنو هاشم وفيه ما فيه من الانقياد لهواه، والتصرف مع طويته، والتدبر لما حوته يده، ومشاركة النساء والإماء في رأيه"<sup>(280)</sup> لذا أمر مؤدبه بإتباع سياسة الشدة معه بالقول: "ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتتم فيها فائدة تفيده إياها، من غير أن تحرق به فتميت ذهنه، ولا تمنع في مسامحته، فيستحلي الفراغ ويألفه، وقومّه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدّة والغلظة"<sup>(281)</sup>. في حين كانت والدته قد لعبت دوراً معاكساً حيث لعبت دوراً في التخفيف عن ابنها.

كان محمد الأمين ذكياً، ويشهد له أبو الحسن الأحمر بذلك فيقول: "كنت ربما نسيتُ البيت الذي يستشهد به في النحو، فينشدنيهِ الأمين، وما رأيت في أولاد الملوك أذكى منه ومن المأمون"<sup>(282)</sup>. ويرى الصوّلي أن نظم الأمين للشعر هو أحسن من نظم أخيه

وأبيه حيث قال مخاطباً المأمون، وذلك بعدما سمع أن المأمون يعدد مثالبه، ويتفاخر عليه، بل يفضل نفسه على الأمين فرد عليه قائلاً:

والفخر يكمل للفتى المتكامل	لا تفخرنَّ عليك بعد بقية
ما ربع فإنك لست بالمتناول	وإذا تطاولت الرجال بفضلها
تلقى خلاف هواك عند مرآجل	أعطاك ربك ما هويت، وإنما
ما لست من بعدي إليه بواصل	تعلو المنابر كل يوم أملاً
وتعيدُ في حقي مقال الباطل <sup>(283)</sup>	فتعيبُ من يعلو عليك بفضلها

وعرف الأمين بأدبه، فقد وصفه الحسين بن الضحاك، بأنه كثير الأدب فقيل له: فالفقه، فإن المأمون كان فقيهاً؟ فقال: ما سمعت فقيهاً ولا حديثاً إلا مرة واحدة، فإنه نُعيَ إليه غلام له بمكة فقال: حدثني أبي عن أبيه عن المنصور عن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه. قال: سمعت النبي "ص" يقول: "من مات مُحرمًا حُشرَ ملبيياً"<sup>(284)</sup>. وامتاز الأمين إلى جانب أدبه بشجاعته وبطشه وقوته. فقد وصفه السيوطي بقوله: "كان من أحسن الشباب صورة...، ذا قوة مفرطة وبطش وشجاعة معروفة، ويقال: أنه قتل مرة أسداً بيده"<sup>(285)</sup>. ويذكر المسعودي الكثير من الأمثلة على شجاعة الأمين ومنها خروجه لاصطياد السباع، فذات يوم جيء بقفص من خشب فيه سبع للأمين، ووضع القفص في صحن القصر، فأمر الأمين بفتح باب القفص على السبع، فقالوا له: "يا امير المؤمنين إنه سبع أسود له شعر عظيم مثل الثور". فزأر السبع وضرب بذنبه إلى الأرض فتهارب الناس، وغُلقت الأبواب في وجهه، ولكن الأمين لم يكثرث بالأمر، وبقي جالساً في مكانه،

فتوجه السبع له، فلما دنا السبع منه، أخذ الأمين مرفقه أرمينية، وامتنع بها من السبع، وقبض الأمين على ذنب السبع وهزه، ودفع به إلى الخلف، فوقع السبع ميتاً، فأسرع الموجودون إلى الأمين، وإذا بأصابع يده ومفاصلها قد زالت عن مواضعها، فأتوا له بمجبر، فردّ العظام إلى موضعها، وجلس الأمين وكأنه لم يفعل شيئاً، وقيل بأنهم شقوا بطن الأسد، فإذا بمرارته قد انشقت عن كبده<sup>(286)</sup>.

إن ما عُرِف عن الأمين من لهو وترف، وضعف الرأي وسوء التدبير قد قلل من مكانته بين الخلفاء المسلمين، إلا أن موقف رجال الدين كان مخالفاً لرأي معظم كتب المؤرخين فهم لم يأخذوا عليه مسألة لهوه وترفه، فأحمد بن حنبل يقول: "إني لأرجو أن يرحم الله الأمين بإنكاره على إسماعيل بن عليّ، فإنه أدخل عليه، فقال له: يا ابن الفاعلة أنت الذي تقول: كلام الله مخلوق؟"<sup>(287)</sup> وبالتالي فإنّ أحمد بن حنبل ترحم على الأمين لموقفه من مسألة خلق القرآن، رغم لهوه وترفه، وذلك على عكس أخيه المأمون الذي أخذ عليه اعتزاله والقول بخلق القرآن.

**عبد الله المأمون ابن هارون الرشيد** ابن جارية فارسية تسمى مراحل، وقد قصت زبيدة والدة الأمين خبر ولادة المأمون له، حيث لعب الرشيد يوماً الشطرنج مع زبيدة، فغلبته، فأمرته أن يذهب إلى المطبخ ويطأ أقبج جارية فيه، فنفذ الرشيد الشرط، وذكرت زبيدة أن أم المأمون كانت قبيحة، قذرة<sup>(288)</sup>. وتوفيت أم المأمون في نفاسها به. وحظي عبد الله المأمون باهتمام كبير من والده الرشيد وخاصة من الناحية العلمية والعسكرية، فقد قرأ المأمون العلم في صغره، وسمع الحديث من أبيه وعباد بن العوام ويوسف بن عطية،

وأبي معاوية الضرير وإسماعيل بن عليه الذي قال بخلق القرآن، وحجاج الأعور، وطبقتهم. وأدبّه اليزيدي، وبرع المأمون في اللغة العربية والفقّه وأيام الناس. ولما كبر اهتم بالفلسفة وعلوم الأوائل ومهر فيها، ويرى السيوطي أن ذلك جره إلى القول بخلق القرآن. وعمل المأمون على جمع الفقهاء من الآفاق. وروى عن المأمون ولده الفضل ويحيى بن أكثم وآخرون<sup>(289)</sup>، إن المأمون الذي كان محبا للعلم، قدر من ساعده أيام دراسته من أساتذته وحتى خدمه، فقد لزم غلام سعيد الجوهري المأمون في الكتاب، فكان إذا احتاج المأمون إلى محو لوحه بادر إليه فأخذ اللوح من يد المأمون فمحاها، وبعد ذلك يضعه على المنديل في حجر المأمون، وعندما خرج المأمون إلى خراسان وقف غلام سعيد ببابه، فأذن له المأمون بالدخول، ولما رآه ضحك المأمون وقال له: "أتذكر وأنت تبادر إلى محو لوحي، قال: نعم يا سيدي."<sup>(290)</sup> فوصله بخمسمائة ألف درهم. إن هذه القصة تشير إلى أن المأمون درس في الكتاب وأغلب الظن أن هذا الكتاب كان داخل قصر الخليفة، وكان خاصاً بأبناء الخلفاء، لأن المنتبغ لتلك الفترة يجد أن الخلفاء كانوا يحضرون المؤدبين لأبنائهم داخل القصر، أو يلتقي هؤلاء الأبناء بالفقهاء والعلماء في مواسم الحج، كما رأينا سابقاً في فترة المنصور. لكن الراجح أن المؤدبين خصصت لهم أماكن خاصة داخل بيت الخليفة، وكان معظم الفقهاء والعلماء يأتون قصر الخلافة لتدريس وتأديب أبناء الخلفاء، والأمثلة كثيرة تساق في هذا الجانب فقد أخرج ابن عساكر عن أبي محمد اليزيدي قال: "كنت أودب المأمون فأثيته يوماً فوجهت إليه بعض الخدم يعلمه مكاني فأبطأ، ثم وجهت إليه آخر فأبطأ، فقلت: إن هذا الفتى ربما تشاغل بالبطالة، فقيل: أجل،

ومع هذا إنه إذا فارقك تعرّم<sup>(\*)</sup> على خدمه ولقوا منه أذى شديداً، فقومه بالأدب، فلما خرج أمرت بحمله، فضربته سبع دررٍ، قال: فإنه ليدلك عينيه من البكاء إذ قيل: إن هذا جعفر بن يحيى قد أقبل، فأخذ منه منديلاً، فمسح عينيه من البكاء وجمع ثيابه، وقام إلى فرشه، فقعد متربعاً، ثم قال: ليدخل، فدخل، فقمت عن المجلس، وخفت أن يشكوني إليه فأقبل عليه بوجهه وحدثه حتى أضحكه، ثم خرج، فجنّنت فقلت: لقد خفت أن تشكوني إلى جعفر فقال لي: يا أبا محمد، ما كنت أطلع الرشيد على هذه، فكيف بجعفر؟ إنني احتاج إلى أدب<sup>(291)</sup>. إن ما سبق من رواية اليزيدي تشير بوضوح إلى إتيانه لقصر الخلافة لتأديب المأمون، وتبين لنا كذلك الفرق بين المأمون الذي كان يعاقب من أستاذه، ولا يشكو ذلك لأحد، حتى للرشيد، في حين كان الأمين يبوح بكل ما يجري معه لجواري زبيدة، وكان الأمين يحب اللهو، وتمضية وقته به، في حين كان المأمون يعتقد دائماً أنه بحاجة للتأديب كي يصبح رجلاً مؤهلاً للحكم. المنصور وقد شغله انصرافه للعلم وحبّه للكتب وتمتعّه باللذة العقلية عن اللهو والشراب، وكان يشرب النبيذ قليلاً. وقال المأمون عن النبيذ: "النبيذ كلب، والعقل ثعلب"<sup>(292)</sup>. وفي هذا دليل واضح على حب المأمون للعلم وتقديره للقدرة العقلية للإنسان، وذمه للخمر الذي يؤثر على هذا العقل، ومع ذلك فقد شرب المأمون النبيذ رغم أنه كان مقلاً في شربه كما أشرنا.

إن الإستماع للعلم كان القاعدة الأساس التي نشأ عليها المأمون ولكن لم يكن العلم هو الهدف الدائم، فذات يوم وبينما كان الحسن اللؤلؤي يحدث المأمون - والمأمون يومئذ

(\*) عَرَمَ فلان - عرماً: اشتد، وخَبِثَ وكان شريراً.

عَرَمَ فلاناً: أصابه بخراسة وأذى.



أمير- نعت المأمون، فقال له اللؤلؤي: "نمت أيها الأمير، فاستيقظ المأمون وقال: سوقي(\*) والله، يا غلام خذ يده"<sup>(293)</sup>. وعلق ابن الجوزي على هذه الرواية بالقول، "إن هذه الأحاديث كانت من أجل أن ينام عليها هؤلاء، فعندما أيقظ اللؤلؤي المأمون كان سوء أدب منه. على الرغم من هذه الرواية إلا أن من الواضح أن المأمون كان يحب الاستماع للفقهاء والعلماء، فقد كان يجلس للمناظرة في الفقه كل يوم ثلاثاء، فإذا حضر الفقهاء ومن يناظره من سائر أهل المقالات، يتم إدخال الفقهاء والعلماء إلى حجرة مفروشة، ويُقدم لهم الطعام والشراب ثم يُطلب لأمنهم تجديد الوضوء، وينزعون خفافهم الضيقة وملابسهم الثقيلة، ويُقدم لهم الطيب، ثم يخرجوا، ويذهبوا لمجلس المأمون، فيستدنيهم، وتبدأ بعدها مناظرتهم مع المأمون "فيناظرهم أحسن مناظرة وأنصفها وأبعدها عن مناظرة المتجبرين، فلا يزالون كذلك إلى أن تزول الشمس، ثم تنصب الموائد الثانية، فيطعمون وينصرفون"<sup>(294)</sup>. وما يدلنا ذلك إلا على رغبة المأمون مناظرة الفقهاء وهم في أحسن حال، ولا يُقدر عليهم صفوهم أي حاجة من حاجات الدنيا وحتى يكون كل همهم التفكير والمناظرة، وكان المأمون ينظر في علوم النجوم، ويذهب مذاهب ملوك الفرس ويشتهي قراءة الكتب القديمة، وعند وصوله لبغداد، أظهر القول بالعدل والتوحيد أي أنه تبني فكر المعتزلة، وجالس المتكلمين والفقهاء والأدباء وأستقدمهم من البلدان المختلفة وأجرى لهم الأرزاق، فكثرت المتكلمون في أيامه ووضعت الكتب التي تناصر قوله، وترد على من خالفه الرأي"<sup>(295)</sup>. لقد قال عنه البغدادي: "كان المأمون من أكثر رجال بني العباس حزمًا وعدلاً

(\*) سوقي: من العامة.

ورأياً ودهاءً وشجاعةً وسؤدداً وسماحةً<sup>(296)</sup>. وقال عنه الرشيد "إني لأعرف في عبد الله المأمون حزم المنصور، ونسك المهدي، وعزة الهادي، ولو اشاء ان أنسبه إلى الرابع - يعني نفسه - لنسبته"<sup>(297)</sup>. إن هناك تشابهاً واضحاً بين الرشيد والمأمون من حيث الاهتمام بالعلم، وجمع الفقهاء. واعتبر عصر المأمون والرشيد من أزهى العصور الإسلامية. وللمأمون محاسن كثيرة، وحسب السيوطي فإنه لم يلّ الخلافة من بني العباس أعلم منه، وكان فصيحاً مفوهاً. وكان يقول: "معاوية بعمره<sup>(\*)</sup>، وعبد الملك بحجابه، وأنا بنفسي"<sup>(298)</sup>. إن المأمون كان فخوراً معتزاً بنفسه خاصة في وجود الفقهاء والعلماء والفلاسفة في بلاطه، ولم يكن ذلك في كل الأوقات فقد كان في كثير من الحالات متواضعاً وهناك الكثير من الروايات التي تؤكد ذلك منها ما ذكره يحيى بن اكنم، حيث قال: "كنتُ عند المأمون، فأنتهيت في جوف الليل وأنا عطشان فتقلبت، فقال: يا يحيى ما شأنك؟ قلت: عطشان، فوثب من مرقده، فجاءني بكوب من ماء. فقلت: يا أمير المؤمنين ألا دعوت بخادم، ألا دعوت بغلام؟ قال: "لا، حدثني أبي عن أبيه عن جده، عن عقبة بن عامر قال: قال عليه السلام: "سيد القوم خادمهم"<sup>(299)</sup>.

وكان المأمون ينظم الشعر، وقال يوماً ابن حفصة الشاعر: "أعلمت أن أمير المؤمنين المأمون لا يبصر الشعر، فقال عمارة بن عقيل: من ذا يكون أفرس منه، وإننا لننشد أول البيت فيسبق آخره من غير أن يكون سمعه. قال: فإني أنشدته بيتاً فأجدت فيه، فلم أره يحرك له، وهذا البيت فاسمعه:

(\*) عمره: عمرو بن العاص.

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلاً بالدين والناس بالدنيا مشاغيل

فقال له عمارة: ما زدته على أن جعلته عجوزاً في محرابها، في يدها

مسيحة، فمن يقوم بأمر الدنيا إذا كان مشغولاً عنها، وهو المطوق لها، إلا قلت كما قال

عمك جرير لعبد العزيز الوليد:

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله<sup>(300)</sup>

فالمأمون كان يحلل صغار الأمور، لذا لم يتحرك لبيت الشعر، الذي رأى أنه

يسيء له أكثر مما يمدحه.

أما عن شعر المأمون فقد قاله في مناسبات عديدة ومن أبياته الشعرية:

لساني كتومٌ لأسراركم ودمعي نومٌ لسري يذيع

فلولا دموعي كتمتُ الهوى ولولا الهوى لم تكن لي دموع<sup>(301)</sup>

وكان المأمون كثير العفو، حيث كان يقول: "حُبِّبَ إِلَيَّ العفو حتى ما أراني أُؤجر

عليه"<sup>(302)</sup>، ومن الأشياء التي كان يكرهها ولا يغفرها لأحد، القدح في الملك، وإفشاء

السر، والتعرض للحرم<sup>(303)</sup>.

من الأشياء التي تميز بها المأمون عن غيره من الخلفاء إصراره على اختيار

أخيه المعتصم خليفة للمسلمين وذلك بهدف استكمال المعتصم لما بدأه أخوه من القول في

مسألة خلق القرآن، حيث أن المأمون كان يرى في شكيمة المعتصم ومثانة خلقه ما يضمن

له تنفيذ السياسة التي رسمها لدولته<sup>(304)</sup>. بل إن المأمون قد وضع لأخيه النهج الذي

سيسير عليه قائلاً له: "يا أبا إسحاق ادنُ مني، واتعظ بما ترى، وخذ بسيرة أخيك في

القرآن، واعمل في الخلافة إذا طوّقتكها الله عمل المرید لله، الخائف من عقابه وعذابه، ولا تغتر بالله ومهلتة، فكأنّ قد نزل بك الموت، ولا تغفل أمر الرعية<sup>(305)</sup>. إنّ هذه الوصية تظهر لنا أن المأمون كان حريصاً على استمرار نهجه وكان المعتصم سيكمل هذا النهج بشجاعته وقوته، وليس بفكره، لأن المعتصم لم يكن لديه فكر واضح كأخيه المأمون.

**محمد المعتصم** هو ابن هارون الرشيد، وأمّه كانت أم ولد تسمى ماردة، وكان والدها فد نشأ بالسواد. لم تدرك أم المعتصم خلافته، وكانت ولادة المعتصم بالخلد. كان الرشيد قد حرم المعتصم من ولاية العهد بسبب ثقافته الضحلة. وللمعتصم مع العلم قصص كثيرة، فقد كان مع المعتصم غلام في الكتاب يتعلم معه، فمات الغلام، فقال الرشيد له: "يا محمد مات غلامك"، قال: "نعم يا سيدي واستراح من الكتاب"، فقال له الرشيد: "وإن الكتاب ليبلغ منك هذا المبلغ، دعوه إلى حيث انتهى، ولا تعلموه شيئاً"<sup>(306)</sup>. وكان المعتصم عرياً<sup>(\*)</sup> في العلم، فكان يقرأ ويكتب قراءة ضعيفة. ومع ذلك فقد خَلَفَ المأمون في مسألة خلق القرآن، وكان يعقد المناظرات في علم الكلام<sup>(307)</sup>. كان اهتمام المعتصم منصباً على الصيد والفروسية، حيث نشأ نشأة عسكرية، وكان مولعاً بالاشتراك بالحروب، ويصفه ابن طباطبا بقوله: "كان المعتصم شديد الرأي، شديد المنّة، يحمل ألف رطل ويمشي بها خطوات"<sup>(308)</sup>. كما كان موصوفاً بالشجاعة، فيقول المسعودي عنه: "كان المعتصم ذا بأس وشدة في جسمه، وشجاعة في قلبه"<sup>(309)</sup>. ومن الأمثلة على قوته ما ذكره أحمد بن أبي داوود: حيث قال: "كان المعتصم يخرج يده إليّ ويقول عضّ ساعدي بأكبر قوتك، فأقول:

(\*) استوحش منه (من العلم).

والله يا أمير المؤمنين ما تطيب نفسي بذلك، فيقول: إنه لا يضرني فأروم ذلك، فإذا هو لا يعمل فيه الاسنة فضلاً عن الاسنان<sup>(310)</sup>. وكان من أشد الناس بطشاً، حيث كان يجعل زند الرجل بين إصبعيه فيكسره<sup>(311)</sup>. وكان يقاتل بأحسن أنواع القتال، فقد كان يمسك بالعود من الحديد، فيثبته مرات<sup>(312)</sup>.

تبين لنا كتب التاريخ أنّ الرشيد ميّز بين أبنائه من حيث الاهتمام، فأولى الأمين والمأمون الأهمية الأولى، في حين أن المعتصم على سبيل المثال لم يحظ بتلك المكانة. لقد دعا المعتصم أحد خاصته وهو محمد بن عمر الرومي ليسمعه أبياتاً من الشعر، كتبها في غلام له يسمى عجيب، وكان المعتصم شغوفاً به فقال المعتصم لمحمد الرومي: "قد علمت أنني دون إخوتي في الأدب لحب أمير المؤمنين لي، وميلي إلى اللعب وأنا حدث، فلم أنل ما نالوا، وقد عملت في عجيب أبياتاً، فإن كانت حسنة، وإلا فاصدقني حتى أكتمه"<sup>(313)</sup> ثم أنشد:

لقد رأيتُ عجيباً                      يحكي الغزال الربيبا  
الوجه منه كـبـدر                      والقـدُّ يحكي القضيبا

وروى أبياته حتى وصل إلى آخر بيت وقال فيه:

إني هويتُ عجيباً                      هوى أراه عجيباً

فحلف له محمد الرومي أن شعره مليح، من أشعار الخلفاء الذين ليسوا بشعراء، فطابت له نفسه، وأجزل له العطاء حيث أمر له بخمسين ألف درهم. إنّ المعتصم ووفقاً لما ذكره، عن سبب عدم إكماله لتعليمه إلى حب الرشيد له. بمعنى آخر دلالة الرشيد له،

وربما كان سبب ذلك كونه أصغر سناً من الأمين والمأمون. من جهة أخرى فإنّ السبب الشخصي يعود للمعتصم الذي كان يُفَضِّلُ اللعب على التعليم. إنّ هذه الرواية تذكرنا بحب عبد الملك لابنه الوليد حيث قال: حبنا للوليد أضرب به". إنّ الرواية السابقة لا تشير فقط إلى أنّ دلال الخلفاء لبعض أبنائهم قد أضرب بهم، بل تشير كذلك إلى حرص الخلفاء على قول الشعر، مهما كانت ثقافتهم الشعرية واللغوية ضحلة، وهذا ما لاحظناه عند المعتصم الذي كان حريصاً على قول الشعر، لأنّ الشعر هو ديوان العرب. لقد حرص الخلفاء على قول الشعر لأنه يحسب لهم، مهما كان هذا الشعر ضعيفاً ومن شعر المعتصم:

لم يزل بابــــــــــــــــك حتى صار للعالم عبــــــــــــــــره  
ركب الفيل ومن يــــــــــــــــر كب فيلاً فهو شهــــــــــــــــره<sup>(314)</sup>

ويتضح من هذا الشعر انه لا يقارن بما نظمه المأمون، أو غيره من الخلفاء.

فضّل المعتصم الأتراك على غيرهم، واتخذهم حلفاء له لأنّ أمه كانت من اصل تركي إضافة لذلك فإنّ الأتراك كانوا يشبهونه حيث لم يكونوا مثقفين، بل كانوا شبه أميين، وكانت قدرتهم الفكرية ضعيفة، ولم تكن الحضارة قد طرقت أبوابهم وذلك على عكس العرب والفرس. في حين أنهم عُرفوا بالشجاعة والصبور في الحروب<sup>(315)</sup>، وبالتالي فهو قد وجد صفاته منسجمة معهم. فهم تبعّ له، لأنّ ثقافتهم لا تفوق ثقافته، كم أنّ شجاعته أهلتهم لقيادتهم.

على الرغم من شجاعة وقوة المعتصم الجسدية إلا أنه كان يحمل قلباً رقيقاً. فقد خرج يوماً من دار المأمون إلى داره، وكان شارع الميدان الذي يضم خيم الجند فرأى أمّاً

تبكي ابنها، فسألها عن سبب بكائها، فأخبرته بأن أحد الجنود قد أخذ ابنها، فدعاه المعتصم وأمره برد الصبي لأمه، فأبى الجندي، فاستدناه حتى قبض عليه بيديه، فسمع صوت عظامه تتكسر، ولما تركه سقط على الأرض، وأمر بإخراج الصبي إلى أمه<sup>(316)</sup>.

وكان المعتصم متواضعاً بشكل كبير، فقد حُكي أنه انقطع عن أصحابه في يوم مطر، فرأى شيخاً قد انزلق حماره في الوحل، وعليه حمل شوك، وكان الشيخ ينتظر من يمر عليه فيعينه على حمله، فسأله المعتصم عن حاله، فأخبره الشيخ بما جرى معه، فنزل المعتصم عن دابته ليخلص الحمار من الوحل، ويرفع حمله عليه، فطلب منه الشيخ أن لا يُبلل ثيابه المعطرة، فقال له المعتصم: "لا عليك". ثم قام بتخليص الحمار، وجعل الشوك عليه، وغسل يديه ثم ركب، فقال له الشيخ: "غفر لك يا شاب"، ثم لحق المعتصم بأصحابه، وأمر للشيخ بأربعة آلاف درهم، ووكل من يسير معه إلى بيته<sup>(317)</sup>. والجدير ذكره أن السيوطي يذكر أن المعتصم كان ينتسبه بملوك الأعاجم، ومشى مشيتهم، وعلى الأغلب أن السيوطي أراد أن يشير إلى مشية التبخر. ولكنَّ المعتصم كان بعيداً عن الكبر. وقد اشتهر بنخوته وشجاعته ولعل فتحه لعمورية أكسبه شهرة واسعة في التاريخ. إنَّ من الواضح أن شخصية المعتصم العسكرية وخوضه غمار الثورات المتعددة هي ما أكسبته شهرة لا بأس بها، وجعلته مع القادة العظماء في الفترة العباسية، إنَّ محاربته الزط، والبابكية ... الخ، وفتح عمورية، وكان المعتصم قد سأل بابك عندما ظفر به، عن أعظم بلاد الرُّوم عندهم فأجابه عمورية<sup>(318)</sup>، ولذا اختارها كي يغزوها. ولعل قصة المرأة التي استغاثت بالمعتصم وهي أسيرة عند الروم في عمورية، ما هي إلا دليل على رافة

المعتصم وشفقته بالضعفاء كما رأينا. واهتم المعتصم بالعسكر بشكل كبير جداً وكان ذلك على حساب أشياء كثيرة أخرى لم يوليها المعتصم اهتمامه، وفي ذلك قال الفضل بن مروان: "لم يكن للمعتصم لذة في تزيين البناء، وكان غايته فيه الإحكام"<sup>(319)</sup> وبالتالي فالمظاهر لم تكن تلفت نظره. وأضاف الفضل بن مروان: "ولم يكن بالنفقة على شيء أسمح منه بالنفقة في الحرب"<sup>(320)</sup>.

**الوائق:** وهو ابن المعتصم وأمه أم ولد رومية، وتسمى قراطيس. نشأ الواثق مقتدياً بعمه المأمون في صفاته وفكره، حتى سُمي بالمأمون الصغير لأدبه وفضله. عظمت المأمون وقدمه على ولده فكان الواثق صاحب شخصية قوية وعقل راجح وبصيرة في تدبير الأمور. واهتم والده به، فولاه السلطة في بغداد، عندما انتقل هو مع جنوده إلى سامراء<sup>(321)</sup>. وكان الواثق مليح الشعر، وافر الأدب، ومن أعظم الناس بكل شيء. اهتم بالغناء وكان أعلم الخلفاء به، وله أصوات وألحان، وعمل نحو 100 صوت، كما كان حاذقاً بضرب العود، ورواية الأشعار والأخبار<sup>(322)</sup>. قال الفضل اليزيدي عنه: "لم يكن في خلفاء بني العباس أكثر رواية للشعر من الواثق"، فقيل له: "كان أروى من المأمون؟ فقال: نعم، كان المأمون قد مزج بعلم العرب علم الأوائل من النجوم والطب والمنطق. وكان الواثق لا يخلط بعلم العرب شيئاً"<sup>(323)</sup>. وكان الواثق محباً للنظر، مكرماً لأهله، مبغضاً للتقليد وأهله محباً للإشراف على علوم الناس وآرائهم، ممن تقدم وتأخر من الفلاسفة والفقهاء. فحضر ذات يوم جماعة من الفلاسفة والمتطبيين، فجرى بحضرته نقاش حول علومهم في الطبيعيات، وما بعد ذلك من الإلهيات<sup>(324)</sup>. إن من يقرأ سيرة الواثق في كتاب



مروج الذهب للمسعودي يدرك مدى تعلقه بالطبيعة ومدى حبه للعلم والمعرفة، فقد كان يسأل عن كل ما يتعلق بالكواكب والرياح، والشمس ... إلخ. وفي كتاب المسعودي "مروج الذهب" نجد محاضرات ومناظرات كاملة عن موضوع الطبيعة كانت تتناقش وتثار في مجلس الواثق وهو يشترك فيها.

كان الواثق مثل عمه المأمون يكرم أهل العلم. فقد دخل هارون بن زياد مؤدب الواثق عليه ذات مرّة، فأكرمه للغاية، فقيل له: "من هذا يا أمير المؤمنين الذي فعلت به هذا الفعل؟ فقال: هذا أول من فتق لساني بذكر الله وأدناني من رحمة الله"<sup>(325)</sup>. ونجد الواثق قد قلّد أبيه في قول الشعر بخدمه، فقد كان له خادمان، يحبهما، وكل يوم يخدمه أحدهما وقال في ذلك:

قلبي قسيمٌ بين نفسين      فمن رأى روحاً بجسمين  
يغضب ذا إن جاد ذا برّصاً      فالقلبُ مشغولٌ بشجوين<sup>(326)</sup>

هنا نتوقف عند قضية حب الخلفاء للغلمان، فالمعتصم كان يحب عجيب، والواثق كذلك، إن المتتبع لتلك الفترة يرى أن هذا الأمر - حب الغلمان - لم يقتصر على الخلفاء، بل تعداه للشعب، ولا مثال أوضح هنا من حب أبو نواس للغلمان بل وتعلقه بهم أكثر من النساء<sup>(\*)</sup>.

كان أحمد بن أبي داؤود قد استولى على الواثق، وحمله على التشدد في المحنة، والقول بخلق القرآن، ويقال أنه رجع عن ذلك قبل وفاته. وكان لمجالس الواثق نصيب في

(\*) هناك الكثير من المعلومات عن أبي نواس في كتاب الأغاني للأصفهاني، وزهر الآداب لأبي اسحاق العصري.

سرد سير أجداده والخلفاء المسلمين. وكان للوائح سُمّار يجلسون عنده ويفيضون في الأخبار حتى أخبروه عن شأن البرامكة واستبدادهم على الرشيد، واحتجابهم الأموال، "فأغراه ذلك وأمر بمصادرة الكتاب وحبسهم، وألزمهم الأموال"<sup>(327)</sup>. أما عن علاقة الناس بالوائح فقد كانت جيّدة حيث بالغ في اكرام العلويين والإحسان اليهم وفرّق في أهل الحرمين أموالاً لا تُحصى<sup>(328)</sup>.

يمكن القول في ختام هذا الفصل بأن الخلفاء الراشدين الأربعة تربوا في البادية، اكتسبوا فيها الفصاحة والبلاغة، ونشأوا على العادات العربية، كما نستطيع أن نقول بأنهم مثقفون وذلك وفقاً لمعايير ذلك الزمن، فقد كان الخلفاء الراشدون الأربعة يعرفون أنساب العرب ويحفظون الشعر، فقد تميز عمر بحفظ الشعر وعلي بقوله، إضافةً لذلك فإن الخلفاء الأربعة كانوا من أفقه الصحابة، وهذا ما ميزهم عن غيرهم من الخلفاء، ورغم ما يقال عن فقه عثمان بن عفان إلا أننا نستطيع أن نقول بأن عثمان يأتي في المرتبة الرابعة من حيث درجة علمه بالفقه مقارنة بالخلفاء الراشدين الأربعة، ويأتي علي بن أبي طالب في المرتبة الأولى في الفقه، فقد شهد لعلي كلاً من أبي بكر وعمر في هذا المجال فقد كان ساعدهما الأيمن في التصدي لأي معضلة فقهية، مع العلم أنهما "أبو بكر وعمر" أشهر ثنائي جلس للفتيا في عهد الرسول، ومع ذلك كانا يستشيران علي فيما يواجههما من قضايا وبالتالي فعلي بن أبي طالب كان أفقه الخلفاء الراشدين، وبما أن الخلفاء الراشدين كانوا من أفقه الخلفاء نجد أن علي بن أبي طالب هو أفقه الخلفاء المسلمين على الإطلاق.

إنّ ما ينطبق على فترة الخلفاء الراشدين من نشأة ومن اهتمام بعلوم معينة ينطبق كذلك على العصرين الأموي وبداية العصر العباسي، إن نظرة سريعة لنشأة وتربية خلفاء تلك الفترة تبين لنا أن معظم الخلفاء في هذه الفترات قد تربوا في البادية وتعلموا فيها النطق الصحيح، ومعظمهم اهتموا بأيام العرب، وحفظوا أشعارهم، واهتموا بالعلوم الدينية فقد كانت العلوم الدينية الركيزة الأساسية للعلم في تلك الفترة. فمن الواضح أن تعليم الخلفاء وأبنائهم في صدر الاسلام والدولة الأموية تركّز على العلوم الدينية بالدرجة الأولى، وعلى حفظ القرآن، وعلى حفظ أشعار العرب وربما اقتصر الأمر على هذه المواضيع بسبب ما عاشه المسلمون في تلك الفترة من محاولتهم تثبيت الحكم، ونشر للإسلام وما رافقها من فتوحات. وما ينطبق على الخلفاء الأمويين ينطبق على السفاح والمنصور، فقد تربى كلاهما كما تربى أي عربي، وحرصاً على التزود بالعلم في صغرهما، ولعل المنصور الذي تنقل من مكان لآخر في طلب العلم، يعطينا مثلاً جيداً للإنسان العربي القرشي الذي كان حريصاً على تلقي العلم والحفاظ على مكانته، وحاول أن يربي أبنائه ويوفر لهم أفضل المؤدبين، بل وينقلهم من بغداد إلى مكة والمدينة ليأخذوا العلم من منابعه. فقد طلب المنصور من الإمام مالك بن أنس أن يضع كتابه الموطأ، وأن يعلمه لأبنائه، وجديرٌ بالذكر هنا أن الفترة العباسية شهدت انفتاحاً علمياً كبيراً وخاصةً أن العرب بدأوا في تلك الفترة بترجمة علوم الفرس واليونان، وبالتالي أصبحت العلوم المعروفة عند العرب أكثر من ذي قبل، فاطّلع الخلفاء على علوم أكثر، ونرى بأن المأمون والواثق وغيرهم من الخلفاء أصبحوا أكثر معرفة بعلوم الطبيعة وطرقوا باب

الفلسفة والجدل، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن المأمون اهتم ببناء أول مكتبة ضخمة في بغداد وهي دار الحكمة (مع العلم أن البعض ينسبها لفترة الرشيد)، وبالتالي لعب الاهتمام الشخصي دوراً في ثقافة المأمون إضافة إلى التطور التاريخي الذي زاد من معرفة العرب بالعلوم السابقة. لا بد هنا من التأكيد على أن معظم الخلفاء قد حرصوا على قول الشعر. على اعتبار أن الشعر من أهم المفاخر عند العرب، وإن الشعر ديوان العرب، حتى الخليفة المعتصم الذي كانت ثقافته محدودة وتعليمه كان ضحلاً قال الشعر.

عندما نصادف معلومة مثل أن الوليد بن عبد الملك كان لحناً، وبأن المعتصم لم يكن راغباً في الحصول على العلم، يشير إلى أن الخلفاء كانوا في الأغلب على درجة جيدة من التحصيل العلمي بمقاييس ذلك الزمان مع تميز واضح للبعض منهم في مجال العلم، فالمأمون والواثق على سبيل المثال يمكن أن نعتنهما بالعلماء، ولو أنهما لم يكونا من الخلفاء لاستحقا بجدارة لقب علماء أو فلاسفة، في حين تميز خلفاء آخرون بالفصاحة والبلاغة وهم كثر فقد تميز كل من علي بن أبي طالب، وسليمان بن عبد الملك، ويزيد بن عبد الملك، وهشام بن عبد الملك، ويزيد بن الوليد، والسفاح، والمنصور، والمهدي، والهادي، والمأمون بالفصاحة والبلاغة. في حين كان بعض الخلفاء يتميزون بعلم الفقه، وما جلوس بعض الخلفاء للقضاء أو النظر في المظالم، إلا دليل على معرفتهم الجيدة بأحكام الدين وبأمر الفقه ومن أهم من تميزوا بالفقه الخلفاء الراشدون كما أشرنا، إضافة لعبد الملك والمهدي، والهادي، والمأمون. إن اللافت للنظر في هذا الموضوع أن عبد الملك كان من فقهاء المدينة قبل توليه الخلافة، ومع هذا فإنه لم يكن مشابهاً للخلفاء الراشدين في

سيرتهم من حيث (الزهد، والتقشف، وتفضيل مصلحة الأمة على المصالح الشخصية للخليفة وعشيرته...)، بل نجد أنّ ما أخذه عبد الملك على يزيد بن معاوية عند ضرب الكعبة في فترة يزيد، قد تكرر في عهد عبد الملك، ولم يأخذ وقتها عبد الملك بمكانة مكة الدينية، بل كان جُلّ ما أهمه وأهم واليه الحجاج هو القضاء على عبد الله بن الزبير. وبالتالي لم يتأثر عبد الملك بنشأته الدينية أثناء حكمه للمسلمين وتصرف وفقاً لما تملّيه عليه مصالح الخلافة والسياسة آنذاك. وهنا نرى أن بعض الخلفاء غيروا من نهجهم الذي كانوا عليه قبل الخلافة، وعلى رأسهم عبد الملك بن مروان، في حين أن خليفة مثل عمر بن عبد العزيز غير ما كان عليه قبل الخلافة، فقد تخلى عمر عن حياة الترف التي عاشها، لأنه أراد أن يحذو حذو الخلفاء الراشدين.

أما عن طبيعة الحياة الإقتصادية والتي نشأ فيها الخلفاء فقد اختلفت من فترة لأخرى، فقد نشأ الخلفاء الراشدون في بيوت لها مكانتها في قريش، ولكن في ظل ظروف إقتصادية عادية، بل وأقل من العادية أحياناً، فعلي بن أبي طالب الذي انتمى لبيت من أشرف بيوت قريش لم ينشأ في ظل ظروف إقتصادية جيدة، بل كانت حالة والده المادية سيئة بسبب كثرة عياله، ولا ينسحب كلامنا هذا على الخليفة عثمان بن عفان، فقد نشأ عثمان وترى في بيت من بيوت بني أمية الثرية، فكان الخليفة الراشدي الوحيد، الذي حافظ على مستوى معين من الرفاهية قبل وبعد خلافته، إنّ معاوية ومروان وابنه عبد الملك انتموا إلى هذا النمط في المعيشة فقد نشأوا بنفس الطريقة فهم انتموا إلى البيت الأموي الذي تميز أفراده بالثراء، وحظي يزيد بن معاوية برفاه اجتماعي كبير، فوالده

معاوية كان والياً على الشام، ونشأ يزيد فصيح اللسان كونه تربى في البادية، كمعظم الخلفاء الأمويين باستثناء "الوليد بن عبد الملك الذي أفسده دلال أبيه له".

إنَّ تتبع سيرة الخلفاء الأمويين تظهر لنا أنهم نشأوا في ظروف مادية ممتازة، فعمر بن عبد العزيز الذي نشأ في مصر، كان يعيش أيضاً ظروفاً جيّدة، وبعد وفاة والده وانتقاله إلى دمشق في كنف عمه عبد الملك أصبح في وضع أفضل، ولكنَّ ما انتهجه من تقشف وزهد أثناء خلافته، كان مرده إلى نشأته الدينية في المدينة المنورة، وتأثره بالمحيطين به من مؤدبين ورجال دولة.

أما عند الحديث عن الخلفاء العباسيين نجد أنهم عاشوا ظروفاً اقتصاديةً جيدة وتربوا في قصور الخلافة، وخاصةً أبناء وأحفاد المنصور، بل إن العباسيين عاشوا ترفاً أكثر مما عاشه الأمويون وذلك كونهم استولوا على الثروة الأموية، إضافةً لما تمتعت به حاضرة الدولة العباسية من خصب.

تبعاً لتأثر الخلفاء بالنشأة العربية نجد أن بعضاً منهم قد امتازوا بالبسالة والشجاعة والفروسية وخاصةً من تربوا بالبادية، ونذكر من هؤلاء الخلفاء الذين امتازوا بالشجاعة والفروسية عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وسليمان بن عبد الملك، ومروان بن محمد، والهادي، والأمين، والمعتصم، قد نجد أن الخلفاء الأمويين أكثر رجولة من العباسيين، واشجع، وذلك لأنهم عاشوا في البادية، بينما عاش العباسيون داخل قصورهم ولم يوجهوا للبادية.

إن نظرة سريعة للخلفاء الأمويين تبين لنا أنّ معاوية، ومروان وعبد الملك، وهشام، ومروان الثاني هم من أبرز الخلفاء الأمويين، وذلك بسبب ما تمتعوا به من شخصية قوية، وسياسية واضحة إلاّ أن الظروف وقفت بوجه مروان الحمار، وبالتالي جعلته يفقد خلافته، بسبب الظروف التاريخية التي كانت تسير بها الأحداث، وجديرٌ بالذكر أن معاوية، وعبد الملك وهشام، ومروان الثاني كانوا حريصين على تتبع سير الملوك والخلفاء الذين سبقوهم، وبالتالي الاستفادة ممن سبقوهم في الحكم، ومن تجارب الأمم السابقة، إن الغريب في الموضوع أن بعض الخلفاء تميزوا بالبخل والحرص على المادة من أمثال عبد الملك بن مروان وهشام والمنصور ومع ذلك اعتبروا من الخلفاء العظام، في حين أعتبر الرشيد والمأمون من الخلفاء العظام رغم اسرافهم، بينما نجد أن خليفة مثل الوليد بن عبد الملك والوليد بي يزيد، خصصوا الأموال لمساعدة الناس واهتموا بالحالات الإنسانية ومع ذلك لم يحظوا بمكانة مميزة عند المؤرخين، وبالتالي لم تكن السياسة المالية هي الأساس لإفتراس أن هذا الخليفة عظيم أم لا.

إن صفات الخلفاء قد اختلفت من خليفة لآخر وأعتقد أن هذه الصفات خاضعة للنقاش ولوجهات نظر المؤرخين ولمن أخذوا عنهم، ونجد أن القليل من التمهيص قد يشككنا في الكثير من صفات الخلفاء، ولا أريد إلقاء اللوم في تضارب بعض الصفات عند الكثير من الخلفاء إلى عدم مصداقية المؤرخين بل إلى تناقض عاشه الخلفاء المسلمين أنفسهم، هنا لابد من القول بأن الخلفاء الراشدين الأربعة إضافة لعمر بن عبد العزيز مثلوا لكل مسلم النموذج الذي يجب أن يقتدي به كل خليفة مسلم، تتناقض مع صفات أخرى،

ومثال ذلك شخصية هارون الرشيد المليئة بالتناقضات. ولابد هنا أن نشير إلى أن هناك عوامل ومواضيع أخرى أثرت على حياة الخلفاء سيأتي الحديث عنها بالتفصيل في الفصول اللاحقة، مثل قضية الجواري، ومدى تأثيرهن على الخلفاء في العصر العباسي، ومدى تأثير اللهو والترف على حياة بعض الخلفاء وكيف نظر المؤرخون لهؤلاء الخلفاء بسبب ما عاشوه من لهو وأخص هنا يزيد بن معاوية، والوليد بن يزيد.



## الهوامش

- (1) علي بن الحسن أبو القاسم بن عساكر. تاريخ مدينة دمشق. ج3. دراسة وتحقيق محب العمروي. (بيروت: دار الفكر، 1995). ص15.
- (2) جلال الدين السيوطي. تاريخ الخلفاء. (بيروت: دار القلم، ط1، 1986). ص39. ومحمد الخضري بك. الوفاء في سيرة الخلفاء. (بيروت: دار الفكر، ط1، 1991). ص21.
- (3) الخضري. الوفاء في سيرة الخلفاء. ص21.
- (4) ابن عساكر. تاريخ مدينة دمشق. ج3. ص4.
- (5) السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص39. ومحمد رضا. أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين. (بيروت: دار الكتاب العربي، 2003). ص13. والخضري: الوفاء في سيرة الخلفاء. ص21.
- (6) أحمد بن علي بن أحمد العسقلاني (ابن حجر العسقلاني). الإصابة في تمييز الصحابة. ج4. (بيروت: دار الجيل، 1992). ص174.
- (7) رضا. أبو بكر الصديق. ص14.

- 
- (8) محمد يوسف الكاندهلوي. حياة الصحابة. (بيروت: دار ابن حزم). ص 559.
- (9) ابن عساكر. تاريخ دمشق. ج 3. ص 15.
- (10) رضا. أبو بكر الصديق. ص 14.
- (11) ابن عساكر. تاريخ دمشق. ج 3. ص 326.
- (12) السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص 39.
- (13) أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني. العمدة في محاسن الشعر وآدابه. تحقيق: محمد قرقران. (بيروت: دار المعرفة، ط 1، 1408-1988). ص 99.
- (14) السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص 40.
- (15) صبحي محمصاني. تراث الخلفاء الراشدين في الفقه والقضاء. (بيروت: دار الملايين، ط 1، 1984). ص 31.
- (16) الكاندهلوي. حياة الصحابة. ص 570.
- (17) ابن حجر العسقلاني. الإصابة في تمييز الصحابة. ج 4. ص 174.

(18) عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني ابن الأثير. الكامل في التاريخ.

ج3. (الرياض: بيت الأفكار الدولية). ص362.

(19) أبو فرج الأصفهاني بن الجوزي. سيرة ومناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

تحقيق هاني الحاج. (المكتبة التوفيقية). ص10.

(20) حسن إبراهيم حسن. تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي. ج1.

(بيروت: دار الجليل والقاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ط13، 1991). ص171.

(21) المحمصاني. تراث الخلفاء. ص33.

(22) أبو محمد عبد الملك بن هشام. السيرة النبوية. (القاهرة: دار الفجر للتراث، ط1،

1999-1420هـ). ص259.

(23) ابن حجر العسقلاني. الإصابة في تمييز الصحابة. ج4. ص588.

(24) شمس الدين بن قيم الجوزية. أعلام الموقعين عن رب العالمين. تحقيق: محمد محي

الدين عبد الحميد. (بيروت: المكتبة العصرية، ط1، 1424هـ - 2003م). ص27.

(25) المصدر السابق. ص28.

(26) السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص135.

(27) المصدر السابق. ص135.

(28) أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي. العقد الفريد. ج5. تحقيق: عبد المجيد

الترحيني. (بيروت: دار الكتب العلمية). ص23.

(29) السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص131.

(30) ابن قيم الجوزية. أعلام الموقعين. ص28.

(31) القيرواني. العمدة في محاسن الشعر وآدابه. ص88.

(32) أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر. بهجة المجالس وأنس المجالس

وشحذ الذاهن والهاجس. ج1. تحقيق: محمد مرسي الخولي. (بيروت: دار الكتب

العلمية، ط2، 1981). ص64.

(33) السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص131. وأبو نعيم احمد بن عبد الله الأصبهاني. فضائل

الخلفاء الأربعة. تحقيق محمد حسن إسماعيل. (بيروت: دار الكتب العلمية). ص41.

(34) فاطمة الجوابرة. موسوعة الخلفاء. ج1. (عمان: دار صفاء للنشر والتوزيع، ط1،

2003م). ص104.

- (35) أحمد بن اسحاق بن جعفر اليعقوبي. تاريخ اليعقوبي. ج2. (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 2002م). ص112.
- (36) الجوابرة. موسوعة الخلفاء. ج1. ص104.
- (37) خير الدين الزركلي. الأعلام. ج4. (بيروت: دار الفكر). ص371. وحسن. تاريخ الإسلام. ج1. ص206.
- (38) أكرم العمري. عصر الخلافة الراشدة. ص81.
- (39) أبو عبد الله محمد بن يحيى بن أحمد بن محمد الأندلسي. التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان. (بيروت: دار الكتب العلمية). ص15. والسيوطي: تاريخ الخلفاء. ص168.
- (40) السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص168.
- (41) محمد حسين شندب. تاريخ الخلفاء الراشدين. ص126.
- (42) ابن حجر العسقلاني. الإصابة في تمييز الصحابة. ج4. ص457.
- (43) المصدر السابق. ص458.

(44) شندب. تاريخ الخلفاء الراشدين. ص 126.

(45) المصدر السابق. ص 127.

(46) ابن سعد. الطبقات الكبرى. ج 3. (بيروت: دارالكتب العلمية، ط 1، 1990-1410).  
ص 59.

(47) الجوابرة. موسوعة الخلفاء. ص 107.

(48) ابن حجر العسقلاني. الإصابة في تمييز الصحابة. ج 4. ص 457.

(49) ابن عبد البر. بهجة المجالس. ج 1. ص 73.

(50) المصدر السابق. ص 73.

(51) حسن إبراهيم. تاريخ الإسلام. ج 1. ص 217.

(52) الطبري. تاريخ الأمم والملوك. ج 6. ص 90. وابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة. ج 4. ص 564.

(53) ابن حجر العسقلاني. الإصابة في تمييز الصحابة. ج 4. ص 565.

(54) المصدر السابق. ص 565.

- 
- (55) المصدر السابق. ص 567.
- (56) المصدر السابق. ص 568.
- (57) صبحي محمّصاني. تراث الخلفاء الراشدين. ص 93.
- (58) ابن عساكر. تاريخ دمشق. ج 42. ص 300. السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص 190.
- (59) السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص 191.
- (60) موجز دائرة المعارف الإسلامية. ج 24. ص 740.
- (61) ابن عبد ربه الأندلسي. العقد الفريد. ج 5. ص 115.
- (62) الجوابرة. موسوعة الخلفاء. ج 1. ص 147.
- (63) ابن عبد ربه الأندلسي. العقد الفريد. ج 1. ص 14.
- (64) اليعقوبي. تاريخ اليعقوبي. ج 2. ص 166.
- (65) الجاحظ. رسائل الجاحظ السياسية. ص 193.
- (66) ابن عبد ربه الأندلسي. العقد الفريد. ج 5. ص 112.

- 
- (67) ابن الجوزي. الأذكياء. ص 42.
- (68) الجاحظ. البيان والتبيين. ج 1. ص 177.
- (69) المسعودي. مروج الذهب. ج 3. ص 179.
- (70) اليعقوبي. تاريخ اليعقوبي. ج 2. ص 168.
- (71) الجاحظ. البيان والتبيين. ج 1. (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، 1419-1998).  
ص 225.
- (72) اليعقوبي. تاريخ اليعقوبي. ج 2. ص 151.
- (73) المصدر السابق. ص 150.
- (74) الزركلي. الأعلام. ج 9. ص 245.
- (75) حسن إبراهيم. تاريخ الإسلام. ج 1. ص 234.
- (76) ابن الأثير. الكامل في التاريخ. ج 4. ص 532.
- (77) الزركلي. الأعلام. ج 9. ص 245.



- 
- (78) اليعقوبي. تاريخ اليعقوبي. ج2. ص177.
- (79) ابن كثير. البداية والنهاية. ج6. ص9. وابن سعد. الطبقات الكبرى. ج5. ص27.
- (80) ابن كثير. البداية والنهاية. ج6. ص9.
- (81) حسن إبراهيم. تاريخ الإسلام. ج1. ص236. وابن سعد. الطبقات الكبرى. ج5. ص29.
- (82) ابن كثير. البداية والنهاية. ج6. ص10.
- (83) ابن سعد. الطبقات الكبرى. ج5. ص27.
- (84) المصدر السابق. ص29.
- (85) حسن إبراهيم. تاريخ الإسلام. ج1. ص238. والجوابرة. موسوعة الخلفاء. ج1. ص150.
- (86) ابن طباطبا. الفخري. ص122.
- (87) حسن. تاريخ الإسلام. ج1. ص238. وابن طباطبا. الفخري. ص122.
- (88) المسعودي. مروج الذهب. ج3. ص91.

- 
- (89) ابن عبد البر. بهجة المجالس. ص 69.
- (90) الزركلي. الأعلام. ج 4. ص 312.
- (91) ابن الأثير. الكامل في التاريخ. ج 4. ص 53.
- (92) ابن قتيبة الدينوري. الإمامة والسياسة. ج 1. ص 192.
- (93) المسعودي. مروج الذهب. ج 3. ص 71.
- (94) المصدر السابق. ص 81.
- (95) ابن عبد البر. بهجة المجالس. ص 73.
- (96) الطبري. تاريخ الأمم والملوك. ج 8. ص 9.
- (97) الجاحظ. البيان والتبيين. ج 1. ص 181.
- (98) ابن كثير. البداية والنهاية. ج 6. ص 29.
- (99) الجاحظ. البيان والتبيين. ج 2. ص 135.
- (100) الذهبي. تاريخ الإسلام (وفيات 81هـ - 100هـ). ص 497.

- 
- (101) ابن عبد البر. بهجة المجالس. ص 66.
- (102) ابن الأثير. الكامل في التاريخ. ج 5. ص 664.
- (103) الطبري. تاريخ الأمم والملوك. ج 8. ص 52.
- (104) اليعقوبي. تاريخ اليعقوبي. ج 2. ص 204.
- (105) المصدر السابق. ص 203.
- (106) ابن الأثير. الكامل في التاريخ. ج 5. ص 664.
- (107) الطبري. تاريخ الأمم والملوك. ج 8. ص 52.
- (108) المسعودي. مروج الذهب. ج 3. ص 164-165.
- (109) الطبري. تاريخ الأمم والملوك. ج 8. ص 51.
- (110) الزركلي. الأعلام. ج 9. ص 141.
- (111) المسعودي. مروج الذهب. ج 3. ص 164-165.
- (112) المصدر السابق. ج 3. ص 165.

- 
- (113) الكتبي. فوات الوفيات. ج.2. ص.69.
- (114) المسعودي. مروج الذهب. ج.3. ص.180.
- (115) ابن خلكان. وفيات الأعيان. ج.2. ص.420.
- (116) المصدر السابق. ص.420.
- (117) المسعودي. مروج الذهب. ج.3. ص.174.
- (118) الخطيب البغدادي. تاريخ بغداد. المجلد 1. ص.69.
- (119) الجاحظ. البيان والتبيين. ج.1. ص.207.
- (120) موجز دائرة المعارف الإسلامية. ج.24. ص.7504.
- (121) السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص.259. والزركلي. الأعلام. ج.5. ص.209.
- (122) حسن إبراهيم. تاريخ الإسلام. ج.1. ص.265.
- (123) فريد. أعلام السلف. ص.86.
- (124) السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص.260. والكتبي. وفيات الوفيات. ج.3. ص.133.

- 
- (125) ابن الأثير. الكامل في التاريخ. ج.5. ص.680.
- (126) المصدر السابق. ص.674.
- (127) المصدر السابق. ص.674.
- (128) الطبري. تاريخ الأمم والملوك. ج.8. ص.94.
- (129) الكتبي. وفيات الوفيات. ج.3. ص.134. فريد. أعلام السلف. ج.1. ص.86.  
والسيوطي. تاريخ الخلفاء. ص.260.
- (130) الزركلي. الأعلام. ج.5. ص.209. وممصاني. تراث الخلفاء. ص.76.
- (131) الممصاني: تراث الخلفاء الراشدين. ص.74-75.
- (132) ابن عساكر: تاريخ دمشق. ج.45. ص.143.
- (133) الكتبي: وفيات الوفيات. ج.3. ص.134. والذهبي. تاريخ الإسلام (وفيات  
101-120هـ). ص.190.
- (134) فريد. أعلام السلف. ج.1. ص.90.

- 
- (135) المحمصاني. تراث الخلفاء. ص 79.
- (136) الذهبي. تاريخ الإسلام (وفيات 101-120هـ). ص 197.
- (137) ابن عساكر. تاريخ دمشق. ج 45. ص 148.
- (138) ابن الأثير. الكامل في التاريخ. ج 5. ص 680.
- (139) ابن عساكر، تاريخ دمشق. ج 45. ص 148.
- (140) المحمصاني. تراث الخلفاء. ص 76.
- (141) المصدر السابق. ص 80.
- (142) المسعودي. مروج الذهب. ج 3. ص 188.
- (143) الزركلي. الأعلام. ج 8. ص 239.
- (144) الذهبي. تاريخ الإسلام (وفيات 101-120هـ). ص 279.
- (145) المصدر السابق. ص 279.
- (146) الطبري. تاريخ الأمم والملوك. ج 8. ص 138.

- 
- (147) المسعودي. مروج الذهب. ج3. ص202.
- (148) الطبري. تاريخ الأمم والملوك. ج8. ص139.
- (149) اليعقوبي. تاريخ اليعقوبي. ج2. ص230.
- (150) الجاحظ. البيان والتبيين. ج2. ص109.
- (151) المسعودي. مروج الذهب. ج3. ص211.
- (152) الطبري. تاريخ الأمم والملوك. ج8. ص250.
- (153) المصدر السابق. ص251.
- (154) المسعودي. مروج الذهب. ج3. ص210. والطبري. تاريخ الأمم والملوك. ص251.
- (155) ابن الأثير. الكامل في التاريخ. ج5. ص267. وابن كثير. البداية والنهاية. ج6. ص501.
- (156) الطبري. تاريخ الأمم والملوك. ج8. ص252.
- (157) الصفدي: الوافي بالوفيات. ج26. ص73.

---

(158) الطبري: تاريخ الأمم والملوك. ج.8. ص248.

(159) المصدر السابق. ص249.

(160) المصدر السابق. ص251.

(161) الذهبي: تاريخ الإسلام (وفيات 121-140هـ). ص295.

(162) الأصفهاني: الأغاني. ج.7. ص7.

(163) المصدر السابق. ص10.

(164) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون. ج.5. ص226.

(165) الذهبي: تاريخ الإسلام (وفيات 121-140هـ). ص288.

(166) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون. ج.5. ص226.

(167) الذهبي: تاريخ الإسلام (وفيات 121-140هـ). ص288.

(168) الأصفهاني: الأغاني. ج.7. ص12.

(169) ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار. ج.2. ص136.



(170) ابن اعثم الكوفي. الفتوح. ص 307.

(171) السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص 285.

(172) الزركلي. الأعلام. ج 9. ص 145.

(173) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج 5. ص 229.

(174) الذهبي. تاريخ الإسلام (وفيات 121-140هـ). ص 291.

(175) ابن أعثم الكوفي. الفتوح. ص 307.

(176) ابن طباطبا. الفخري (تاريخ الدول الإسلامية). ص 134-135.

(177) ابن خياط.

(178) تاريخ ابن خياط. ص 240. والجوابرة: موسوعة الخلفاء. ج 1. ص 194.

(179) المسعودي. مروج الذهب. ج 3. ص 226. والطبري. تاريخ الأمم والملوك. ج 8.

ص 312.

(180) الزركلي. الأعلام. ج 9. ص 248.

- (181) محمد السيد الوكيل. الأمويون بين الشرق والغرب. ج1. (بيروت: الدار السننية. ودمشق: دار القلم، 1995). ص596.
- (182) الطبري. تاريخ الأمم والملوك. ج8. ص292.
- (183) المسعودي. مروج الذهب. ج3. ص226.
- (184) الوكيل. الأمويون بين الشرق والغرب. ج1. ص597.
- (185) اليعقوبي. تاريخ اليعقوبي. ج2. ص235.
- (186) الوكيل. الأمويون بين الشرق والغرب. ج1. ص597.
- (187) ابن عساكر. تاريخ دمشق. ج7. ص247.
- (188) الصفدي. الوافي بالوفيات. ج25. ص307. وابن كثير. البداية والنهاية. ج7. ص17.
- (189) ابن كثير. البداية والنهاية. ج7. ص16. وابن عساكر. تاريخ دمشق. ج57. ص320.
- (190) السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص293.

- 
- (191) ابن كثير. البداية والنهاية. ج7. ص17.
- (192) ابن عساكر. تاريخ دمشق. ج57. ص332.
- (193) المصدر السابق. ص333.
- (194) الصفدي. الوافي بالوفيات. ج25. ص307.
- (195) ابن كثير. البداية والنهاية. ج7. ص18.
- (196) المصدر السابق. ص17. وابن عساكر. تاريخ دمشق. ج57. ص323.
- (197) ابن كثير. البداية والنهاية. ج7. ص18.
- (198) ابن عساكر. تاريخ دمشق. ج57. ص335.
- (199) الزركلي. الأعلام. ج4. ص258.
- (200) الكتبي. فوات الوفيات. ج2. ص215.
- (201) اليعقوبي. تاريخ اليعقوبي. ج2. ص252.
- (202) المسعودي. مروج الذهب. ج3. ص271.

- 
- (203) السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص 295.
- (204) المسعودي. مروج الذهب. ج 3. ص 263.
- (205) الجوابرة. موسوعة الخلفاء. ج 1. ص 208.
- (206) المسعودي. مروج الذهب. ج 3. ص 271.
- (207) الكتبي. فوات الوفيات. ج 2. ص 216.
- (208) اليعقوبي. تاريخ اليعقوبي. ج 2. ص 252.
- (209) الكتبي. فوات الوفيات. ج 2. ص 216.
- (210) السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص 298.
- (211) المصدر السابق. ص 299. وصلاح العاوور. التاريخ السياسي للخلافة العباسية. ص 125.
- (212) المسعودي. مروج الذهب. ج 3. ص 286.
- (213) الزركلي. الأعلام. ج 4. ص 259.

- 
- (214) البغدادي. تاريخ بغداد. ج10. ص54.
- (215) السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص303.
- (216) ابن قتيبة الدينوري. الإمامة والسياسة. ج1. ص 322-323.
- (217) ابن الأثير. الكامل في التاريخ. ج6. ص839.
- (218) السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص309.
- (219) ابن الأثير. الكامل في التاريخ. ج6. ص839.
- (220) الزركلي. الأعلام. ج4. ص258.
- (221) ابن الأثير. الكامل في التاريخ. ج6. ص839.
- (222) السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص308.
- (223) حسن ابراهيم. تاريخ الاسلام. ج2. ص38. وصلاح العاوور. ص195.
- (224) الجوابرة. موسوعة الخلفاء. ص219. والبغدادي: تاريخ بغداد (161-170هـ)  
ص436.

- 
- (225) الصفدي. الوافي بالوفيات. ج3. ص244.
- (226) ابن قتيبة الدينوري. الإمامة والسياسة. ج1. ص323.
- (227) المصدر السابق. ص324.
- (228) المسعودي. مروج الذهب. ج3. ص320.
- (229) حسن إبراهيم حسن. تاريخ الإسلام. ج2. ص41.
- (230) السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص313.
- (231) البغدادي. تاريخ بغداد (161هـ-170هـ). ص439.
- (232) ابن الأثير. الكامل في التاريخ. ج6. ص853.
- (233) السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص321.
- (234) جورج زيدان. تاريخ التمدن الإسلامي. ج1. ص380.
- (235) الذهبي. تاريخ الإسلام (161-170هـ). ص479.
- (236) المسعودي. مروج الذهب. ج3. ص325.

---

(237) صلاح العاوور. التاريخ السياسي للخلافة العباسية. ص 209.

(238) الطبري. تاريخ الأمم والملوك. ج 10. ص 43.

(239) المصدر السابق. ص 43.

(240) ابن الأثير. الكامل في التاريخ. ج 6. ص 858.

(241) الطبري. تاريخ الأمم والملوك. ج 10. ص 44.

(242) المسعودي. مروج الذهب. ج 3. ص 325.

(243) حسن إبراهيم. تاريخ الإسلام. ج 2. ص 42.

(244) الطبري. تاريخ الأمم والملوك. ج 10. ص 44.

(245) المصدر السابق. ص 44. وابن الأثير: الكامل في التاريخ. ج 6. ص 859.

(246) الذهبي. تاريخ الإسلام (161هـ-170هـ). ص 480.

(247) المسعودي. مروج الذهب. ج 3. ص 325.

(248) حسن إبراهيم. تاريخ الإسلام. ج 2. ص 42.

- 
- (249) العث. تاريخ عصر الخلافة العباسية. ص 55.
- (250) الطبري. تاريخ الأمم والملوك. ج 10. ص 45.
- (251) المسعودي. مروج الذهب. ج 3. ص 327.
- (252) الطبري. تاريخ الأمم والملوك. ج 10. ص 45.
- (253) المصدر السابق. ص 45.
- (254) ابن الأثير. الكامل في التاريخ. ج 6. ص 859. والمسعودي. مروج الذهب. ج 3. ص 325.
- (255) الطبري. تاريخ الأمم والملوك. ج 10. ص 52.
- (256) اليعقوبي. تاريخ اليعقوبي. ج 2. ص 284.
- (257) حسن إبراهيم. تاريخ الإسلام. ج 2. ص 50.
- (258) ابن قتيبة الدينوري. الإمامة والسياسة. ج 1. ص 325.
- (259) تحسين حميد وصلاح عبد الهادي وآخرون. الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي. (مركز إسكندرية للكتاب، 2003). ص 93.



---

(260) ابن قتيبة الدينوري. الإمامة والسياسة. ج1. ص325.

(261) المصدر السابق. ص326.

(262) السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص326.

(263) الكتبي. فوات الوفيات. ج4. ص226-227.

(264) ابن قتيبة الدينوري. الإمامة والسياسة. ج1. ص228.

(265) الكتبي. فوات الوفيات. ج4. ص227.

(266) العاوور. التاريخ السياسي للخلافة العباسية. ص226.

(267) الجوابرة. موسوعة الخلفاء. ج1. ص234.

(268) حسن إبراهيم. تاريخ الإسلام. ج2. ص46.

(269) الدينوري. الإمامة والسياسة. ج1. ص325.

(270) المصدر السابق. ص228.

(271) السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص328.

- 
- (272) الذهبي. تاريخ الإسلام (وفيات 191-200هـ). ص 430.
- (273) السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص 329.
- (274) الذهبي. تاريخ الإسلام (وفيات 191-200هـ). ص 15.
- (275) السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص 326.
- (276) المصدر السابق. ص 327. والذهبي. تاريخ الإسلام (وفيات 191هـ-200هـ). ص 426.
- (277) شوقي أبو خليل. الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة. (بيروت: دمشق: دار الفكر، ط2، 1417-1996م). ص 406.
- (278) ياسين العمري. الروضة الفيحاء في تواريخ النساء. (بيروت: الدار العربية للموسوعات، ط1، 1987). ص 267.
- (279) حميد وآخرون. الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي. ص 95.
- (280) السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص 247.
- (281) ابن أعثم الكوفي. الفتوح. ص 405.

---

(282) المسعودي. مروج الذهب. ج.3. ص351.

(283) المصدر السابق. ص351.

(284) السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص345.

(285) المصدر السابق. ص346.

(286) البغدادي. تاريخ بغداد. ج.3. ص338.

(287) السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص339.

(288) المسعودي. مروج الذهب. ج.1. ص394-395.

(289) السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص345.

(290) العمري. الروضة الفيحاء في تواريخ النساء. ص267.

(291) السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص349. و**البغدادي**. تاريخ بغداد. ج.10. ص325.

(292) أحمد رفاعي. عصر المأمون. ج.1. (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،

1997). ص174.

(293) البغدادي. تاريخ بغداد. ج 10. ص 184-185. والسيوطي. تاريخ الخلفاء. ص 357.

(294) أبو منصور بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري. خاص الخاص. تقديم حسن

الأمين. (بيروت: دار مكتبة الحياة). ص 51.

(295) ابن الجوزي. الأذكياء. ص 57.

(296) المسعودي. مروج الذهب. ج 3. ص 432.

(297) اليعقوبي. مشاكل الناس لزمانهم. ص 27.

(298) البغدادي. تاريخ بغداد. ج 10. ص 235.

(299) السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص 350.

(300) المصدر السابق. ص 349.

(301) المصدر السابق. ص 374.

(302) ابن الجوزي. الأذكياء. ص 56-57.

(303) البغدادي: تاريخ بغداد. ج 10. ص 239.

- 
- (304) اليقوبي. مشاكلة الناس لزمانهم. ص 29.
- (305) المسعودي. مروج الذهب. ج 3. ص 419.
- (306) الجوابرة. موسوعة الخلفاء. ج 1. ص 266. حسن إبراهيم. تاريخ الإسلام. ج 2. ص 64.
- (307) الطبري. تاريخ الأمم الملوك. ج 11. ص 46.
- (308) الكتبي. فوات الوفيات. ج 4. ص 49. والبغدادي. تاريخ بغداد. ج 3. ص 343. والسيوطي. تاريخ الخلفاء. ص 377.
- (309) العاور. الدولة العربية الإسلامية. ص 97.
- (310) حسن إبراهيم. تاريخ الإسلام. ج 2. ص 65.
- (311) المسعودي. مروج الذهب. ج 3. ص 460.
- (312) البغدادي. تاريخ بغداد. ج 3. ص 346. والكتبي. فوات الوفيات. ج 4. ص 49.
- (313) السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص 378. والكتبي. فوات الوفيات. ج 4. ص 49.
- (314) العش. تاريخ عصر الخلافة العباسية. ص 101.

- 
- (315) السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص 381.
- (316) الكتبي. فوات الوفيات. ج 4. ص 49.
- (317) العشي. تاريخ عصر الخلافة العباسية. ص 99.
- (318) البغدادي. تاريخ بغداد. ج 3. ص 346.
- (319) ابن الأثير. الكامل في التاريخ. ج 6. ص 526.
- (320) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج 5. ص 557.
- (321) الطبري. تاريخ الأمم والملوك. ج 11. ص 126.
- (322) المصدر السابق. ص 126.
- (323) الجوايرة. موسوعة الخلفاء. ج 1. ص 270.
- (324) السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص 387.
- (325) المصدر السابق. ص 387.
- (326) المسعودي. مروج الذهب. ج 3. ص 491.

---

(327) السيوطي. تاريخ الخلفاء. ص388.

(328) المصدر السابق. ص390.

## الخليفة بأسرته

### (1) نماذج من الفترة الأموية

### (2) نماذج من الفترة العباسية

هناك صعوبة بالغة في الحديث عن العلاقات الأسرية داخل بيت الخليفة، وتكمن صعوبة الحديث عن هذا الموضوع بسبب قلة المعلومات المتوفرة خاصة فيما يتعلق بعلاقة الخليفة وزوجاته، إضافةً لوجود اختلاف واضح في طريقة تعامل كل خليفة مع أبنائه وزوجاته. هناك تقصير عند بعض الخلفاء في أداء مهماتهم الأبوية، وقد نتفهم هذا التقصير عند البعض بسبب انشغالهم بأمور الحكم، فخليفة مثل معاوية كونه حمل عبء تأسيس الدولة الأموية، ربما لم يكن لديه متسع من الوقت لمتابعة شؤون أبنائه، علماً أن هناك العديد من الأمثلة التي تشير بوضوح إلى رافة معاوية بأبنائه وبناته. فقد دخل عمرو بن العاص ذات مرة على معاوية وبين يديه ابنته عائشة، فقال عمرو بن العاص لمعاوية: "انبذها عنك، قال: ولم؟ قال: لأنهن يلدن الأعداء، ويقربن البعداء، ويورثن الضغائن، فقال: لا تقل ذلك يا عمرو فوالله، ما مَرَّضَ المرضي، ولا نذب الموتى، ولا أعان على الأحزان مثلهن، وإنك لو أجدت خالاً قد نفعه بنو أخته، فقال له عمرو: ما أعلمك إلا حبيبتهن إلي<sup>(1)</sup>. إن هذه الحادثة تدلنا على قرب معاوية من ابنته عائشة وعن نظرته الإيجابية للإناث. ونحن نعلم جيداً أن هذا غير مستغرب من معاوية الذي اتبع سياسة اللين مع رعيته فكيف لا يكون كذلك مع بناته. إن هذه



العلاقة المميزة بين معاوية وبناته تمثلت في أكثر من موقف، فمعاوية اهتم ببناته وحفيداته، خاصةً أنه حمل نظرة إيجابية عن البنات كما أشرنا، ونتيجةً لسياسة اللين التي اتبعتها معاوية مع بناته ارتبطن بهذا البيت وفضلنه على ما سواه، حتى أنهن فضلن مصلحة البيت السفياني على مصلحة أبنائهن وأزواجهن. إن الانتماء المتميز لهذا البيت يستدعي منا وقفة متعمقة، نذكر في هذا السياق موقف رملة بنت معاوية، وزوجة عمرو بن عثمان بن عفان وكان له منها ولدان "خالد وعثمان". مرض زوجها عمرو فعاده الناس، وكان من بين الزوار مروان بن الحكم الذي كان يطيل المكوث عنده، فشكّت رملة بالأمر فتتصتت عليهما في إحدى المرات لسماع ما يدور بينهما، فسمعت مروان وهو يحرض عمرو بن عثمان على معاوية وبنيه، وبأنهم سلبوا الخلافة من أبناء عثمان فقال له: "ما أخذ هؤلاء الخلافة إلا باسم أبيك فما يمنعك أن تنهض بحقك؟ فلنحن أكثر منهم رجالاً"<sup>(2)</sup>. وعدّد رجالات بني أمية حتى وصل لخالد وعثمان ابناها، فما كان من رملة إلا أن أبلغت والدها بذلك الحديث . وفي رواية أخرى قامت بزيارة والدها في الشام وهي غضبانة وأخبرته بما سمعت، فقالت: " فما زال يعد فضل رجال بني أبي العاص على بني حرب، حتى عدّ ابني عثمان وخالد ابني عمرو فتمنيت أنهما ماتا"<sup>(3)</sup>. فبعث معاوية الى مروان بعد أن عزله عن المدينة قائلاً له:

أوضاعٌ رجل فوق أخرى تعدنا	عديد الحصى ما إن تزال تكاثر
وأمكم تزجي تؤاماً لبعلها	وأم أخيكم نزره الولد عاقر

فكتب مروان لمعاوية راداً عليه بقوله: "أما بعد يا معاوية، فإنني أبو عشرة، وأخو عشرة، وعم عشرة، والسلام"<sup>(4)</sup>. لا بد لنا أن ننتبه الى هذه العقلية العربية التي تفخر بالأبناء (العزوة). وقد نفهم من خلال هذه المفاخرة الأسباب الكامنة وراء تعدد الزوجات وبالتالي الكثرة العددية للبيت المرواني بشكل خاص وبني أمية بشكل عام باستثناء معاوية.

أما عن علاقة معاوية مع أبنائه الذكور فكانت مختلفة بعض الشيء عن علاقته المتميزة مع بناته، فمعاوية على ما يظهر لم يكن على أفضل حال مع أبنائه الذكور، فيزيد الذي تربى عند أخواله بسبب انفصال معاوية عن زوجته "ميسون الكلبيّة" أم يزيد بعيداً عن رقابة والده الخليفة، إلا أننا لا نستطيع أن نجزم بأن معاوية لم يؤثر على ابنه البكر بشكل كبير، فعند تتبع شخصية يزيد نجد أن أخلاقه لا تشبه أخلاق أبيه وسياسته لا تشبه سياسته أبيه، حتى أن معاوية ورغم مفاخرته الدائمة بفصاحة ابنه وبلاغته كان دائماً يحاول تعليم ابنه أمور السياسة وما يجب عليه أن يفعله أثناء تعامله مع خصومه ومع محبيه. كما حرص معاوية على عرض كل ما واجهه من مسائل ومعضلات على ابنه، ومع ذلك لم يكن معاوية يأخذ برأي يزيد رغم حرصه الشديد على استشارته. فقد كان معاوية يهدف لاستشارة يزيد في أمور الدولة لتعويده على الإمساك بزمام الأمور بعد وفاته. إن كتب التاريخ وكتب الأدب العربي تظهر لنا العديد من المواقف التي طلب فيها معاوية مشورة ابنه يزيد، ولا يظهر معاوية بأي من هذه المواقف مؤيداً لرأي يزيد. ومن هذه الأمثلة الكثيرة نختار حادثة إرسال الأنصار كتاباً إلى معاوية بعد توليه الخلافة يذكرونه فيه بحقهم في العطاء، وكان الكتاب

موقِعاً باسم ثابت بن قيس، ومما جاء فيه: "حبست حقوقنا، واعتديت علينا، وظلمتنا ومالنا إليك ذنبٌ إلا نصرتنا للنبي"<sup>(5)</sup>. بعد قراءة معاوية للكتاب دفعه إلى ابنه يزيد ليقرأه، واستشاره معاوية بكيفية الرد فما كان من يزيد إلا أن أشار على والده بصلب ثابت بن قيس على بابه، أما كبار أهل الشام فأشاروا على معاوية بإحضار ابن قيس إلى قصر معاوية وصلبه أمام الناس. فما كان من معاوية إلا أن قام بإرسال كتابٍ لثابت بن قيس أشار فيه إلى فهم الرسالة الموجودة في كتابه، وطلب منه مهلةً مدتها ثلاثة أيام للرد على الكتاب، وما كان منه سوى أن قام بإرسال العطاء لأهل المدينة في اليوم الرابع للمهلة التي طلبها للأنصار<sup>(6)</sup>. إن ما يشير بوضوح إلى وجود فرق شاسع في طريقة التفكير التي تعامل فيها معاوية مع الغاضبين عليه والمعارضين لحكمه، وبين ما أشار عليه يزيد، ومن هنا نفهم عقلية يزيد التي فضلت ضرب الكعبة بالمنجنيق فيما بعد للقضاء على الثورة التي قامت ضده.

في بعض الحالات غضب معاوية من ابنه فهجره، فاستدعى معاوية الأحنف بن قيس وسأله قائلاً: "يا أبا بحر، ما تقول في الولد؟"<sup>(7)</sup> فقال له الأحنف بن قيس: يا أمير المؤمنين أولادنا ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم سماء ظليل وأرض ذليلة فإن غضبوا فأرضهم، وإن سألوا فأعطهم، ولا تكن قفلاً، فيملوا حياتك ويتمنوا موتك"<sup>(8)</sup>. إن معاوية بسؤاله عن الولد يظهر لنا جانباً لم نعرفه عنه، فهو على ما يبدو يريد الاستزادة في مجال يجهله، وربما استشار الأحنف في موضوع الأبناء لعدم قدرته على التصرف مع يزيد الذي من الواضح أنه اعتاد على نيل كل ما يريد، وهذا حال معظم أبناء الخلفاء. فكان معاوية

يهدف إلى إسعاد ابنه حتى لو كان ذلك على حساب غيره من المسلمين. ومن الأمثلة على ذلك ما فعله معاوية عندما رغب يزيد بالزواج من إحدى النساء، فقد أسرَّ يزيد لأحد وصفاء والده بأن معاوية مقصر في حقه فما كان من الوصيف إلا أن أخبر معاوية بالأمر، فأرسل معاوية في طلب ابنه لاستيضاح الأمر، فأخبر أباه بأنه يحب امرأة تدعى أرينب بنت أسحاق لكثرة ما سمع عن جمالها علماً أنها قد تزوجت من ابن عمها عبد الله بن سلام، الذي كان والياً لمعاوية على العراق ومن فضلاء قريش، وعندما علم معاوية بأمر حب يزيد لزوجة عبد الله، تحايل على عبد الله فأرسل في طلبه من العراق، وأحضر أبو الدرداء وأبو هريرة وأخبرهما برغبته بتزويج ابنته من عبد الله وأدخلهما على ابنته فسألها عن قبولها بالزواج من عبد الله بن سلام، فقبلت بذلك على شرط أن يطلق زوجته. فلما حضر عبد الله للشام أخبره أبو هريرة وأبو الدرداء بالأمر فما كان منه إلا أن قبل وطلق زوجته ليحظى ببنت معاوية، إلا أن بنت معاوية رفضت الزواج منه حسب الخطة التي رسمها لها والدها وأدخل عليها أبا هريرة وأبا الدرداء ليسمعا بنفسهما ما قالت مع أسفه لما حدث، فأخبرتهما بأنها كانت تمتحنه بسؤالها تطليق زوجته، وشاع هذا الخبر بين الناس وقالوا "خدعه معاوية حتى طلق امرأته، وإنما أرادها لابنه، فبئس من استرعاه الله أمر عباده، ومكنه في بلاده"<sup>(9)</sup>، فما كان من معاوية إلا أن رد عليهم منكرًا خداعه. ولما انقضت عدتها أرسل معاوية في خطبتها لابنه يزيد وفي نفس الوقت تقدم لها الحسين بن علي وكان أبا الدرداء من خطبها للثنتين. فقبلت بالحسين زوجها فغضب معاوية وذهبت حيلته هباءً. وكان زوجها الأول قد استودعها أموالاً له قبل

سفره لمعاوية فطلب من الحسين أن يدخل عليها كي يطلب أمواله منها فأذن له الحسين بمحادثتها، وعند دخوله عليهما وجدهما يبكيان فما كان منه سوى تطليقها وردها لعبد الله، ولم يأخذ الحسين من مهرها شيئاً، وعرضت عليه هي وعبد الله تعويضه بالمال عن خسارته بزواجه منها، فرفض وبارك زواجهما. إن هذه القصة التي يوردها ابن قتيبة الدينوري بكتابه الإمامة والسياسة تكشف لنا مدى حب معاوية ليزيد ودلاله له.

إن معاوية الذي دلت ابنة وفضله على إخوته من الذكور، لم يفضله على نفسه. فمعاوية كان يسعى لإرضاء نفسه بالدرجة الأولى، فقد كان معاوية يحب زوجته فاخنة بنت قرظ حباً شديداً، وذات يوم جرى بينها وبين يزيد كلاماً، فأغلظ لها يزيد في القول، فغضبت وقامت من مجلسها، فتنبعا معاوية ببصره وقال لابنه: "يا بني، إنه ليس لأبيك صبر عما ترى، فأحسن حمل رأسك"<sup>(10)</sup>. إن معاوية أراد من ابنة أن يعامل زوجته باحترام وأن لا يثير المشاكل معها لأن معاوية لا يستطيع العيش دونها، إن هذه القصة تبين لنا جزءاً من العلاقات التي سادت بيوت الخلفاء، فالغيرة لم تكن منتشرة بين نساء القصر فحسب بل امتدت لتشمل النساء والرجال على حد سواء. إن يزيد الذي تربى بعيداً عن رقابة والده، حيث نشأ بين أخواله وقضى معظم أيامه في البادية الشام تطبع بعادات وتقاليد أهلها البدو، وعندما تولى الخلافة كان بنواحي حمص، يركب جملًا ولم يكن عليه عمامة ولا سيف<sup>(11)</sup>. إن نشأة يزيد نشأة بدوية وقضاء معظم وقته في البادية دفعت الناس لنعته بالأعرابي. فقد قال الناس عند توليه الخلافة "هذا الأعرابي ولي الأمة"<sup>(12)</sup>.

لا نستطيع الجزم بأن معاوية لم يكن يهتم بيزيد الاهتمام اللازم ولكنّ الواقع يقول بأن معاوية ترك ليزيد متسعاً كبيراً من الحرية ليفعل ما يريد. كما أنه ترك لنفسه هامش كبير من الحرية في قصره. فكان ذات يوم يجلس مع الأحنف بن قيس فغنت جارية من جواريه، فما كان منه إلا أن طلب من الأحنف أن ينتظره لأنه لم يستطع أن يصبر عن الخلوة بالجارية التي غنته، قائلاً للأحنف: "يا أبا بحر لا ترم حتى أعود إليك، إنني لأطلب خلوة هذه فما أكاد أقدر على ذلك، ثم قام معاوية في إثرها"<sup>(13)</sup>، وكانت زوجته ابنة قرظة تراقبه من خلال عيونها المنتشرين في القصر، فما كان منها سوى أن تبعت معاوية وجرته من قميصه بعد أن نقل لها أحد عيونها ما حدث، وكان ذلك كله قد حدث أمام الأحنف، فطلب منها الأحنف أن ترأف بمعاوية لأنه يحبها فما أجابته بل أغلظت له الكلام. إن ما سبق الإشارة إليه يبين جزءاً من طبيعة الأجواء التي كانت تسود بيت معاوية. وحتى نرسم صورةً أوضح عن العلاقات الاجتماعية داخل هذا البيت يجب أن لا نغيب علاقة يزيد بأخواته. فقد ذكر أن عاتكة بنت معاوية ذهبت للحج، فرآها أحد الشعراء ونظم بها شعراً، واستمر بنظم الشعر حتى بعد عودتها إلى دمشق، ويقال بأن عاتكة أيضاً كانت ترأسه بأبيات من الشعر، وسمع معاوية بالخبر فما كان منه سوى أن أحضر الشاعر وهدده بيزيد، ولم يؤذيه ولم يؤذ ابنته، فكف الشاعر عن ذكرها<sup>(14)</sup>.

إن المتفحص للفترة الأموية يجد أن عبد الملك بن مروان يمثل حالة نموذجية للأب الحريص على أبنائه، ولا مجال لمقارنة أي خليفة في هذا الجانب مع عبد الملك بن مروان،

ويتساءل المرء كيف أمكن لعبد الملك أن ينشئ أبناءه بطريقة جيدة. فقد كان معظم أبنائه على إطلاع واسع بأمور وأيام العرب، إضافةً لفصاحتهم التي ورثوها عن أبيهم باستثناء الوليد الذي أشرنا سابقاً إلى ما حدث معه، حيث لم يدرك عبد الملك أهمية إرساله إلى البادية كونه الابن الأكبر، وذلك من فرط حبه له، وبالتالي تعلم عبد الملك من تجربته هذه وأدرك أهمية إرسال أبنائه إلى البادية ليتعلموا العربية. ويجدر التنويه هنا إلى أن عبد العزيز وهو أخو عبد الملك كان حريصاً على تربية ابنه عمر بنفس الطريقة التي ربي فيها عبد الملك أبناءه، الأمر الذي يدل على أن مروان بن الحكم، والدهما، قد رباهما بطريقة جيدة.

لعل ما يزيد الإعجاب بشخصية عبد الملك أن فترته كانت من أكثر الفترات الإسلامية خطورة، فقد شهدت العديد من الثورات ضده، بالإضافة لاستمراره بحركة الفتوحات وقيامه بعملية تعريب الدواوين، وتعريب النظام المالي، وبناءً على ذلك كنا نتوقع بأنه لم يكن لديه الوقت الكافي لمتابعة تربية أبنائه. ويذكر ابن كثير أن عبد الملك كان يسمع لأبنائه ما حفظوه من القرآن الكريم ومن الشعر حتى يتأكد من مواظبتهم على الحفظ، كما كان يخصص لأولاده أوقاتاً للسمر، إضافةً لتخصيص وقتاً لرعيته وحاشيته. وكان ذات ليلة في سمره مع أولاده وأهل بيته وخاصته، فقال لهم: ليقل كل منكم أحسن ما قيل في الشعر، وليفضل من رأى تفضيله، فأتشدوا وفضلوا<sup>(15)</sup>، فذكر بعضهم الأعشى، وبعضهم ذكر امرؤ القيس، وبعضهم أشاد بالنابغة الذبياني. فلما فرغوا، قال لهم: اشعر والله من هؤلاء جميعاً عندي الذي يقول:

وذي رحم قلمت أظافر ضغنه      بحلمي عنه وهو له حلم  
يحاول رغمي ولا يحاول غيره      وكالموت عندي أن يحل به الرغم  
فما زلت في ليني له وتعطفي      عليه كما تحنو على الولد الأم  
وأطفأ نار الحرب بيني وبينه      فأصبح بعد الحرب وهو لنا سلم

ف قيل له: "من قائل هذه الأبيات يا أمير المؤمنين؟ فقال: معن بن أوس المزني" (16).

نستطيع أن ندرك مما سبق كم كان عبد الملك أباً جيداً، فقد كان يجلس للسمر مع أهله وولده وخاصة، ولم يكن هذا من باب المؤانسة فقط بل كان أيضاً حريصاً على تعليمهم وعلى غرس القيم التي يريد في نفوسهم، فقد أراد أن يعلم أبناءه من خلال مناقشة شعرية بينهم، وبالتالي قياسه لمدى معرفتهم بفنون الشعر، وبأسماء الشعراء. إن ما قاله هو من شعر يهدف إلى تعليمهم وحثهم وتوصيتهم بضرورة صلة الرحم، وعض الطرف عن ذوي القربى، وبالتحديد عن الأخوة وتدعو لتحكيم العاطفة في التعامل مع الأخوة، ومن خلال هذا نفهم طبيعة العلاقة بين أبناء عبد الملك بن مروان.

كانت وصية عبد الملك الدائمة لأبنائه التآخي والتماسك وترك ما يمكن أن يعكر صفو هذه العلاقة، فلما شارف على الموت دعا أولاده وجلساءه وقال لهم: "يا بني أوصيكم بتقوى الله، فإن التقوى أزين حلية، وأحسن حلة، وليعطف الكبير على الصغير، وليعرف الصغير منكم حق الكبير، وإياكم والفرقة، فإن بها هلك الملوك الماضون، وذوو العز المتكبرون



وانظروا ابني مسلمة، حفظه الله، إذا قدم من أرض الروم، فاعرفوا له حق الجهاد في سبيل الله، وكذلك فاعرفوا لأخي محمد بن مروان حقه وسنه وأكرموا الحجاج بن يوسف...، وكونوا في الحرب أعواناً وعلى المعروف إخواناً<sup>(17)</sup>. كانت علاقة أبناء عبد الملك ببعضهم البعض جيدة، ومن يقرأ وصيته لهم يفهم الرسالة الواضحة التي أراد إيصالها لأبنائه فعندما تحدثنا عن الوليد، وسليمان، وهشام، كانوا جميعاً حريصين على استمرار هذه العلاقة الأخوية، رغم ما كان يشوبها من أزمات وعتاب في بعض الأحيان. ومن ذلك نخلص إلى أن عبد الملك كان مثلاً للأب الذي حرص على أن يبقى أبنائه دائماً كالعصبة الواحدة، ولعل ذلك يتجلى بحرصه على أبناء مسلمة الغائب في حربه مع الروم، ووصيته لأبنائه بضرورة حفظ الجميل لأخيهم المجاهد.

لم يكن عبد الملك حريصاً على وحدة الدم بين أبنائه، بل تابع تعليمهم ووجه نصائحه لمؤدبي أبنائه، فقال يوماً لمؤدب أولاده: "علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن وجنبهم السفلة فإنهم أسوأ الناس وأقلهم أدباً، وجنبهم الحشم فإنهم لهم مفسدة واحف شعورهم تغلظ رقابهم، وأطعمهم اللحم يقووا، وعلمهم الشعر يمجدوا وينجدوا، ومرهم أن يستاكوا عرضاً، وأن يمسوا الماء مصاً، ولا يعبوا عباً، وإذا احتجت أن تتناولهم بأدب فليكن ذلك في سرٍ لا يعلم به أحد من الحاشية فيهنونوا عليهم"<sup>(18)</sup>. إن المتفحص لهذه النصيحة يرى بأن المؤدب لم تقتصر مهمته على تعليم القرآن، والحساب والقراءة والكتابة فحسب، بل تعدتها لتشمل كل شؤون الحياة، فمؤدبي أبناء الخلفاء كانوا ملازمين لهم، وكان عليهم مراقبة تصرفاتهم ومتابعة

ما يأكلون ويشربون، وتعليمهم آداب الطعام والكلام والمنادمة. إن عبد الملك ومن خلال نصيحته قد أعطانا معلومات هامة عن أماكن التعليم لأبناء الخلفاء، فالواضح أن القصر هو المكان الذي كان أبناء الخلفاء يتلقون فيه تعليمهم، ولكن هذا لا يمنع من زيارة أماكن أخرى كحلقات العلم في المساجد وغيرها، ففي رواية أخرى يوردها ابن عساکر في نفس سياق النصائح التي أسداها عبد الملك للشعبي مؤدب أبنائه حيث قال له: "علمهم الشعر يمجّدوا وينجّدوا، وأطعمهم اللحم تشتدّ قلوبهم، وجز شعورهم تغلظ رقابهم، وجالس لهم الناس يناطقهم الكلام"<sup>(19)</sup>. من ذلك يتضح أن عبد الملك أراد لأبنائه أن يجالسوا الناس ويسمعوا منهم وقصد عبد الملك بذلك حضور مجالس العلم، التي كانت منتشرة في المساجد. وربما أشار عبد الملك لمجالس العلم التي كانت تعقد في بلاطه. ولعل رواية أخرى يرويها إسماعيل بن عبيد الله تشير بوضوح إلى أن المؤدب كان يلزم بيت الخليفة لتأديب أبنائه ويخصص له مكان خاص به داخل القصر. فقد ذكر بأنه كان يعلم أبناء عبد الملك من عاتكة (وفي الرواية التي ذكرها أبو الجهم قال: وهم يزيد ومروان ومعاوية بنو عبد الملك بن مروان). وأضاف إسماعيل: "فكنت جالسا على فراشي وهم بين يدي يتعلمون، إذ أقبل عبد الملك يمشي، ليس عليه رداء، فلما دنا قمت ليجلس، فقال: اجلس مكانك، وأتى بوسادة فجلس ينظر إليهم وهم يتعلمون، فقال له بنوه: يا أمير المؤمنين إنه قد شق علينا في التعليم، فإن رأيت أن تأذن لنا نلعب، فقال: تلعبون وقد مر على رأس أبيكم ما قد علمتم؟ لقد رأيتني أغزو مصعب بن الزبير، وعدوي كأمثال الجبال كثرة، وأنصاري من أهل الشام عامتهم أعداء لي، فأمكث

طويلاً، وقد ذهب عقلي، ثم يرده الله عليّ بعد طويل، أو بعد ساعة<sup>(20)</sup>. إن عبد الملك كان حريصاً على متابعة ومراقبة عملية تعليم أبنائه وما يتم تدريسهم إياه، ولم يسمح لهم باللعب رغم انشغاله بأمور خطيرة جداً، لأنه آمن بأن لا وقت لديهم ليضيعوه في اللعب إن أرادوا أن يكونوا خلفاء المستقبل. ونفهم من الرواية السابقة أنه كان لإسماعيل بن عبيد الله مكانة خاصة داخل القصر. إن عبد الملك لم يكن يميل من متابعة أبنائه وإسداء النصح لمؤدبيهم، والتدخل في تفاصيل حياتهم، فعندما يقول لإسماعيل بن عبيد الله بأن لا يطعم أبنائه السمن، ولا يطعمهم أي طعام إلا أخرجهم قبلها لقضاء حاجتهم، ما ذلك إلا دليل على اهتمامه بصحتهم، كما ركز على الجانب الأخلاقي، فإن وصاياه كانت واضحة بإبعادهم عن الكذب وإن كان فيه القتل<sup>(21)</sup>.

حرص عبد الملك على بناء شخصية أبنائه وصقلها حتى وهو على فراش الموت، فعندما دخل عليه الوليد وهو يحتضر، أخذ الوليد بالبكاء، فما كان منه إلا أن قال له: "ما هذا؟ أتحن حنين الجارية والأمة؟ إذا أنا مت فشمروا تزر واليس جلد النمر، وضع الأمور عند أقرانها، واحذر قریشاً"<sup>(22)</sup> وكرر وصيته له بالحرص على أخوته، نشير هنا إلى أن عبد الملك لم يكن حريصاً على علاقة الأخوة الذكور بعضهم ببعض، بل وصى الوليد بأخواته كذلك فقال: "وعليك بالإحسان إلى أخواتك، فأكرمهن، وأحبهن إليّ فاطمة وكان قد أعطاه قرطي ماريه والدره، ثم قال: اللهم أحفظني فيها"<sup>(23)</sup>. وكانت فاطمة قد تزوجت بعمر بن عبد العزيز ولم يتزوج عمر بغيرها من الحرائر.

تأثر الخلفاء كغيرهم من الآباء بما يحدث لأبنائهم من أحداث، فقد مات لعبد الملك ابن فجزع عليه جزعاً شديداً، وقال: "الحمد لله الذي يقتل أولادنا ونحبه"<sup>(24)</sup>. وصدق عبد الملك بن عمر حين قال: "ولد الناس أبناء وولد مروان أبا يعني عبد الملك"<sup>(25)</sup> فالخليفة العظيم الذي لم تتنيه واجباته ومهامه من الاهتمام والحرص على أبنائه، فقد قال عبد الله بن عبد الملك بن مروان: "كنا نسير مع أبينا في موكبه فيقول لنا سبحوا حتى نأتي تلك الشجرة، فنسبح حتى نأتي تلك الشجرة، فإذا رفعت لنا شجرة أخرى، قال: "كبروا حتى نأتي تلك الشجرة فنكبر، وكان يصنع ذلك بنا مرراً"<sup>(26)</sup>.

إن هذه العلاقة الأبوية التي ربطت عبد الملك بأبنائه، واكبتها علاقة أقوى بزوجته عاتكة بنت يزيد، وهناك الكثير من الروايات التي تحدثت عن هذا الجانب في حياة عبد الملك ولكننا نختار منها حادثة خروج عبد الملك لمواجهة مصعب بن الزبير. فقد كان عبد الملك يواجه الجيش تلو الجيش لمواجهة مصعب وكان مصعب يهزمهم، فقرر عبد الملك مواجهته بنفسه وقيادة جيشه، فلما أراد الركوب قامت إليه أم يزيد - عاتكة - فقالت له: "يا أمير المؤمنين لو أقمت وبعثت إليه لكان الرأي، فقال: ما إلى ذلك من سبيل، فلم تزل تمشي معه وتكلمه حتى قرب من الباب، فلما يئست منه، رجعت فبكت وبكى حشمها معها، فلما علا الصوت رجع إليها عبد الملك، فقال: وأنت أيضاً ممن يبكي"<sup>(27)</sup>. قاتل الله كثيراً، كأنه يرى يومنا هذا حيث يقول:

إذا ما أراد الغزو لم تثن همّه  
حصانٌ عليها نظمٌ درّ يزينها  
نهته فلما لم تر النهى عاقه  
بكت فبكى مما شجاها قطينها

ثم عزم عليها بالسكوت، وبعدها خرج. إن عبد الملك رغم خروجه لمواجهة مصعب، إلا أنه لم يخرج إلى هذا الأمر الجلل إلا بعد أن أوقف زوجته عن البكاء واطمأن عليها. هذه إحدى المواقف التي كانت بين الزوجين. لكننا نجد وجهاً آخر لهذه العلاقة التي تدخلت عوامل أخرى فيه، فعبد الملك الذي انتمى للفرع المرواني خشي من انتقال أموال زوجته إلى أقربائها من البيت السفيناني فما كان منه إلا أن طلب من عاتكة بنت يزيد أن تتنازل عن أموالها لأبنائها، فطلبت منه أن يدخل عليها مجموعة من الثقات لتشهدهم على ذلك. فوجه إليها مجموعة منهم، وكان من بينهم روح بن زنياع، فأبلغها روح الرسالة، فقالت: "يا روح إن بنيّ في غنى من مالي بأبيهم وموضعهم من الخلافة، ولكن أشهدكم أنني قد أوقفت جميع مالي على آل سفينان، فهم إلى ذلك أحوج لتغيّر حالهم، فخرج روح وقد تغير لونه فقال له عبد الملك: مالك؟ قال: وجهتني إلى معاوية جالس في أثوابه، وأخبره الخبر"<sup>(28)</sup>. إن روح شبه عاتكة بدهائها وتحيزها للبيت السفيناني بجدها معاوية. وموقف عاتكة لا يدل إلا على نكاء وحكمة، فهي لم ترفض طلب زوجها عبد الملك من البداية بل طلبت شهوداً على تنازلها، كي لا يقوم عبد الملك بإجبارها على شيء فما كان منها إلا أن أوقفت أموالها أمام الجميع لأبناء عائلتها وعزت ذلك إلى أن أبناءها لا يحتاجون لهذه الأموال. هنا نلاحظ مدى تحيز كل من عبد

الملك وعاتكة للبيت الذي ينتمي له كل منهما، على الرغم مما تصفه الكتب من كونهما زوجين متحابين.

إن أهم ما تميزت به شخصية عبد الملك حرصه على الأموال، وذلك إدراكاً منه لأهميتها في تدعيم الحكم، ولم يكن ياباً لو أنه ظهر بمكانة أقل من غيره من المسلمين مع أنه خليفته، لعل ما يشير إلى ذلك حادثة خروج زوجته عاتكة إلى الحج، فقد استأذنت منه للخروج إلى الحج، فأذن لها، وطلب منها أن تكتب حوائجها، وعندما علم أن عائشة بنت طلحة ستحج، طلب منها تأجيل حجها، كون عائشة من ثريات العرب بسبب ما ورثته وأخذته من أزواجها، لكن عاتكة رفضت تأجيل خروجها للحج، ورفعت حوائجها، وتهيأت للخروج، وبينما كانت عاتكة بين مكة والمدينة أقبل ركب في جماعة، ففرق جماعتها، فقالوا: "عائشة بنت طلحة، فإذا ذلك مع جارية من جواريتها، ثم جاء ركب في موكب مثله، فقيل: ماشطتها، ثم جاء موكب أعظم من ذلك، في ثلاثمئة راحلة، فقالت عاتكة: ما عند الله خير وأبقى<sup>(29)</sup>".

إن قول عاتكة يشير إلى نزعة دينية وخلق إسلامي تحلت به، لكننا لانستطيع أن نجزم بأن هذه هي حقيقة شعورها، ربما لم تجد ما يسعفها من الكلمات سوى ما قالتها، فهي زوجة الخليفة عبد الملك وابنة الخليفة يزيد بن معاوية ومع ذلك، ظهرت بمكانة أقل من عائشة بنت طلحة. كان بإمكان عبد الملك أن يجهزها بجهاز أفضل وبموكب يليق بزوجة الخليفة، لكن عبد الملك لم يكن يفعل ذلك من شدة بخله. لم يكن عبد الملك كغيره من الخلفاء الذين أسرفوا على أنفسهم ودفعوا أموالاً طائلة من أجل جارية أو الحصول على منفعة دنيوية. فقد خطب

امراة يقال لها زينب وهي "زينب بنت عبد الرحمن بن الحارث المخزومية"، ونافسه فيها رجل من أهل بيته، فأصدقها الرجل 20 ألف دينار، فتزوجته وتركت عبد الملك، فقال عبد الملك: "أرى النساء يذهب بهن المهور، ولو كان المهر واحداً ما وضعت المرأة نفسها إلا في الفضل، وما كانت زينب تذهب إلى فلان عني"<sup>(30)</sup>. وكتب إلى ولاته أن لا يزداد في المهر على 400 دينار. إن بخل عبد الملك ربما كان الدافع وراء حرمان بناته من ميراثهن. فقد أوصى عبد الملك ابنه الوليد بهنّ خيراً، ولكنه قال في وصيته: "إنه ليس للبنات شيء". قد نستطيع أن نتفهم طلب عبد الملك من زوجته عاتكة التنازل عما تملك لأبنائها، لكنه من الصعب قبول حرمان عبد الملك بناته من الميراث؟ فهل كانت له دوافع معينة خاصة إذا علمنا أنه كان له ثلاث بنات، وأن ابنته عائشة وهي أخت الوليد وسليمان أبناء ولادة، قد تزوجت من خالد بن يزيد بن معاوية. فهل أراد عبد الملك أن يرد الصاع لزوجه عاتكة التي حرمت أبناءها من ميراثها ومنحته لأهل بيتها؟ أم أن عبد الملك تصرف وفقاً لعقليته العربية التي كانت تميز بين الرجل والمرأة حتى في قضية الميراث؟.

في نفس الوقت حرص عبد الملك على تلبية رغبات أبنائه. فقد خطب لابنه الوليد، ابنة أحد فقهاء المدينة و يدعى سعيداً، فأبى سعيد تزويج ابنته للوليد، رافضاً حياة الترف التي عاشها الأمويون، فلم يزل عبد الملك يحتال عليه حتى ضربه مئة سوط في يوم بارد، وصبّ عليه جرة ماء، وألبسه جبة صوف<sup>(31)</sup>. وجدير بالذكر أن سعيد قد زوج ابنته من رجل صالح، وكان مهرها درهمين.

إن هذا الحب من الأب قابله حبُّ من الأبناء لو الدهم، فبعد موت عبد الملك دخل الوليد على زوجته أمنة بنت سعيد بن العاص وكانت امرأة فاضلة، فوجدها جالسة لا يظهر عليها الحزن لموت عبد الملك، فسألها الوليد عما يمنعها من البكاء على أمير المؤمنين؟ فقالت: وما أقول له إلا أن أدعو الله أن يحييه حتى يقتل لي أخاً آخر؟! فقال لها الوليد إي والله لقد كسرنا ثنياه، فأجابت بمعرفة ما حدث باستهزاء، فقال لها: الحقي بأهلك، فعبرت عن شعورها بالفرح لذلك بقولها: ألد من الدنيا وأيسر<sup>(32)</sup>.

إن عبد الملك هو من النماذج التي يمكن دراستها كمثال جيد على حرص الأب على أبنائه، والشيء نفسه يمكن أن يقال عن أبي جعفر المنصور في العصر العباسي، فقد حرص المنصور على تربية أبنائه بطريقة جيدة، وحرص على تعليمهم وتنقيفهم، وحرص المنصور على دعم شرعية ابنه وخليفته - المهدي - وذلك بتوفير الأموال اللازمة لذلك، إلا أن المنصور كان متشدداً في تربية أبنائه، فقد حرص على تربية أبنائه في أجواء تخلو من اللهو والعبث، فمنع ظهور أي نوع من أنواع اللهو في قصره. فقد ذكر ابن الأثير أنه لم يُرَ في دار المنصور لهو ولا شيء من قبيل اللهو واللعب أو العبث، إلا مرة واحدة، فقد رأى ابناً له وقد ركب راحلة، وهو صبي، وكان يمسك قوساً بيده وقد تشبه بصبي أعرابي، ووضع بين يديه ما يهديه الأعراب لبعضهم، واعتبر المنصور ذلك من عبث الملوك<sup>(33)</sup>.

رغم الأجواء المتشددة التي عاش فيها أبناء المنصور إلا أنه عاملهم برأفة وكان رحيماً بهم يتحمل ألعابهم وشقاوتهم، ويحافظ على مشاعرهم فقد نصح أطفاله قائلاً: "يا بني،



إذا رأيتني قد لبست ثيابي، أو رجعت من مجلسي فلا يدنون مني منكم أحد، مخافة أن أغره بشيء»<sup>(34)</sup>. فهم المنصور أن هناك فرقاً بين مهمته كخليفة ودوره كأب، وعليه التزاماً تجاه أبنائه، فهو كأب يرفق بأبنائه، وعندما يخرج للناس ويلبس ثياب الخلافة يتخلى عن دور الأب الرحيم ويلعب دور الخليفة الذي يتوجب على الناس أن يحترموه، فهو "ظل الله في أرضه" حسب قوله. قال سلام الأبرش وهو خادم في قصر المنصور عن ذلك، كان المنصور: "من أحسن الناس خلقاً، ما لم يخرج للناس، وأشد احتمالاً لما يكون من عبث الصبيان، فإذا لبس ثوبه اربدّ لونه، و احمرت عيناه"<sup>(35)</sup> وخرج للناس.

حرص المنصور على نسب أبنائه له حتى في أحلك أوقات حياته. فالمنصور الذي عرف بأبي جعفر، كان قد تزوج من امرأة من الأزديين وذلك أثناء الفترة الأموية، وكان قد تنكر بزري فلاح وعمل مع الفلاحين في الموصل، ولم تقبل به المرأة بدايةً، فرغبها بنفسه، وأخبرها بأنه رجل عالي القدر، وأنه من بيت شرف، وبقي يمنيها حتى أجابته وقبلت به زوجاً، وعندما حملت أعطاهم رقعة بخط يده، فيها نسبه وحقيقة أمره، وطلب منها إذا وضعت مولوداً ذكراً أن تسميه جعفرًا، وبأن تكنيه بعبد الله، وعندما وضعت المرأة حملها وكان ذكراً فتحت الرقعة وعرفت حقيقة زوجها وأنه كان متنكراً كونه ملاحق من قبل الأمويين، وعرفت أن نسب ابنها عريق. ونشأ جعفر مع أخواله ومع أمه، وكان ذكياً عاقلاً، فلما استخلف أبو العباس، قيل للمرأة "إن كنت صادقة في رقعتك وكان من كتبها صادقاً فإن زوجك أمير المؤمنين قالت: ما أدري صفوا لي صفة هذا الخليفة، قالوا غلامٌ حين أبقل وجهه، قالت: ليس

هو هو، فقيل فاستري إذا أمره<sup>(36)</sup>. ولم يلبث أبو العباس أن مات، وفي هذه الأثناء كان ابنها قد أقبل على الأدب، فتأدب وظرف، وأوصلته المقادير إلى بغداد، ودخل ديوان أبي أيوب كاتب المنصور، وعلى شأنه شيئاً فشيئاً حتى أصبح بين يدي أبي أيوب، وذات يوم أتى الديوان خادم للمنصور يطلب كاتباً يكتب بين يدي المنصور، فدخل الغلام فكتب، وكان المنصور ينظر إليه بتمعن بين الحين والآخر، فتأمله وأحبه، وأعجب بخطه، وكان الخادم يناديه دوماً ليكتب بين يدي المنصور وسأل المنصور الغلام يوماً؟ ما اسمك؟ قال: جعفر، فسأله عن أبيه، فلم يجبه، ثم أخبره قصته، وبأمر الرقعة وما فيها من نسبه، فساعة ذكر الرقعة تغير وجه المنصور، فقال له: وأين أمك، قال بالموصل، قال وأين تنزلون؟ قال في موقع كذا، قال تعرف فلاناً؟ قال نعم، هو إمام مسجد محلتنا، قال؟ أتعرف فلاناً قال نعم، خياط في مسجدنا، فذكر له مجموعة من أسماء قوم يعرفهم، والغلام يجيبه عنهم، فرأف المنصور بالغلام ولم يتمالك نفسه، فقال له فلانة بنت فلان من هي منك؟ قال: أمي، قال فلان: قال: خالي، فضمه إليه وبكى، وقال يا غلام لا تعلمن أبو أيوب ولا أحد من خلق الله ما دار بيني وبينك، انظر انظر، احذر احذر<sup>(37)</sup>. فنهض الغلام، فخرج فسأله أبو أيوب عما أخره عند المنصور، فأخبره جعفر أن المنصور أراد منه نسخ العديد من الكتب، ووصى أبو جعفر، أبا أيوب بالغلام خيراً، وكلما رأى المنصور أبا أيوب سأله عن الغلام، ووصاه به، حتى اشتعلت صدر أبي أيوب بالغيرة والحقد على الغلام، وكلما طلب الخادم من يكتب بين يدي الخليفة، بعث غلاماً غير جعفر، حتى أدرك المنصور أن أبا أيوب يحبس جعفر عنه، فطلب من خادمه

أن يحضر جعفر، ويخرجه من الديوان إذا اعترض أبو أيوب على ذلك، ففعل الخادم ذلك، فازداد أبو أيوب غضباً، وحقداً على جعفر، فقال جعفر لوالده: "يا أمير المؤمنين -جعلني الله فداك - قد تعرفت من أبي أيوب البغض والاستتقال بمكاني، وله غوائل لا يحيط بها علمي، وأنا أخافه على نفسي. فقال له المنصور: بارك الله عليك، فما أخطأت الذي في نفسي، وهذا كله قد جال في صدري، فإذا كان غداً فتعرض لأن يغلظ لك، فإذا أغلظ لك فقم وانصرف كأنك مغضب، ولا تعد إلى الديوان واجعل وجهك إلى أمك، وأوصل إليها هذا العقد والكيس وكتابي هذا، واحمل أمك ومن اتبعها من قرابتك، واقبل وانزل موضع كذا، فإني منفذ إليك خادماً يتفقد أمورك ويعرف خبرك"<sup>(38)</sup>. فانصرف الغلام مسروراً من عند أبيه، فأخفى العقد وما معه، ثم دخل على أبي أيوب الذي شعر بما يعتري الغلام من سرور، فأغلظ له، فقام الغلام غاضباً وأخبره بأنه سيخرج من الديوان قبل أن يطرد منه، فاقتده أبو أيوب أياماً، ولم يسأل المنصور عنه أثناء غيابه، فأرسل أبو أيوب من يسأل عنه ليعلم خبره، فقيل له انه تجهز أحسن جهاز واتجه للموصل عائداً إلى أهله. فتساءل أبو أيوب عن مصدر رزقه، وأنه لم يكسب شيئاً كثيراً عنده، فمن أين له بالمال؟ فأرسل أبو أيوب خادماً ليتقص خبر جعفر - الغلام - ويقتله إن وجده. لسوء حظ جعفر أنه كان يستطيع المكان الذي يصل إليه فيمكث فيه اليوم واليومين، فكان من السهل أن يجده الرجل، فقتله وأرسل العقد والكتاب إلى أبي أيوب، وأخذ جعفر وطرحه في البئر، وعندما قرأ أبو أيوب كتاب المنصور وعرف أنه بخط المنصور، وندم على فعلته. ولما استنطال المنصور غيبة ابنه، أرسل خادماً من ثقافته ورجلاً

من خاصته لتقصي خبره، فلما عرف ما حدث له، مضيا إلى الموصل للبحث عن أمه، فسألاها عنه، فكانت لا تعرف شيئاً، ولما أخبراها، كادت أن تقتل نفسها بعده. ولما علم المنصور بخبر قتل ابنه، قام بقتل أبي أيوب وأهل بيته وأباد خضراءهم - معظمهم - واستصفي أموالهم جميعاً. وكان إذا ذكر أبا أيوب لعنه وسبه، وقال: "ذاك قاتل حبيبي"<sup>(39)</sup>. إن أبا جعفر حرص على حفظ نسب ابنه بل أمر ابنه بأن يحضر أمه وأهلها إلى القصر.

تكشف لنا هذه القصة أن هناك الكثير من الزيجات الخاصة بالخلفاء والتي لا نعرف شيئاً عنها وخاصة تلك التي كانت قبل تسلمهم الخلافة، وربما لولا هذه النهاية المأساوية لجعفر والعقوبة التي نزلت بأبي أيوب، لما عرف المؤرخون بقصة جعفر وأمه. رغم أن البعض قد يرى هذه القصة نوعاً من قصص الأدب العربي إلا أنها تبين طبيعة العلاقات التي سادت القصر وسهولة حياكة المؤامرات داخل أسوار القصر.

لقد منع المنصور أبناءه من أن يتصرفوا على هواهم. فقد منع العبث في القصر كما ذكرنا وذلك من باب الحرص على أبنائه، وقام بمنع أبنائه من شرب الخمر، وكان المنصور من الخلفاء القلائل الذين لم يشربوا الخمر، ولم يسمح بشربها لندمائه وضيوفه، فقد قدم بختيشوع الأكبر على المنصور ودخل عليه في قصره بباب الذهب ببغداد فأمر له بالطعام، فلما وضع الطعام سأل بختيشوع عن الشراب، فقيل له أن أمير المؤمنين لا يضع الشراب على مائدته، فقال: "لا آكل طعاماً ليس معه شراب"، فأخبروا المنصور بذلك، فقال دعوه فلما حضر العشاء لم يضعوا معه الشراب، فطلب الشراب من جديد، فقيل له: "لا يشرب على

مائدة أمير المؤمنين الشراب، فتعشى وشرب من ماء دجلة. فلما كان من الغد نظر إلى مائه فقال: ما كنت أحسب شيئاً يجزي من الشراب، فهذا ماء دجلة يجزي من الشراب"<sup>(40)</sup>.

ومما يثير الدهشة وصية المنصور لابنه المهدي حيث وصاه قائلاً: "إني لم أدع شيئاً إلا وقد تقدمت إليك فيه، وسأوصيك بخصالٍ وما أظنك تفعل منها واحدة"<sup>(41)</sup>. وفي هذا القول معرفة من المنصور بأحوال ابنه المهدي، وعدم ثقة به، فالمنصور شك في تحقيق المهدي لوصيته، وعلى الرغم من ذلك أوصاه بما يريد ليؤدي دوره الأبوي على أكمل ما يكون، فقد أسدى النصح لابنه قائلاً: "انظر إلى هذا السفط، فإن فيه علم آبائك، ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، فإن أهمك أمر فانظر إلى الدفتر الكبير، فإن أصبت ما تريد وإلا في الثاني والثالث حتى بلغ سبعة، فإن ثقل عليك فالكراسة الصغيرة، فإنك واجدٌ فيها ما تريد، وما أظنك تفعل! واقطن هذه المدينة، وإياك أن تستبدل بها غيرها، وقد جمعت لك فيها الأموال ما إن كسر عليك الخراج عشر سنين لكفاك لأرزاق الجند والنفقات ومصلحة الثغور والذرية ومصلحة البعوث، فاحتفظ به، فإنك ما تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً، وما أظنك تفعل! وأوصيك بأهل بيتك"<sup>(42)</sup>. ووصاه بشيئته خيراً وبملاحقة مناوئيه، وأكمل نصائحه له قائلاً: "وإياك وتأخير العمل إلى غدٍ فتتدارك عليك الأمور وتضيع، خذ في إحكام الأمور النازلات لأوقاتها أولاً أولاً وشمر فيها واعدد رجالاً بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار، ورجالاً بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل، وباشر الأمور بنفسك ولا تضجر ولا تكسل، واستعمل حسن الظن، وأسئ بعمالك وكتابك، وخذ نفسك بالتيقظ، وتفقد من أقمته على بابك، واستهل إنك للناس،

وانظر في أمر النزاع إليك ووكل بهم عيناً غير نائمة ونفساً غير لاهية، ولا تتم فإن أباك لم ينم منذ ولي الخلافة، ولا دخل عليه الغمض إلا وقلبه مستيقظ، هذه وصيتي إليك، والله خليفتي عليك<sup>(43)</sup>.

إن ما يؤخذ على المنصور بخله الشديد ليس فقط تجاه رعيته وخدمه بل تجاه أبنائه كذلك، فقد حرم أبناءه من أشياء كثيرة تمتع بها أبناء غيره من الخلفاء. يذكر أنه عندما فتح المنصور خزائنه التي كانت تحتوي على ما قبضه من مروان الحمار، فأحصى من ذلك اثني عشر ألف عدل خزّ، فأخرج من الخزائن ثوباً، وأمر بتفصيل جبة وقلنسوة له منها، وكان المهدي واقفاً، وأراد ثوباً مثله، فبخل المنصور بإخراج ثوب له، فلما تولى المهدي الخلافة أمر بكل "خزائن مروان" ففرقها على الموالي والخدم<sup>(44)</sup>. وجاء تصرف المهدي هذا كردة فعل على بخل المنصور وحرمانه الكثير من الأمور. إن حرص المنصور الزائد عن الحد خاصة فيما يتعلق بالأموال انقلب إلى العكس في فترة المهدي وذلك احتجاجاً وانتقاماً مما كان يعانيه المهدي من حرمان أيام والده. ونلاحظ ذلك من خلال ما تذكره المصادر عن كرم المهدي، بل الإنفاق الزائد عن الحد. وهذا ما أورثه المهدي لأبنائه وأحفاده من بعده، فالهادي والرشيد والأمين والمأمون نجدهم قد تعاملوا مع الأموال باستهتار شديد. كما أننا نجد أن المهدي قد خالف والده في الكثير من الأمور فاحتجب المنصور عن ندمائه في حين ظهر المهدي لهم. وترك قصره يعج بأنواع الملاهي وسمح للخمر بالظهور في القصر، وأنفق بلا حساب.

إن المهدي لم يكن المؤثر الوحيد على أبنائه فقد كانت الخيزران أم الهادي والرشيدي ذات تأثير كبير عليهم، وجدير بالذكر أن المنصور لم يكن يعلم بزواج ابنه المهدي من الخيزران، فقد تزوجها سراً، مع أن بعض الروايات تشير إلى أن المنصور هو من أهدى هذه الجارية إلى ابنه المهدي. وعندما توفي المنصور أعلن زواجه من الخيزران رسمياً. ويمكننا أن نتصور كيف نشأ أبناء المهدي وخاصةً أننا ذكرنا أن الرشيد قد تربى في أحضان البرامكة. إن تشدد المنصور في تربيته لأبنائه انقلب على ما يبدو رأساً على عقب عند ابنه، ولا ينطبق هذا على الجانب المادي فقط، بل انسحب على شرب الخمر كذلك. حرص المهدي على منع أبنائه من شرب الخمر، وأبعدهم عن اللهو، حيث كان يأمر عبد الله بن مالك صاحب الشرطة بضرب ندماء الهادي ومغنيه، لأنهم كانوا يلهون ويشربون الخمر<sup>(45)</sup>.

إن المهدي الذي لم يشرب الخمر في حياة والده حسب وصف المؤرخين، كانت حياته مليئة بأنواع أخرى من الملاهي مثل لهوه اللافت للنظر مع الجواري. ومما يؤخذ على المهدي سماحه لندمائه بشرب الخمر. إن حرص المهدي على عدم شرب أبنائه للخمر لم يكن ممكناً لعدة أسباب؛ لعل أهمها وجود الخمر في القصر وتوفرها بين يدي أبنائه، إضافة لذلك فالمنصور عندما منع أبناءه من شرب الخمر كان يراقبهم وقد وفر الأجواء المناسبة لمنع ذلك، بينما نرى المهدي مشغولاً بالصيد والجواري، وغيرها من الأمور التي حاول المهدي أن يشبع بها شهواته على حساب اهتمامه بأبنائه.

أما عند الحديث عن موقف أبناء المهدي من الخمر واللغو نجد أن معظمهم قد شربوا الخمر، على وجه الخصوص الهادي والرشيدي وإبراهيم، وقد ذكرت المصادر أن عليّة بنت المهدي قد شربت الخمر رغم ما توصف به من حسن الخلق والدين، وذلك بقولهم أنها لم تكن تغني أو تشرب الخمر إلا إذا كانت معتزلة الصلاة "فإذا طهرت أقبلت على الصلاة والقرآن وقراءة الكتب"<sup>(46)</sup>. إن الغريب هو وصف عليّة بأنها حسنة الخلق والدين مع شربها للخمر! على ما يبدو أن صفة التدين كان لها مقاييس مختلفة عن مقاييسنا الحالية! وقد يكون نعتها بالتدين قد جاء بناء على تحليل بعض الفقهاء للنبذ العراقي، ويكفي الإشارة هنا إلى ما جاء في رسائل الجاحظ عن هذا الموضوع فبعد أن عدد مزايا النبيذ وفوائده قال: "النبيذ غير الخمر، والشارع حرم الخمر فقط، ولم يحرم النبيذ، والإدعاء أن جميع الأشربة خمر يدل على الجهل والخلاعة. وقد يكون الشيء من جنس الحرام، فيعالج بضرب من العلاج حتى يتغير بلون يحدث له، ورائحة وطعم ونحو ذلك، فيتغير لذلك اسمه ويصير حلالاً"<sup>(47)</sup>. كما أضاف الجاحظ قائلاً: "إن الله حرم على الناس كثيراً من الأشياء وأباح لهم أجناسها الأخرى بما يناظره أو يعمل عملها أو ما يقرب منه ليغنيهم بالحلال عن الحرام". وزاد على ذلك قائلاً: "إن أهل المدينة الذين حرموا النبيذ ليسوا حجة على غيرهم لأنهم ليسوا ملائكة لا يخطئون. وعظم حق بلدتهم لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً. وأهل المدينة الذين أحلوا الغناء لم يجلدوا مغنيهم الذين كانوا يتغنون وقد ثملوا"<sup>(48)</sup>.



لعل ما يذكره الأصفهاني عن عليّة بنت المهدي هو ما يثير الإستغراب، فقد كان الرشيد وأخوه المنصور يوماً يشربان النبيذ، فدخلت عليهما جارية لعليّة أختهما وهي تحمل كأسين مملوءتان وتحيتان، وتبعها خادمٌ معه عوده، فغناهما من شعر عليّة، فشربا، وألقت لهما رقعة كتبت عليها عليّة الآتي: "صنعت يا سيدي أختكما هذا اللحن اليوم، وألقتّه على الجوّاري، واصطحبت فبعثت لكما به، وبعثت من شرابي إليكما ومن تحياتي وأحذق جواريّ لتغنيكما. هناكما الله وسركما وأطاب عيشكما وعيشي بكما"<sup>(49)</sup>.

إن سياسة المنصور المتشددة لعبت دوراً في ما ساد قصر المهدي لاحقاً من ظهور أنواع الملاهي وشرب الخمر، إلا أن تأثير الجوّاري كان له دوراً أعظم على نشأة أبناء الخلفاء، فمعظم أبناء المهدي كانوا أبناء جوّاري، إضافةً لما كانت تعج به القصور من أنواع الملاهي. إن المهدي الذي حاول تربية أبنائه بطريقة جيدة لم يفلح في ذلك لأنه لم يفهم طبيعتهم ولم يوفر لهم الجو المناسب كما فعل أبوه المنصور معه ومع أخوته، فقد كان المنصور يخصص وقتاً لأهل بيته وأولاده، كما كان يخصص وقتاً لرعيته. إن ما يؤخذ على المهدي يؤخذ على ابنه الرشيد، فالخليفة العظيم الرشيد لا يقارن من حيث تربيته لأبنائه بالخليفة المنصور. إن كل الخلفاء الأمويين والعباسيين قد اهتموا بتعليم أبنائهم أفضل تعليم، لأنهم اعتبروا التعليم هو المقياس الأهم والأساسي في أداء واجبهم تجاه أبنائهم، لقد اهتم الخلفاء بتربية أبنائهم على أسس أخلاقية معينة، بل وراقبوا تصرفاتهم.

لقد وكل المأمون "الفراء يحيى بن زياد عالم اللغة" بتلقين ابنه النحو، فأراد الفراء النهوض يوماً لقضاء بعض حوائجه، فما كان من ابني المأمون سوى التسابق في تقديم نعل الفراء له، فتنازعا أيهما يقدمه، ثم اصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما فرداً، فقدماهما. وكان للمأمون عين على كل شيء، فرفع خبر ذلك إليه، فطلب المأمون الفراء، وراجعه فيما فعله ابنه، فرد الفراء بالقول: "يا أمير المؤمنين لقد أردت منعهما من ذلك ولكن خشيت أن ادفعهما عن مكرمة سبقاً إليها، أو أكسر نفوسهما عن شريفة حصلنا عليها"<sup>(50)</sup>. فما كان من المأمون إلا أن قال له: "لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لوما وعتبا وألذمتك ذنباً، وما وضع ما فعلاه من شرفهما، بل رفع من قدرهما وتبين عن جوهرهما، وقد ثبتت لي مخيلة الفراسة بفعلهما فليس يكبر الرجل وإن كان كبيراً عن ثلاث، عن تواضعه لسلطانه ووالده، ومعلمه العلم، وقد عوضتهما عما فعلاه عشرين ألف دينار، ولك عشرة آلاف درهم على حسن أدبك لهما"<sup>(51)</sup>. يتضح هنا أن المأمون كان يراقب ولديه ويهتم بشؤونهما وسلوكهما على صعيد التعامل مع الناس والمعلمين.

إن قلة من الخلفاء قد اهتموا بالجانب السلوكي والأخلاقي فيما يتعلق بالتعامل مع الجوّاري. فعلى ما يبدو أن اهداء الآباء الجوّاري لأبنائهم كان أمراً طبيعياً، ولكن ما لا نفهمه هو المساحة الكبيرة من الحرية والعلنية في التعاطي مع موضوع الجوّاري، فقد وقف الرشيد يوماً بعد أن فرغ من طعامه، وجاريتته تصب الماء على يديه، والمأمون يقف إلى جانب والده، فما كان من المأمون إلا أن غمز الجارية، فارتعبت خوفاً من الرشيد وتلكأت في صب

الماء، فسألها الرشيد ما بها فلم تجبه، فأراد أن يوقع بها العقاب وسأل المأمون ما بها، فأخبره المأمون بما حدث، فكانت ردة فعل الرشيد أن طلب من ابنه المأمون الخلو بالجارية في إحدى الغرف القريبة<sup>(52)</sup>، وبعدها فعل المأمون ما طلبه منه والده، سأل الرشيد ابنه المأمون أن يصف له ما حدث بأبيات من الشعر، علماً أن هذه الحادثة حصلت والمأمون لم يتجاوز الخامسة عشر عاماً من عمره. ولنا أن نتساءل بعد ذلك كيف يمكن أن نلوم المأمون وحتى الأمين على العبث مع الجواري لاحقاً وخاصة أثناء فترة خلافتهم ولا بد من الإشارة إلى أنه كان عند الرشيد حوالي 4000 جارية قبل وفاته، وقد سار أبناؤه على نهجه، حتى أن المأمون قتل الفضل بن سهل وكان من المقربين له وبمثابة وزير، عندما ضايقه عندما أراد شراء جارية، وفي ذلك يقول المسعودي: "وغلّب على المأمون الفضل بن سهل حتى ضايقه في جارية أراد شراءها، فقتله، وادعى قوم أن المأمون دسّ عليه من قتله"<sup>(53)</sup>. والشيء الوحيد الذي خفف من تفرغ المأمون للجواري هو اهتمامه بالجدل والعلم، في حين اهتم الأمين بالصيد والشرب. من العوامل التي جعلت من الجواري جزءاً من حياة الخلفاء كثرة الغزو وبالتالي كثرة السبايا في ذلك العصر. إن هارون الرشيد الذي اعتاد الغزو في حياة والده حصل على الكثير من السبايا نتيجة حروبه وخاصةً توليه أمر الصائفة<sup>(54)</sup>.

إن نظرة الخلفاء للنساء اختلفت حسب طبيعة المرأة وطبقتها الإجتماعية، فعند الحديث عن جواري القصر نجد أن الخليفة لا يبالي بما يحدث للجارية ويمكن أن يهديها لابنه أو للمقربين منه، مع العلم أن الجواري كان لهن أثر كبير في العلاقات داخل القصر، وبالنسبة

للنساء الحرائر فكان الوضع مختلفاً فنرى الرشيد على سبيل المثال يقتل البرامكة بجريرة جعفر الذي تزوج العباسة أخت الخليفة بالسرة. وهناك قصة المرأة التي استتجبت بالمعتصم الذي فتح عمورية من الروم بهدف تحريرها. وكذلك الحال مع سليمان بن عبد الملك، فعندما علم أن الروم سيوا امرأة مسلمة وجماعة من ساحل حمص، غضب وقال: "والله لأغزونهم غزوة أفتح بها القسطنطينية أو أموت دون ذلك"<sup>(55)</sup>. وبعث الجيوش من مصر والشام والموصل وإفريقية في البحر لاسترداد هذه المرأة واسترداد كرامة المسلمين، وقدم بنفسه من القدس إلى دمشق، ومضى حتى نزل مرج دابق وبعث البعوث.

من الأشياء الجديرة بالاهتمام داخل قصور الخلفاء قضية تبذير الأموال، فلا يمكن بأي حال من الأحوال تجاهل مدى تبذير الأمين والمأمون للأموال وهذا لا يعود إلى تربية الرشيد لأبنائه فحسب بل يعود أيضاً إلى تربية المهدي لأبنائه. إن المصاعب التي واجهت المأمون في فترة حكمه لم تكن لتنتهي عن أسلوب حياته الذي اعتاد عليه منذ نعومة أظفاره. فالرشيد الذي كان يخرج ثلاث أعطيات للناس عند وصوله بيت الله الحرام عنه وعن الأمين والمأمون، وكان ينفق الأموال الطائلة على القريب والبعيد، فقد ذكر الصولي أن الرشيد تغدى ونام عند زوجته زبيدة، وخرج من عندها ضاحكاً، فقال الصولي له: "قد سرني سرور أمير المؤمنين، فقال: ما أضحك إلا تعجبا من هذه المرأة، أكلت عندها ونمت، فسمعت رنة، فقلت: ما هذه، قالوا 300 ألف دينار وردت من مصر، فقالت هبها لي يا ابن عم، فرفعتها إليها، فما برحت حتى عربدت، وقالت: أي خير رأيت منك"<sup>(56)</sup>. إن الرشيد أعطى زوجته كل ما جاءه

من أموال مصر دون أن يفكر في رفض طلب زوجته، إن هذا الإسراف انتقل إلى أبنائه، والرشيذ أخذه بدوره من أبيه المهدي.

لقد أثر هذا التبذير في المأمون بشكل كبير. فعند تتبع الوضع الاقتصادي في عهده نجد أنه واجه الكثير من المشاكل بسبب سلوكٍ اعتاد عليه في كل مراحل حياته، ولا نستطيع حصر الأمثلة التي تتحدث عن الأزمات المالية التي واجهها في عهده، فقد "أمر في يوم واحد لثلاثة نفر بألف ألف وخمس مئة ألف دينار، لكل واحد خمس مئة ألف دينار"، وقل المال في بيت المال، فجمع أصحابه، وقال: "أنه قد أقل وأضر ذلك بنا وبأوليائنا فاستقرضوا لنا من التجار مقدار عشرة آلاف درهم إلى أن تأتي الأموال فنردها، فقام غسان بن عباد فذكر ما أنعم به عليه وعرض ثلاثين ألف ألف درهم، وقال: هي حاصلة ما عندي، وقام حميد بن عبد الحميد الطوس وقال مثلما ذكروا، وقام آخرون، حتى بلغ ما عرضوا عليه "مئة ألف ألف وستة وخمسين ألف ألف درهم، فلم يقبل من احد منهم شيئاً، وجزاهم خيراً وتأخرت الأموال، وبُشِّرَ بموافاة مال خراج فارس فركب ينظر إليه، ثم فرقه كله، فلم يبق إلا مقدار إعطاء الجند"<sup>(57)</sup>. يتضح من هذا أن المأمون كان يفرق ولا يدرك إمكانية زوال النعمة عنه، لأنه ومنذ نعومة أظفاره اعتاد على مستوى معيشي معين ولم يشعر بالحاجة وهذا على عكس جده المنصور الذي عاش ظروفاً صعبة خاصةً وقت التحضير للدعوة العباسية، وملاحقة الأمويين له، وعلم أن المال هو الدعامة الأساسية للحكم لذا أوصى ابنه المهدي بأن يدفع المال لشيعته وبأن يحافظ على المال لأنه سيبقى عزيزاً طالما بقيت هذه الأموال معه.

إن ما يثير الإستغراب هو ما ذكرته المصادر التي اعتبرت ما كان يفعله المأمون وغيره من الخلفاء ضرباً من الجود والكرم رغم أن الجند ثاروا في عهده بسبب عدم دفع رواتبهم. لم يكن الرشيد وأبناؤه من يوصفون بهذا الكرم وحدهم! فالشيء نفسه يقال عن الهادي، فقد وصف ابن كثير الهادي فقال: "كان من أجود الناس"، ولو علمنا أن الهادي قد دخل على المهدي يوماً فمنحه المهدي 40 ألف دينار، ففرقها في أهله وأصدقائه من أهل بغداد والكوفة، ويضيف ابن كثير في روايته فيقول: "ثم خرج من الكوفة وما عليه قميص، إنما كان عليه فروة وليس تحتها قميص"<sup>(58)</sup>، يضرب ابن كثير هذا المثل ليدلل على مدى كرم الهادي حتى أنه خرج من الكوفة وقد تبرع بقميصه . وكما هو واضح فإن المهدي كان يعطي أبناءه ما يريدون ولم يحرمهم من شيء، وبالتالي هم بدورهم أنفقوا ما بأيديهم دون حساب. لقد أغدق الخلفاء وأبناؤهم كل هذه الأموال على الأعيان التي كان عدد أفرادها قليلون في حين عانى أفراد طبقة العامة من الفقر والحرمان. فقد دخل أحد المعاونين على المأمون، فقال له: "ما في بيت مال الصدقات درهم، وقد كثر الغارمون، فقال المأمون: وكيف لا يكثرون وثلاثة أرغفة بدرهم، وها هنا أناس لا حرفة لهم، ولا فضل من موسريهم على معسرهم؟ أما والله لقد شهدت أيام الرشيد والخراج أقل وأرذل، وأن فيها لأكثر من مائة يد بالخير طويلة، وبالعطايا سائلة، وللمعروف باذلة، وللأرحام واصلة"<sup>(59)</sup>. إن الناس كانت تتضور جوعاً في بعض الأحيان وقصور الخلافة مليئة بالنعيم، فالأمين الذي شغله اللهو بنى ميداناً حول قصر المنصور للصوالة، وعمل خمس حراقات في دجلة على شكل الأسد والفيل والعقاب والفرس

والحياة، فكم كلفه ذلك من أموال كان يستطيع من خلالها إطعام المئات من الأسر المسكينة، ولقد أمر الأمين ذات مرة لشاعر أنثده بـ 300 ألف دينار<sup>(60)</sup>. ليس هذا فحسب بل إن الأمين تشاغل عن قضاء حوائج الناس، فقد استبتأه الناس عندما ولي الخلافة، فقالوا تشاغل بالهوى، فخرج عليهم وأمضى أمورهم، وقال: "أتراني لا أعرف الإصدار والإيراد، ولكن شرب كأس، وسم أمس، والإستلقاء من غير نعاس أحب إليّ من مداراة الناس"<sup>(61)</sup>.

رغم أن هذا الترف كان هو السمة العامة داخل قصور الخلفاء إلا أننا نجد أن بعض أبناء الخلفاء قد هربوا من هذا النعيم ومن هذه الأجواء المليئة بملذات الحياة، التي لم تكن بأي حال من الأحوال قادرة على إشباع الجانب الروحي عندهم. ورغم قلة الروايات التي تصور لنا ذلك، إلا أن بعض الكتب الأدبية والصوفية تحدثت عن أبناء خلفاء فروا من نعيم القصور إلى شطف العيش، ومن ذلك ما حدث مع ابن هارون الرشيد، فقد كان للرشيد ابن يدعى علي لم تعجبه حياة الترف والبذخ التي عاشها والده، فهرب من القصر ليعيش صانعاً بسيطاً يعمل ويكسب قوت يومه، وذات يوم أصيب بالمرض، فطلب من أحد الذين عمل عندهم كأجير أن يعطي خاتمه "خاتم علي" للخليفة هارون الرشيد، وكان هذا الشخص يدعى عبد الله بن الفرج العابد، وقال له علي: "انظر يوم يركب هارون الرشيد فقفاً له في موضع يراك، فكلمه وأره الخاتم؛ فإنه سيدعو بك، فسلم إليه الخاتم ولا يكون هذا إلا بعد دفني"<sup>(62)</sup>. فلما مات فعل عبد الله ما طلبه منه علي، فلما مرّ الرشيد في موكبه، نادى عبد الله عليه وقال يا أمير المؤمنين لك عندي وديعة، ولوح بالخاتم، فأمر الرشيد بإحضار الرجل، وأبعد الرشيد كل من كان معه

بالدار، وقرب الرجل، فسأله: "من أنت؟ فقال: عبد الله بن الفرّج. فقال الرشيد: هذا الخاتم من أين لك؟ فحدثه الرجل عن قصة الشاب، فأخذ الرشيد بالبكاء، فيقول عبد الله واصفاً ذلك: "فجعل يبكي حتى رحمته، فلما أنس إليّ قلت: يا أمير المؤمنين من هو منك؟ قال: ابني. قلت: كيف صار إلى هذه الحال؟ قال: ولد لي قبل أن أبتلى بالخلافة، فنشأ نشوءاً حسناً وتعلم القرآن والعلم. فلما وليت الخلافة تركني، ولم ينل من دنياي شيئاً فدفعت إلى أمه هذا الخاتم، وهو ياقوت يسوى مالاً كثيراً، فدفعت إليه، وقلت: تدفعين هذا إليه، وكان برا بأمه، وتسألينه أن يكون معه، فلعله أن يحتاج إليه يوماً من الأيام فينتفع به. وتوفيت أمه فما عرفت له خبراً إلا ما أخبرتني به، أنت. ثم قال: إذا كان الليل فأخرج معي إلى قبره، فلما كان الليل خرج وحده معي يمشي حتى أتينا قبره، فجلس إليه، فبكى بكاءً شديداً، فلما طلع الفجر قمنا فرجع ثم قال: تعاهدني في الأيام حتى أزور قبره، فكنت أتعهده في الليل، فنخرج حتى نزوره، ثم نرجع"<sup>(63)</sup>. إن ما سبق يشير بوضوح إلى عدم رضا بعض أبناء الخلفاء عن ما كان يعيشه الخلفاء من ترف ونعيم.

إن الصورة السابقة تبين لنا حالة الترف التي عمت قصور الخلفاء ولكن هناك صورة مقابلة لم تكن هي القاعدة لكنها كانت موجودة، فهناك بعض الخلفاء ممن لم يترفوا أبناءهم وخاصةً بعد تربعهم على كرسي الخلافة مثال ذلك الخليفة عمر بن عبد العزيز، الذي قطع عن أهل بيته ما كانوا يحصلون عليه من أرزاق خاصةً ممن سبقه، قائلاً لهم "حقكم في هذا المال كحق أي رجل بأقصى البلاد"<sup>(64)</sup>. كما بلغه ذات مرة أن ابنا له اشترى خاتماً بألف



درهم، فكتب موبخاً: "بع الخاتم واشبع به ألف جائع. واشتر خاتماً من حديد بدرهم، واكتب عليه رحم الله إمرءاً عرف قدر نفسه"<sup>(65)</sup>.

إن المتتبع لسيرة الخلفاء يلحظ كثرة الوصايا الموجهة منهم لأبنائهم خاصة للابن الأكبر، وهنا نشير إلى عبد الملك بن مروان وكثرة وصاياه لأبنائه خاصة الوليد، والمنصور ووصاياه المختلفة للمهدي. في واقع الأمر فإننا نجد إن الخلفاء العظام من أمثال عمر بن الخطاب وعبد الملك وهشام والمنصور والرشيد والمأمون، قد حرصوا على إسداء النصح لأبنائهم، وهذا لا يعني أن خلفاء مثل يزيد، والوليد بن عبد الملك، ويزيد الناقص، والهادي، والأمين، وآخرون لم يسدوا النصائح لأبنائهم. هؤلاء الخلفاء كانوا يراقبون تحركات أبنائهم، كما كانوا على تماسٍ مباشرٍ معهم، فقد كتب عمر بن الخطاب لابنه عبد الله في غيبةٍ غابها: "أما بعد، فإنه من اتقى الله وقاه، ومن توكل عليه كفاه، ومن شكره زاده، ومن أقرضه جزاه، فاجعل التقوى جلاءً بصرك، وعماد ظهرك، فإنه لا عمل لمن لا نية له، ولا أجر لمن لا حسنةً له، ولا جديد لمن لا خلق له"<sup>(66)</sup>. إن عمر بن الخطاب كان على تماسٍ مباشرٍ مع ابنه عبد الله ونلاحظ ذلك من خلال ما ترويه لنا كتب التاريخ وبالتالي فلا داعي لأن يرسل عمر لابنه رسالة في سفره يذكره فيها بتقوى الله وبغيرها من الأمور، إن هذه الرسالة لا توضع إلا في باب حرص الأب على ابنه. وأسدى هشام بن عبد الملك النصيحة تلو النصيحة لأبنائه، وكانت تصب معظم نصائحه في باب توطيد الحكم، والتخلق بخلق حسن، كي يرى الناس في أبنائه مثلاً صالحاً لولاية العهد، وخاصةً مع وجود الوليد بن يزيد كولي للعهد، بهدف إضعاف

شرعية الوليد، مستغلاً تصرفاته غير اللائقة. فقد بلغ هشام يوماً أن الوليد قد فتح المصحف فقرأ "واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد" فنصب المصحف وخرقه، فكتب له هشام: "ويحك يا وليد، والله ما أدري على الإسلام أنت أم لا، ما تدع شيئاً من المنكر إلا أتيتَه"<sup>(67)</sup>، فكتب له الوليد:

يا أيها السائل عن ديننا                      نحن على دين أبي شاعر  
نشرّبها صرفاً وخمروية                      بالسخن أحياناً وبالفاطر

فغضب هشام على ابنه مسلمة وهو من قصده الوليد بقوله أبي شاعر، وقال هشام لمسلمة: "يعيرني بك الوليد، وأنا أرشحك للخلافة، فالزم الأدب، واحضر الجماعة"<sup>(68)</sup>، وولاه موسم الحج عام 117 للهجرة، فأظهر النسك والوقار واللين وقسم بمكة والمدينة أموالاً، فقال مولى لأهل المدينة:

يا أيها السائل عن ديننا                      نحن على دين أبي شاعر  
الواهب الجرد بأرسانها                      ليس بزنديق ولا كافر

وأراد التجريح بالوليد. إن العلاقة بين الوليد وعمه هشام هي مثال واضح لما كان يسود قصور الخلافة من علاقات حكمتها المصالح، وكان أهم مايشغل بال الخليفة وقتذاك، هو كيف يمكن أن يرفع أسهم ابنه "ولي العهد"، ويرفع من شأنه حتى لو أدى ذلك إلى تشويه صورة من يمتون له بعلاقات قرابة من الدرجة الأولى. بالتالي فإن معظم النصائح التي أسداها الخلفاء لأبنائهم انصبت حول الخلافة وأمورها. في حين نجد أن نصائح أخرى كانت

وما تزال جزءاً من الحكم التي تسدى للأبناء في كل وقت وزمان، مثل قول المنصور لابنه المهدي: "يا أبا عبد الله، لا تبرمن أمراً حتى تفكر فيه، فإن فكرة العاقل مرآة، تريه قبحه وحسنه"<sup>(69)</sup>.

هناك عدة قضايا تتعلق بموضوع أسرة الخليفة يجب الإشارة لها، لعل أهمها ما كان يندرج في الكتب التاريخية تحت بند ذكر أسماء زوجات وأبناء الخلفاء عند نهاية الترجمة لكل خليفة، علماً أن عدداً من الخلفاء لم يتم الترجمة لأسماء أبنائهم وزوجاتهم، وينطبق هذا على الخلفاء الذين جاءوا بعد الوليد بن عبد الملك، فخليفة مثل سليمان ويزيد، وعمر بن عبد العزيز، والوليد بن يزيد، ومروان بن محمد لم يتم ذكر أسماء زوجاتهم وأبنائهم، والسؤال الذي يطرح نفسه هو "لماذا لم يتبع هؤلاء المؤرخون نفس النهج في الترجمة لهؤلاء الخلفاء مقارنة مع الخلفاء الراشدين الذين تمت الترجمة لأسماء أولادهم وزوجاتهم"، قد يكون مبررهم في هذا فيما يتعلق بخلفاء مثل معاوية بن يزيد بن معاوية، وإبراهيم بن الوليد، أن بعض المؤرخين لم يعتبروهم خلفاء لقصر مدة خلافتهم، مع أن شخص مثل خالد بن يزيد شقيق معاوية حظي بنصيب جيد من المعلومات عن عائلته وأعماله، ولا نعرف عنه هو رغم تقلده الخلافة. قد يكون عدم ذكر الأبناء في بعض الحالات نتيجة طبيعة في حالة الخليفة سليمان بن عبد الملك ويزيد بن عبد الملك وحتى الوليد بن عبد الملك والشيء نفسه يقال عن الهادي فهؤلاء ماتوا في سن صغيرة وأبناؤهم كانوا صغاراً، فلم تهتم المصادر بذكرهم وخاصة أن المصادر تهتم بشخص الخليفة وهو في سدة الحكم وعندما يقتل أو يموت قلما تهتم المصادر

بأولاده، ونستدل على ذلك من الوليد بن يزيد الذي لم يخلف والده مباشرة لصغر سنه وكان عمره لا يتجاوز 15 عاماً وهذا ما يقال عن الآخرين.

إن الغريب حقاً هو كيف لا يتم الترجمة في كتب التاريخ لأبناء خلفاء مهمين مثل هشام بن عبد الملك والمهدي، علماً بأن كتب الأدب وغيرها من أنواع الكتب مليئة بقصص هشام والمهدي مع أبنائهم، والشيء نفسه ينطبق على المعتصم الذي تكتفي المصادر التاريخية بذكر عدد أبنائه وبناته وذلك عند الحديث عن الأشياء التي تميز بها هذا الخليفة وبأنه لقب بالمتنم لأنه أنجب ثمانية من الذكور وثمانية من الإناث، فهل تجنب المؤرخون أسماء الأبناء في نهاية الترجمة لهؤلاء الخلفاء كمحاولة منهم لتجنب ذكر أسماء أمهات هؤلاء الأبناء، وخاصةً أن مؤرخ مثل الطبري يذكر عادةً اسم ابن الخليفة ويذكر والدته، وبالتالي فأبناء الخلفاء من أمثال هشام والمهدي والمعتصم والمتوكل، معروفون ولكن غير معروف على وجه الدقة أسماء أمهاتهم، أو لا يراد الانتقاص من هؤلاء الخلفاء كون معظم أبنائهم وكما هو واضح كن أمهات أولاد أي جواري؟ في نفس الوقت لا تتخرج المصادر التاريخية من ذكر ذلك مثل هذه المعلومات عن خلفاء غير محبيين للمؤرخين أمثال الهادي الذي يذكر المؤرخون أن أنجب تسعة من الذكور وابتنان "لأمهات أولاد كلهم"<sup>(70)</sup>، وقد يكون السبب في عدم الحديث عن هذا الموضوع لعدم معرفة هؤلاء المؤرخين بالعدد الدقيق لأبناء هؤلاء الخلفاء ولعدم توفر معلومات عن أسماء أمهاتهم، كون أمهاتهم من الجواري اللواتي كن من الطبقات الدنيا في المجتمع، وقد نستنتج ذلك من خلال ما تذكره الكتب التاريخية عن الرشيد، ففي نهاية

ترجمة ابن الأثير للرشيد يذكر أسماء ستة من نسائه العربيات، ويذكر عدد أبنائه حيث يصلوا إلى 12 ولداً ويذكر اسم 15 من بناته ويختم الحديث عن هذا الموضوع بقوله: "ومات الرشيد على أربع مهائر زبيدة، أم محمد بنت صالح، وعباسة، والعثمانية"<sup>(71)</sup>، ونشير هنا إلى أن الرشيد تزوج "أمة العزيز" وهي أم ولد أخيه الهادي التي ولدت له علي فابن الأثير لم يذكر هذه الجارية لا في ترجمة الرشيد ولا في ترجمة الهادي. إن ما قيل عن الرشيد يقال أيضاً عن المنصور التي تذكر المصادر ستة من زوجاته ولم تذكر عددهن الكامل، ولكن عند ذكر أسماء أولاده تذكر أسماء أمهاتهم وبالتالي نتعرف على عدد أكبر من أمهات أولاده . فقد أورد الطبري ما يلي عن أبناء المنصور بقوله: "أولاد المنصور: المهدي محمد، جعفر الأكبر وأمهما أروى بنت منصور وكانت تكنى أم موسى، ومات جعفر قبل المنصور، وسليمان وعيسى ويعقوب وأمهم فاطمة بنت محمد من ولد طلحة بن عبيد الله. وجعفر الأصغر أمه أم ولد كردية وكان المنصور اشتراها فتسراها وكان يقال لابنها ابن الكردية. وصالح المسكين أمه أم ولد رومية يقال لها قالي الفراشة. والقاسم وقد مات قبل المنصور وهو ابن عشر سنين وأمها أم ولد تعرف بأم القاسم ولها بباب الشام بستان يعرف ببستان أم القاسم. والعالية أمها امرأة من بني أمية"<sup>(72)</sup>. مما سبق نرى بأن الطبري لم يكن يملك الكثير من المعلومات عن زوجات المنصور وعن أسمائهن ومع ذلك أفرد للموضوع عنواناً خاصاً عند حديثه عن المنصور. نفس الشيء يقال عن الرشيد. إن ما يقال عن الطبري وابن الأثير يقال عن ابن كثير والمسعودي واليعقوبي، مع فارق أحياناً عند اليعقوبي الذي يذكر أعداد الأولاد بشكل دائم

في نهاية الترجمة لكل خليفة، في حين لا يهتم كثيراً بذكر أسماء زوجات الخلفاء، هذا من جانب ومن جانب آخر نجد أن اليعقوبي لا يهتم بذكر الإناث ويسقطهن من حساباته عند الحديث عن أبناء الخلفاء، فهو على سبيل المثال يذكر أن سليمان بن عبد الملك قد خلف من الذكور عشرة ويذكرهم ولكنه لا يذكر أسماء بناته أو حتى عددهن وبالتالي لا نستطيع معرفة العدد الحقيقي لنسل سليمان خاصة أن المصادر الأخرى مثل الطبري وابن الأثير والمسعودي لم تذكر أصلاً أبناء سليمان. إضافة لذلك نلاحظ أن العدد الذي أشرنا له سابقاً عند اليعقوبي يسقط منه أبناء الجواري على ما يبدو في بعض الأحيان، فعند تتبع أعداد أبناء الخلفاء عند اليعقوبي نجد أنه دائماً يذكر أعداداً أقل مما تذكره المصادر الأخرى، مما يؤكد النظرة التي نظر بها المؤرخون لأبناء الجواري حتى لو كانوا أبناء خلفاء، وخاصةً في الفترة الأموية. في أحيان أخرى نجد اليعقوبي قد أسقط من ماتوا من أبناء في حياة آبائهم.

إن أعداد أبناء الخليفة الواحد أحياناً يختلف بين مؤرخ وآخر، وكتاب وآخر، ونذكر هنا مثال بسيط للتدليل على ما نقول، فالمسعودي يذكر أن للوليد بن عبد الملك كان أربعة عشر ولداً، في حين يذكر الطبري أنه كان له تسعة عشر ولداً. يجب الإشارة هنا إلى قضية هامة وهي أن أبناء عدد الخلفاء كانوا أكثر مما هو معروف لنا، وللتدليل على ما نقول تكفي الإشارة إلى قصة المنصور وابنه جعفر التي تم ذكرها سابقاً، وفي حالات أخرى تذكر المصادر عدد الأولاد أو البنات ولا تذكر أسماءهم، فعلى سبيل المثال يذكر الطبري أنه: "كان

للرشيد من مارده مع أبي إسحاق (المعتصم)، أبو إسماعيل، وأم حبيب وآخران لم يعرف اسماهما<sup>(73)</sup>.

ويورد اليعقوبي حين يذكر أن للمأمون ستة عشر من الأبناء الذكور ويذكر أسماءهم إلا أنه يذكر أمهات ثلاثة فقط منهم، حيث يذكر أن محمد الأكبر وأمّه هي ابنة معلّة، ومحمد الأصغر وعبيد الله وأمهما أم عيسى بنت موسى الهادي.

من كل ما ذكر أعلاه يجعل ما سيرد لاحقاً من أرقام حول أبناء وبنات الخلفاء ما هو إلا اجتهاد ومحاولة لعمل إحصاء مبسط. فمن خلال المعلومات المتوفرة عن الخلفاء في كتاب تاريخ الأمم والملوك للطبري، وكتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير، وابن عساكر في كتابه تاريخ مدينة دمشق، إضافة لكتاب تاريخ اليعقوبي، نجد أن معدل الإنجاب عند الخلفاء يصل إلى 13 ولداً وبناتاً، ومعدل الأولاد الذكور من بينهم يصل إلى حوالي 10، وهذا يعني بأن عدد الأولاد الذكور لبعض الخلفاء مثل عبد الملك وابنه الوليد قد زاد على ذلك وبلغ عدد أولادهم 19 لكل منهما، وبلغ عدد أبناء المأمون 16 من الذكور. ويأتي علي بن أبي طالب الذي أنجب 14 من الذكور في المرتبة الرابعة، في حين أنه جاء في المرتبة الأولى بعدد البنات، حيث أنجب 18 بنتاً، ويأتي بعده مباشرة الرشيد الذي أنجب 14 بنتاً، ومن ثم المعتصم الذي أنجب 8 من الإناث.

بالنسبة لمعدل عدد بنات الخلفاء فوصل إلى ثلاث بنات فقط وهو أمر مستحيل إذا ما قورنت هذه النسبة بعدد الذكور الذي ذكرنا عنه أنه يزيد على عشرة. والسبب في انخفاض

معدل الإناث هو عدم تسجيل المؤرخين لأسمائهن وأرقامهن بشكل دقيق. يفترض أن معدل أعدادهن قد تتجاوز العشرة أسوة بالذكور. وفي كثير من الأحيان خلطت المصادر حتى بأسمائهن فنجد أن العباسية بنت المهدي هي نفسها عليّة بنت المهدي مع أن بعض المصادر تتعامل معهما على أنهما شخصيتان منفصلتان. ففي أعلام النساء لرضوان دعبول يذكر أن عليّة بنت المهدي أخت هارون الرشيد أمها مكنونة، وأنها تزوجت من موسى بن عيسى، وعندما توفي ترك لها ثروة طائلة ويذكر أنها ولدت عام 160 هجرية - وتوفيت عام 210 هجرية<sup>(74)</sup>، في حين يذكر أن العباسية تزوجها محمد بن سليمان بن علي، ثم إبراهيم بن صالح وتوفيا عنها، ثم جاءت قصة زواجها من جعفر البرمكي المشهورة في التاريخ الإسلامي، ويذكر أنها توفيت عام 182 هجرية<sup>(75)</sup>. بالإضافة لذلك لم يتم الإشارة لبعض أسماء بعض بنات الخلفاء في الكتب التاريخية في حين ذكر بعضهن في كتب الأدب العربي، ومثال ذلك ما يذكر عن بنات معاوية بن أبي سفيان، فقد ذكر المسعودي أنه خلف يزيد وعبد الرحمن، وعبد الله، وهنداً، ورملة، وصفية، ولا يذكر ابنته عاتكة التي ذكرت سيرتها في كتب تراجم النساء، وذكرت كتب الأدب العربي بعض مواقفها. وابن كثير يتجاهل ذكر أسماء بنات مروان بن الحكم حيث يقول: "وكان له من الولد عبد الملك، وعبد العزيز، ومعاوية، وغير هؤلاء، وكان له عدة بنات من أمهات شتى"<sup>(76)</sup>.

وبالنسبة للخليفة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين لم يتم الإشارة إلى عدد بناته، ولكن عند تتبع أحداث آخر أيامه، تذكر المصادر أنه ترك ابنته أم عثمان في حران وكانت



متزوجة من ابن عمها إبان بن يزيد، في حين خرجت معه بناته الأخريات، وذكرت المصادر أن ابنته الكبرى دخلت في نقاشٍ مع صالح بن علي بعد مقتل والدها وكنّ قد بُعثن له كسبايا، فطلبت منه العفو، فعرض عليها وعلى أختها الزواج من ابنيه، فرفضتا، وطلبتا منه العودة إلى حران وعادتا<sup>(77)</sup>.

وفيما يتعلق بعدد زوجات الخلفاء فنجد أن هناك تقصير واضح من قبل المؤرخين في هذا الجانب أيضاً، فلم يتم الاهتمام بذكر أسمائهن أحياناً إلا عند الحديث عن أبنائهن وبالتالي فهذه الكتب لم تهتم بهن كزوجات خلفاء وإنما لكونهن أمهات لأبناء الخلفاء، وهنا لا بد من ذكر قصة زواج المأمون من بوران، التي يضرب المثل بمدى الإنفاق على عرسها ولم تذكرها المصادر عند الحديث عن زوجات المأمون في آخر ترجمته. وعند الحديث عن زوجات المنصور نجد عددهن أكبر في ثنايا المعلومات التاريخية من الرقم الذي ذكر في نهاية الترجمة له، إضافةً إلى ذلك ربما ذكرت المصادر نساء المنصور اللواتي أنجبن له ولم تذكر اللواتي لم ينجبن له، وما ذكر هنا عن المنصور ينسحب على كل الخلفاء فنادرًا ما نجد أن المصادر تذكر زوجة لخليفة لم يكن لها أولاد منه.

تجدر الإشارة إلى أن المنصور والسفاح يمثلان حالة استثنائية من حيث عدد الزيجات، وذلك لأن السفاح وعد زوجته بعدم الزواج بغيرها ووفى بوعده، في حين أن المنصور عمل نفس الشيء مع زوجته "أروى بنت منصور الحميرية، أم موسى"، فقد أخذت عليه الموائيق بعدم الزواج من غيرها، وحاول جاهداً أن يتصل من هذا الوعد والعهد، حتى

أن المصادر تذكر أنه كان يرسل للفقهاء والقضاة لكي يجدوا له مخرجاً من هذا الوعد الذي قطعه لزوجته، لكن زوجته كانت تتنبح ما يقوم به من خلال عيونها في القصر وكانت تسارع بإرسال العطايا إلى من يرسل لهم المنصور ليخرجوه من وعده الذي كان قد قطعه لزوجته، فما كان منها سوى إجزال العطاء لهم لكي لا يحنث المنصور بعهده. وبقي المنصور على هذا الحال حتى توفيت أم موسى بعد 10 سنوات من حكمه وفي نفس الليلة التي توفيت فيها زوجته أهديت له مائة بكر<sup>(78)</sup>.

عند تتبع ما ذكرته المصادر من أعداد زوجات الخلفاء نجد أن كل خليفة تزوج بأكثر من عشر زوجات بالمعدل، وقد ترتفع هذه النسبة بكثير لو علمنا أن المصادر لم تذكر عدد زوجات بعض الخلفاء ولم تذكر عدد جميع الزوجات في الحالات الأخرى. فعلى سبيل المثال نجد أن عدد زوجات هشام اللواتي نجد ترجمتهن في أعلام النساء 8 نساء فقط، مع العلم أنه ذكر عن نفسه: "قد أكلت الحلو والحامض حتى ما أجد لواحد منهما طعاماً، وشممت الطيب حتى ما أجد له رائحة، وأتيت النساء حتى ما أبالي امرأة أتيت أم حائطاً، فما وجدت شيئاً ألد إليّ من جليس تسقط بيني وبينه مؤنة التحفظ"<sup>(79)</sup>. إن ما يقال عن هشام يقال عن زوجات يزيد بن عبد الملك، فما تم إحصاءه من خلال ابن عساكر الذي أفرد قسماً خاصاً للنساء في كتابه تاريخ مدينة دمشق، ذكر فيه ثلاث زوجات ليزيد، مع أنه من الواضح أنه تزوج أكثر من هذا العدد بكثير، فهؤلاء الثلاث ذكرن لأنهن كن زوجات هشام وكن قبله زوجات يزيد وبالتالي فاللواتي لم يتزوجهن هشام من نساء يزيد لم يذكرن. على ما يبدو أن هشام قد حرص

على الزواج من زوجات غيره من الخلفاء، أو من من يمت لهن بصلة. وظاهرة الزواج بنساء الخلفاء تكررت في العصور الثلاث التي تخضع للدراسة. ومن الأمثلة على ذلك زواج هشام من "عبدة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية" وكانت عبدة قبل هشام زوجة ليزيد بن عبد الملك، وكانت من أجمل النساء وكان هشام يحبها وولدت لهشام<sup>(80)</sup>. وتزوج الوليد بن يزيد بن عبد الملك من "سلمى بنت سعيد" وكانت قبله عند عمه هشام. وتزوج هارون الرشيد من "أمة العزيز" وهي زوجة أخيه الهادي وهي التي أثارت غيرة الخيزران، وكانت من أسباب غضب الخيزران على ولدها الهادي.

هناك ظاهرة أخرى وهي زواج الخلفاء من أختين، فعلى سبيل المثال تزوج معاوية بن أبي سفيان من "كنود ابنة قرظ"، وكان قد تزوج قبلها "فاخته" أختها وكانت من أحب نسائه إليه، ومن اللافت للانتباه التضارب المتعلق بموتهن، ففي ترجمة الأختين كما يذكرها ابن عساكر في تاريخ دمشق، يذكر أن فاختة قد ماتت أثناء غزو معاوية لقبرص، ويعود ليذكر السبب نفسه عند الحديث عن موت كنود، في حين يذكر الطبري أن فاختة هي التي ماتت عند غزو معاوية لقبرص. وهذا الخلط لم يقتصر على هذه الحادثة بل تعداه إلى كثير من الحالات المتعلقة بنساء الخلفاء، فمثلاً تُذكر "مريّة" على أنها زوجة هشام، ويقال بأنها زوجة مروان بن محمد، في حين أن هناك من يقول بأنها ابنة مروان بن محمد<sup>(81)</sup>. ومما يستدعي الإنتباه أن الخليفة لم يكن ذلك الشخص الذي لا يرفض له طلب بل على العكس من ذلك فطلباته كانت ترفض بين الحين والآخر، فعلى سبيل المثال طلب معاوية الزواج من أم

الدرء بعد وفاة زوجها فرفضت. كما أن عبد الملك خطب زينب بنت هشام المخزومية فرفضت وتزوجت من رجلٍ آخر زاد في مهرها. وهناك من رفضن أو رفض وكلاؤهن تزويجهن بالخلفاء أو أبناء الخلفاء لأسباب دينية أو اجتماعية، فقد رفض أبو الدرداء زواج ابنته من يزيد بن معاوية فرده وأنكحها غيره، فقيل لأبي الدرداء: "أتركت يزيد وتكح فلاناً؟ فقال: ما ظنكم بابنة أبي الدرداء إذا قام على رأسها الخصيان، ونظرت في بيت يلتصع منها بصرها، أين دينها يومئذ؟"<sup>(82)</sup>.

إن ظاهرة تعدد الزوجات كانت تثير المشاكل للخلفاء وتثير الغيرة بين نساء وجواري الخليفة، خاصة أن الكثير منهن كنّ يسكن في نفس القصر. فقد ذكر الواقدي أنه دخل على المهدي يوماً فحدثه بأحاديث كتبها عنه، ثم دخل المهدي بيوت نساءه، ثم خرج وهو ممتلئ غضباً، فسأله الواقدي عن سبب غضبه فقال: "دخلت على الخيزران فقامت إلي ومزقت ثوبي وقالت: ما رأيت منك خيراً، وإني والله يا واقدي، إنما اشتريتها من نخاس وقد نالت عندي ما نالت، وقد بايعت لولديها بإمرة المؤمنين من بعدي. فقال له الواقدي: "يا أمير المؤمنين إن رسول الله "ص" قال: إنهن يغلبن الكرام، ويغلبهن اللئام. وقال: خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهله، وقد خلقت المرأة من ضلعٍ أعوج، إن قومته كسرتة"، وزاده بالكثير من هذا الكلام، فأعطاه ألفي دينار، فلما خرج من المنزل وإذا برسول الخيزران قد لحقه وأعطاه ألفي دينار. وأثواب أخرى وبعثت تتني عليه وتشكره على صنيعه"<sup>(83)</sup>. والشيء نفسه يقال عن هشام الذي تزوج من أم حكيم بنت يحيى وكانت قبله عند عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك،

وكان عبد العزيز قد طلقها وتزوج بنت لأبي بكر بن عبد الرحمن بن أبي بكر، وعندما توفي عبد العزيز تزوجها هشام وجمع بين بنت أبي بكر وأم الحكيم فقام بتطليق بنت أبي بكر فقال هشام لأم حكيم: "أرضيتك، أقدتك منها، طلقها عنك، كما طلقك عبد العزيز عنها، فولدت أم الحكيم لهشام: مسلمة، ومحمد ويزيد، وأم هشام وأم أبي بكر، وأم حكيم"<sup>(84)</sup>. هناك الكثير من القصص التي تروى عن غير نساء الخلفاء من بعضهن، ومن أمثلة ذلك ما رواه ابن عساکر في كتابه عن زوجات يزيد بن معاوية، فقد تزوج يزيد من أم مسكين بنت عمرو بن عاصم، فغارت منها زوجته أم هاشم وقعدت تبكي فقال لها يزيد:

مالك أم هاشم تبكين

باعت على بيعك أم مسكين

ميمونة من تسوه ميامين

في منزل كنت به تكونين

إن موضوع الترجمة لأبناء الخلفاء ونسائه من قبل المؤرخين يعطينا فكرة جيدة عن مكانة هذا الخليفة في التاريخ الإسلامي، فكل الخلفاء العظام من وجهة نظر المؤرخين تمت الترجمة لأولادهم ونسائهم، وقد وجدنا بأنه كلما اقتربنا من الفترة الإسلامية الأولى كانت الترجمة للخلفاء أكثر شمولية، وكان الاهتمام في هذه الفترة كان ينصب على التراجم، وساعد على ذلك اهتمام المسلمين بعلم التراجم، لارتباطها بعلوم الحديث والجرح والتعديل، وكلما ابتعدنا عن تلك الفترة يقل التركيز على لنساء وأولاد الخلفاء. وفيما يتعلق بالخلفاء من "الصف

الثاني والثالث" إن جاز التعبير، لا يترجم لهم المؤرخون بشكل كامل حتى أن ابن كثير يعنون الترجمة عن الخلفاء الذين لم يذكر أسماء أبنائهم ونساءهم وكامل أخبارهم بالقول: "بعض من ترجمة الخليفة".

## الهوامش

---

- (1) ابن قتيبة. عيون الأخبار. ج3. ص113.
- (2) ابن عساكر. تاريخ مدينة دمشق. ج69. ص155.
- (3) المصدر السابق. ج69. ص155.
- (4) المصدر السابق. ج69. ص156.
- (5) عبد العزيز الحميدي. التاريخ الإسلامي مواقف وعبر. ج17 (جدة: دار الأندلس، والإسكندرية: دار الدعوة. ط1، 1998-1419). ص537.
- (6) المصدر السابق. ص537.
- (7) محمد. موسوعة المرأة المسلمة. ج6. ص12.
- (8) ابن قتيبة. عيون الأخبار. ج3. ص63.

(9) ابن قتيبة الدينوري. الإمامة والسياسة. ج 1. ص 160. ابن عساكر. تاريخ دمشق. ج 70. ص 8.

(10) الذهبي. سير أعلام النبلاء. ج 4. ص 36.

(11) المصدر السابق. ص 37.

(12) ابن عساكر. تاريخ دمشق. ج 70. ص 7.

(13) رضوان دعبول. تراجم أعلام النساء. (بيروت: مؤسسة الرسالة، وعمان: دار البشير، 1998-1419). ص 9.

(14) أبو علي اسماعيل بن القاسم القالي. الأمالي. ج 2. (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ط 1. 1926-1344). ص 102.

(15) المصدر السابق. ص 102-103.

(16) ابن أعثم الكوفي. الفتوح. ج 3. ص 91.

(17) ابن قتيبة. عيون الأخبار. ج 2. ص 182، وابن عساكر. تاريخ دمشق. ج 37. ص 148.



---

(18) ابن عساكر. تاريخ دمشق. ج37. ص148.

(19) المصدر السابق. ص147.

(20) المصدر السابق. ص147.

(21) ابن كثير. البداية والنهاية. ج6. ص189.

(22) المصدر السابق. ص189.

(23) النيسابوري. كتاب خاص الخاص. ص50.

(24) ابن كثير. البداية والنهاية. ج6. ص185.

(25) ابن عساكر. تاريخ مدينة دمشق. ج37. ص139.

(26) القالي. الأمالي. ج2. ص13.

(27) ابن عساكر. تاريخ مدينة دمشق. ج69. ص247.

(28) المصدر السابق. ج69. ص247.

- 
- (29) المصدر السابق. ج. 69. ص 173.
- (30) الذهبي. سير أعلام النبلاء. ج. 4. ص 233.
- (31) ابن عساكر. تاريخ مدينة دمشق. ج. 70. ص 31.
- (32) ابن الأثير. الكامل في التاريخ. ج. 6. ص 838.
- (33) المصدر السابق. ص 838.
- (34) شهاب الدين النويري. نهاية الأرب في فنون الأدب. المجلد 10. ج. 22. ص 75.
- (35) ابن عساكر. تاريخ مدينة دمشق. ج. 32. ص 333.
- (36) المصدر السابق. ج. 32. ص 333-334.
- (37) المصدر السابق. ص 335.
- (38) المصدر السابق. ص 335.
- (39) الطبري. تاريخ الأمم والملوك. ج. 9. ص 280.

- 
- (40) النويري. نهاية الأرب في فنون الأدب. ج22. ص71.
- (41) المصدر السابق. ص71.
- (42) المصدر السابق. ص73.
- (43) الذهبي. سير أعلام النبلاء. ج7. ص402.
- (44) الطبري. تاريخ الأمم والملوك. ج10. ص44.
- (45) الأصفهاني. الأغاني. ج10. ص201.
- (46) أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ. رسائل الجاحظ. "الرسائل الأدبية". (بيروت: دار مكتبة الهلال). ص50.
- (47) المصدر السابق. ص51.
- (48) الأصفهاني. الأغاني. ج10. ص209.
- (49) الحميدي. التاريخ الإسلامي مواقف وعبر. ج17. ص504.

- 
- (50) المصدر السابق. ص 505.
- (51) الخطيب البغدادي. تاريخ بغداد. ج 10. ص 185.
- (52) المسعودي. مروج الذهب. ج 3. ص 416.
- (53) أبو عمرو ابن خياط بن أبي هريرة الليثي العصفري. تاريخ خليفة بن خياط. (بيروت: دار الكتب العلمية، 1995). ص 223.
- (54) الكتبي. فوات الوفيات والذيل عليها. ج 2. ص 70.
- (55) ابن الجوزي. المنتظم. ج 10. ص 278.
- (56) اليعقوبي. مشاكل الناس لزمانهم. ص 29-30.
- (57) ابن كثير. البداية والنهاية. ج 7. ص 144.
- (58) أبو حيان التوحيدي. أخلاق الوزيرين. (بيروت: دار صادر، 1992-1412). ص 488.
- (59) ابن الجوزي. المنتظم. ج 9. ص 224.

---

(60) المصدر السابق. ص224.

(61) موفق الدين ابن قدامة المقدسي. التوابين. (القاهرة: دار الأمين، ط1، 1414-1993).

ص145.

(62) المصدر السابق. ص145.

(63) محمضاني. تراث الخلفاء الراشدين. ص78.

(64) المصدر السابق. ص78.

(65) القالي. الأمالى. ج2. ص55.

(66) ابن أعثم الكوفي. الفتوح. ج3. 2113.

(67) المصدر السابق. ص2114.

(68) ابن عساكر. تاريخ مدينة دمشق. ج32. ص315.

(69) ابن الأثير. الكامل في التاريخ. ج6. ص858.

(70) المصدر السابق. ص888.

---

(71) الطبري. تاريخ الأمم والملوك. ج9. ص290.

(72) المصدر السابق. ج11. ص127.

(73) دعبول. تراجم أعلام النساء. ص305.

(74) المصدر السابق. ص289 .

(75) ابن كثير. البداية والنهاية. ج6. ص12.

(76) ابن الأثير. الكامل في التاريخ. ج5. ص427.

(77) الطبري. تاريخ الأمم والملوك. ج9. ص280.

(78) النويري. نهاية الأرب في فنون الأدب. ج4. ص4.

(79) ابن عساكر. تاريخ مدينة دمشق. ج70. ص263.

(80) المصدر السابق. ص122.

(81) المصدر السابق. ج69. ص115.

---

(82) ابن كثير . البداية والنهاية . ج 7 . ص 139 .

(83) ابن عساکر . تاریخ مدينة دمشق . ج 70 . ص 229 .

(84) المصدر السابق . ص 262 .

## الخاتمة

إن الحديث عن الخلفاء المسلمين يعتبر من المواضيع الشائكة والحساسة كونه يتناول خلفاء الدولة الإسلامية، التي تعتبر مقدسة لبعض الناس ويخيل للكثيرين بأن المستهدف من نقد الخلفاء هو نقد الدين الإسلامي كدين، والسبب في ذلك أنه وفي حالات كثيرة لا يتم التمييز بين الدين كتعاليم وشريعة ومنهج وبين السياسة وما يتعلق بها من نظام وتطبيق. ويرى البعض أن نقد الخلفاء لن يفيد ولن يقدم الكثير للأمة، بل يشوه صورة النموذج والمثال في عيون العرب والمسلمين. يفضل الكثيرون التركيز على القضايا الإيجابية عند هؤلاء الخلفاء حتى يبقى النظام الإسلامي الذي تم وصفه بالنظام العادل على مر العصور مصوناً من أي قصور. إن الدارس والمنتبع للتاريخ الإسلامي يجد أن هناك كثير من القضايا غيرا لمفهومة بل والمغيبة في بعض الأحيان، وقد يعتقد البعض ضرورة تغييب بعض المواضيع بل والتعتيم عليها من باب أن الستر أولى، وأن البحث في تاريخ أناس ماتوا ورحلوا عن هذه الحياة لا يغني ولا يضمن من جوع، متناسين أن القرآن الكريم ركز على قصص وحكايات تعود إلى العصور الغابرة وتتناول الأمم والشعوب المؤمنة وغير المؤمنة، كي يأخذ منها العاقل العبرة والعظة، ويحاول تجنب الأخطاء التي مر بها غيره. ومتناسين كذلك أنه لا يمكن الاستفادة من التاريخ إذا لم نعرفه على حقيقته على مر العصور. من هنا يمكن القول أن هدف هذا البحث



لم يكن تشويه صورة الخلفاء ولا التركيز على أخطائهم وعيوبهم، بل التركيز على واقعهم الذي عاشوه، لمعرفة الحقيقة التاريخية.

هناك تفاوت واضح في المعلومات المتوفرة عن الخلفاء، فهناك خلفاء تتوفر تفاصيل كثيرة عن حياتهم الشخصية، وعن أوقات فراغهم وما اتصفوا به وأسماء أولادهم وزوجاتهم ... الخ، في حين نجد أن خلفاء آخرين لا تتوفر عنهم إلا القليل من المعلومات. فالمعلومات التي تتحدث عن الخلفاء الراشدين الأربعة كثيرة ومتنوعة حيث تحدثت عن حياتهم وصفاتهم وأولادهم وزوجاتهم، ولا نجد لبعثاً كبيراً في المعلومات المتوفرة عنهم، وعلى ما يظهر فإن توفر المعلومات عنهم بكثرة يعود إلى منزلتهم في التاريخ الإسلامي وما لعبوه من دور كبير في بداية الدعوة ومكانتهم من الرسول محمد "ص". والمستقرئ للتاريخ الإسلامي يجد أن الفترة الأولى من ظهور الإسلام وتكوين الدولة الإسلامية، كانت غنية بالمعلومات عن الشخصيات التي قامت بنشر الدين الإسلامي ولا ينطبق هذا على الخلفاء الراشدين الأربعة وحسب، بل على كل من عاش تلك الفترة كونهم صحابة الرسول محمد "ص"، وبناء حضارة جديدة.

قد ينطبق ما ذكر أعلاه على أول الخلفاء الأمويين "معاوية" كونه ينتمي إلى عهد الرسول محمد "ص"، في حين أن خلفاء الدولة الأموية والعباسية يخضع الاهتمام بهم من قبل المؤرخين لأسباب أخرى. ومن الخلفاء الذين تتناول المصادر حياتهم بالتفصيل، "عبد الملك بن مروان، والمنصور، وهارون الرشيد، والمأمون". إن ما يربط بين هؤلاء الخلفاء

استمرارهم في الحكم لفترات طويلة، وبالتالي توفرت عنهم الكثير من المعلومات والقصص التي تناقلها الناس ومن ثم وثقها المؤرخون والأدباء. لعل ذلك ما جعل الكثير من المؤرخين يعتبرون هؤلاء الخلفاء من الخلفاء العظماء في التاريخ الإسلامي. إن الحديث عن هذا الموضوع ينقلنا للحديث عن مدة جلوس الخلفاء على كرسي الخلافة. فالخلفاء: عمر بن الخطاب، ومعاوية بن أبي سفيان، وعبد الملك بن مروان، وهشام بن عبد الملك، والمنصور، وهارون الرشيد، والمأمون، اعتبروا من أعظم الخلفاء على الإطلاق، وكلهم مكثوا فترة طويلة في الحكم. فمكوثهم فترة طويلة في الحكم جعل الناس يألّفونهم ويعتادون عليهم ويتناقلون أخبارهم، علاوة على ذلك فإن فتراتهم قد شهدت العديد من الأحداث التي وفرت كما جيداً من المعلومات عن دورهم في التاريخ. وهناك بعض الخلفاء ممن خفتت الأضواء عن فتراتهم، كون من سبقوهم كانوا أعظم منهم وخطفوا الأضواء منهم، ومن هؤلاء الوليد بن عبد الملك، والمهدي والمعتصم؛ فالوليد بن عبد الملك اعتبرت فترته استمراراً لفترة والده من حيث الإصلاحات وما قام به من الإعمار وإنشاء المباني الضخمة. إن ما ينطبق على عبد الملك وابنه الوليد، يقال عن المنصور وابنه المهدي، فالمهدي الذي خلف والده المنصور اعتبر مكملاً لفترة البناء التي بدأها والده. فرغم مكانة المهدي في التاريخ الإسلامي إلا أنه جاء أقل شأنًا من المنصور، وهذا ما يقال عن المعتصم الذي حكم لفترة زمنية طويلة نسبياً، لكن خلافته جاءت في ظلال خلافة المأمون. ولا يعتبر بمكانة خليفة مثل المأمون. إن ما يميز كلاً من عمر بن الخطاب ومعاوية وعبد الملك والمنصور والرشيد والمأمون، هو إنشاء وتثبيت

أنظمة حكم. فعمر بن الخطاب يعتبر المؤسس الحقيقي لنظام الخلافة الإسلامية، ويمكن القول بأن الخليفة أبو بكر الصديق وما حظي به من مكانة لا يعود بالدرجة الأولى إلى كونه تسلم الخلافة، بل يعود إلى دوره المتميز في الإسلام، وما ينطبق عليه ينطبق على عثمان بن عفان وعلى علي بن أبي طالب. أما عمر بن الخطاب فقد جمع بين التميز في الحكم، وتقديم دور كبير في بناء نظام الخلافة، إضافةً لكونه من الصحابة الأجلاء. أما بالنسبة لمعاوية بن أبي سفيان فقد انتزع الخلافة بكل جدارة من الصف الأول من الصحابة، ونقلها إلى البيت الأموي، وعمل على تأسيس نظام سياسي له ملامح خاصة، وبات هذا النظام بعيداً عن ما كان معروفاً أيام الخلفاء الراشدين. في حين أن عبد الملك بن مروان تميز عن غيره من الخلفاء كونه قد أسس ما يمكن أن يطلق عليه النظام الإسلامي العربي، وثبت الحكم للبيت مرواني، وتولى الخلافة بعده أربعة من أبنائه. إن الشيء نفسه يقال عن المنصور الذي اعتبره المؤرخون المؤسس الفعلي للخلافة العباسية، وبقيت الخلافة في نسله فترة طويلة من الزمن. أما هارون الرشيد والمأمون فيختلف الظرف التاريخي لكليهما، فهارون الرشيد أخذ الخلافة من أخيه الهادي، وكان على خلاف معه، واستطاع أن يورث الخلافة لثلاثة من أبنائه. أما المأمون فانتصر في المواجهة مع أخيه الأمين واستطاع أن يأخذ الخلافة منه. إن ما يجمع بين هؤلاء الخلفاء أن المصادر تتعنتهم بالعظماء، وكل خليفة منهم تولى الخلافة في الفترة الثانية للحكم، فعمر هو الخليفة الثاني في الفترة الراشدة، ومعاوية قبل توليه الخلافة كان والياً على بلاد الشام. أما عبد الملك فهو الخليفة الثاني في الفرع مرواني، والمنصور هو الخليفة الثاني بعد

السفاح، ومعظم من كان قبلهم حكموا لفترة محدودة تراوحت مابين سنتين إلى أربع سنوات، أي لم تكن هناك فترة كافية ليبرهنوا على عظمتهم في الحكم. إلا أنه توجد هناك بعض الحالات الاستثنائية، فخليفة مثل عثمان بن عفان حكم لمدة 12 سنة ومع ذلك لم يعتبر من الخلفاء العظماء كون فترته شهدت الكثير من الأمور التي أثارت الانتقاد حول خلافته. وعلى النقيض من ذلك، الخليفة أبو بكر الصديق، وعمر بن عبد العزيز، فقد تميز أبو بكر الصديق بشخصيته الرحيمة التي رفعت أسهمه عند المؤرخين إضافة لما ذكرناه من مكانة أبي بكر عند المسلمين. أما عمر بن عبد العزيز، فلم يتول الخلافة إلا لفترة لم تتجاوز السنتين، ومع ذلك حظي عمر بنظرة إيجابية لم يحظ بها غيره من الخلفاء، ويعود ذلك إلى ما أحدثه عمر من انقلاب في السياسة التي اتبعتها الأمويون. فقد جاء عمر بن عبد العزيز والناس قد وصلوا إلى حد الإشباع من الساسة الأمويين وتصرفاتهم السلبيّة التي سئموا منها. ونظر المؤرخون إلى عمر على أنه الخليفة الراشدي الخامس لما أحدثه من نقلة نوعية في السياسة الأموية والعودة إلى العهد الراشدي. في نفس الوقت نجد أن خليفة مثل يزيد بن الوليد "يزيد الناقص" لم يؤثر على الحكم كونه لم يستمر فيه سوى 6 أشهر، إلا أن قتله للوليد بن يزيد جعله في نظر الفقهاء وبعض المؤرخين أفضل من عمر بن عبد العزيز في التدوين.

إن التزام الخلفاء بالدين لم يكن دائماً مقياساً للحكم على الخلفاء بأنهم عظماء أم لا، فعثمان بن عفان كان من الصحابة وصهراً للرسول محمد "ص"، وكان من أتقى المسلمين وعندما قتل كان يقرأ القرآن، وكان صائماً، ومع ذلك لم يعتبر من الخلفاء العظام، في حين أن

خليفة مثل عبد الملك بن مروان الذي لا يشك في عظمته كخليفة أنه اتخذ موقفا معاكسا من الدين عند توليه الخلافة، فالمصادر الإسلامية تذكر أنه طلب من المسلمين ذات مرة بأن لا يطلبوا منه أن يتق الله، كما أنه عندما تولى الخلافة قام بإغلاق القرآن وقال "هذا آخر عهدي بك"، كما قام واليه الحجاج بن يوسف بضرب الكعبة بالمنجنيق، ومع ذلك لم يقل ذلك من شأنه عند المؤرخين المسلمين، وحتى عند المسلمين في عصرنا الحاضر. رغم أن المؤرخين لم يحكموا على خليفة بأنه عظيم أم لا لاعتبارات دينية إلا أنهم ميزوا في بعض الأحيان بعض الخلفاء على بعضهم لهذه الاعتبارات، ومن ذلك ما يقال عن خليفة مثل الرشيد الذي كان يحج سنة ويغزو سنة، وخليفة مثل المهدي الذي كان يختم القرآن ثلاثين مرة في رمضان، وكان حريصاً على أداء العبادات، ومن الملاحظ أن الرشيد والمهدي كان لهم علاقة قوية بالجواري واعتبرتهم المصادر من الخلفاء العظام والمهمين في التاريخ لذا كان من الواجب أن تخفف هذه المصادر من حدة ما هو معروف عن الرشيد والمهدي من لهو والتركيز على ما تميزوا به من تدين! وبالمقابل نرى أن بعض الخلفاء تم الإنتقاص من مكانتهم بسبب خروقا تهم الدينية وعلى رأس هؤلاء الخليفة الوليد بن يزيد، والأمين.

في الواقع إن الخلفاء الذين تم ذكر عيوبهم باستفاضة، والانتقاص من دينهم، هم من كانت نهايتهم القتل، ومن هؤلاء الخلفاء الوليد بن يزيد، والهادي، والأمين. إننا نرى أن كل من قتلوا لم ينالوا احترام المؤرخين، بل أن هذه المصادر لا تبقي ولا تذر شيئاً عند الحديث عن أعمالهم السلبية بل، وأحياناً لا يستطيع القارئ أن يصدق بعض ما جاء في بعض

المصادر عن أعمال قام بها هؤلاء، مثل قيام الوليد برمي القرآن بالسهام. إن جميع من وصف من الخلفاء بالعظمة ماتوا موتاً طبيعياً ولم يقتلوا قتلاً على أيد المسلمين، وتفتخر المصادر على سبيل المثال باستشهاد عمر بن الخطاب على يد شخص غير مسلم، في الوقت ذاته تحاول المصادر التبرير لقتلة عثمان بن عفان رغم مكانة عثمان في التاريخ الإسلامي. إن هذا لا ينطبق بالتأكيد على علي بن أبي طالب بسبب التفاف الشيعة حوله، وما أرخه الشيعة عنه وما أحاطوه به من قدسية، إضافةً لمقتله على يد حزب مناوئ للسلطة، وكذلك لمكانته عند المسلمين وقرابته من الرسول "ص". ويلاحظ أن المصادر لم تكتب بتوسع عن سلبيات الخلفاء الراشدين وذلك كما أسلفنا لمكانتهم واحترامهم كونهم من الصحابة، حتى عثمان الذي كان الجميع في تلك الفترة ينتقدون سياسته إلا أن المصادر حاولت التركيز على إيجابياته والتقليل بل وحتى تبرير سلبياته. نستنتج من ذلك أن الأساس في الحكم على نجاح الخلفاء أو عدم نجاحهم في الحكم مرتبط بطول أو قصر فترة حكمهم، إضافةً لموتهم بشكل طبيعي أم قتلاً من قبل المسلمين.

والسؤال الذي يطرح نفسه بناء على ما تقدم هل هناك ارتباط واضح بين نجاح الخليفة في الحكم، ونجاحه في حياته الشخصية واهتمامه بأسرته. فمن الخلفاء الذين نجحوا في تربية أولادهم، واهتموا بأسرهم، في الوقت نفسه كانوا ناجحين إدارياً وسياسياً، نذكر منهم عبد الملك بن مروان والمنصور. فقد اهتم هؤلاء بتخصيص وقت جيد لعائلاتهم، وحرصوا على تربية أبنائهم بطريقة جيدة وتأهيلهم للحكم من بعدهم. هذا إلى جانب معاملتهم لزوجاتهم

بطريقة جيدة، وليس ببعيد عن هؤلاء أبو بكر الصديق الذي كان رؤوفاً بأبنائه وبناته، وعمر بن الخطاب الذي حاول الحرص على أبنائه بل ومعاقبتهم إذا أخطأوا كغيرهم من المسلمين. لقد تميز الخلفاء الراشدون وعمر بن عبد العزيز في تفضيل مصلحة المسلمين على مصالح أبنائهم وزوجاتهم الشخصية، وذلك حرم أبناءهم ونساءهم من العيش في وضع أفضل مما عاشه غيرهم من الخلفاء، بل في أغلب الأحيان عاش أبناء زوجات الخلفاء الراشدين في وضع لم يكونوا يرضونه، وكان هناك بعض المحاولات من قبل بعضهم للاستفادة من منصب الخلافة، لكن حزم الخلفاء الراشدين معهم منع من تحقيق ذلك لهم. يمكن استثناء عثمان بن عفان مما ذكر سابقاً عن الخلفاء الراشدين كون عائلته بقيت محتفظة بنوع جيد من الرفاهية أثناء خلافته، إذا استثنينا ما عاشته أسرته من معاناة أثناء حصار المسلمين لعثمان في بيته.

أما فيما يتعلق بالخلفاء الآخرين فهناك عدد كبير من الخلفاء اعتنوا بأبنائهم ومنهم معاوية. وهشام والمهدي إلا أنهم لم يحققوا ما حققه عبد الملك والمنصور من سمعة وشهرة طيبة. حاول هارون الرشيد جاهداً أن يربي أبنائه بطريقة جيدة رغم بعض المآخذ عليه. يمكن القول بأن معظم الخلفاء اهتموا بتربية أبنائهم وركزوا على الجانب التعليمي كأساس للمفاضلة في تربية أبنائهم. لكن هناك فرقاً في طريقة اهتمام كل خليفة بأبنائه وزوجاته مما أدى إلى تميز واضح لصالح عبد الملك بن مروان والمنصور على سواهم من الخلفاء.

لقد شهدت الفترة الخاضعة للدراسة عدة ظواهر تتعلق بالمرأة لا نجدها في أيامنا هذه، ومن ذلك ظاهرة زواج الخليفة من زوجات الخلفاء (الحكام) السابقين، وقد يتخيل البعض بأن

المرأة كانت في كثير من الحالات ملكاً شخصياً للخليفة، تنتقل تلقائياً من الخليفة السابق للخليفة الجديد. وعلى صعيد آخر لم يكن الخليفة كما الحكام الحاليين أو "الرجال عموماً" يهتمون بعمر الزوجة وحالتها الاجتماعية، إن كانت أرملة أو مطلقة، أو كبيرة أو صغيرة في العمر. فهناك الكثير من الحالات التي تزوج فيها الخليفة من أرامل، وكذلك من مطلقات دون أن يقلل ذلك من شأنهن عنده، وليس أدل على ذلك من زواج هشام بن عبد الملك من زوجات يزيد بن عبد الملك، حتى أننا نجد أن الخلفاء يقومون بردات فعل تجاه ما قام به أزواج نسائهم السابقين، فهشام بن عبد الملك طلق زوجته بنت أبي بكر بن عبد الرحمن لأن زوجها السابق "عبد العزيز" قد فضلها على زوجته الأخرى وهي "أم حكيم".

لعل ظاهرة زواج الخلفاء من نساء صغيرات السن هي ظاهرة تستحق الوقوف عندها، واللافت للنظر أن هذه الظاهرة كانت قد انتشرت في الفترة الإسلامية الأولى بكثرة وهي امتداد على ما يبدو لظاهرة كانت منتشرة عند العرب قبل الإسلام. ليس هذا فحسب بل زوّج الخلفاء بناتهم في سن صغيرة جداً، فعلي بن أبي طالب زوّج ابنته أم كلثوم من عمر بن الخطاب وهو يكبرها بأكثر من خمسين سنة، في حين لم توافق أم كلثوم بنت أبي بكر على الزواج من عمر وكانت تقريباً بعمر أم كلثوم بنت علي. وكان الخلفاء حريصين على تزويج بناتهم ممن يعتقدون أنه الزوج المناسب لبناتهم، بل كانوا يعرضونهن على من يعتقدون أنه الأفضل لهن ولم يكن في ذلك أي إساءة لهن كنساء. كما تدخل الخلفاء في الحياة الزوجية لبناتهم ومثال ذلك ما فعله أبو بكر حين طلب من ابنته أسماء الصبر على حياة الزبير الشاقّة،



وكذلك تدخل معاوية في إساءة النصائح لبناته في تواضعهن لأزواجهن، وعدم التكبر عليهم. وموقف علي حين زوج ابنته من أبناء عمومتها وكان يزوجها في كل مرة من أحدهم على مهر بسيط. فالغالب كان هدف هؤلاء الخلفاء وغيرهم من الناس الستر على بناتهم. والواضح أنهم حرصوا على تزويج بناتهم أكثر من أبنائهم.

اختلف المؤرخون في نظرتهم لخلفاء الدولة الأموية والعباسية، ونلاحظ أنه كان هناك تحيز من قبل المؤرخين وحتى الفقهاء للخلفاء العباسيين. فالعديد من الكتب قد ألفت في الفترة العباسية، وبالتالي توفرت لدى المؤرخين معلومات أفضل عن خلفاء الفترة العباسية. كما أنه تجب الإشارة إلى أن الخلفاء العباسيين أغدقوا الأموال على العلماء والفقهاء. إن وصف المؤرخين للخلفاء العباسيين ليس بالضرورة يعكس الحقيقة. في الواقع كان الخلفاء الأمويين أفضل من أقرانهم العباسيين في الحكم، حتى أن الخلفاء العباسيين كانوا يتتبعون سيرة خلفاء بني أمية العظام وبالتالي لقد اتخذوا من تجربتهم مرشداً لهم في الحكم والسياسة، ومن هؤلاء المنصور الذي اقتدى بالخليفة عبد الملك بن مروان وهشام عبد الملك. كما أن محاولة بعض العباسيين نسب بعض الإنجازات التي قام بها الأمويون لأنفسهم، مثل المحاولة التي قام بها المأمون من إدعاء بنائه لقبة الصخرة.

لقد تعرض الأمويون للنقد من قبل المؤرخين أكثر من العباسيين، حتى أنه يلحظ في المصادر بأن الحديث عن الخلفاء العباسيين فيه محاولة للتقليل من ارتكابهم المعاصي والمنكرات، في حين لا يتورع هؤلاء المؤرخون عن ذكر الشيء نفسه عن الأمويين. وعند

النظر إلى حياة الخلفاء العباسيين نجدها مليئة بما لذ وطاب من ملذات وملاهي الحياة. ربما لا يحيد الدارس عن الصواب إذا افترض بأنه كان لدى العباسيين انقسام في الشخصية. فرغم ما حافظوا عليه من نزعة دينية إلا أنهم شربوا النبيذ وكانت حياتهم مليئة بالجوارح والغلمان، مما يدفعنا إلى تصور خلفاء عاشوا انقساماً بالشخصية، فتارة يصلون ويتصدقون ويعاقبون من ينتهك حرمة الدين وتارة يمارسون ملذات الحياة دون أي وازع ديني حتى أن من يقرأ ما كان يملأ قصورهم من عبث، لا يفكر لحظة أنهم كانوا مسلمين. إن هذا الكلام ينطبق على المهدي "رغم عدم شربه النبيذ" وعلى الهادي والرشيدي وأبنائه الأمين والمأمون والمعتصم. إن من يعرف ماذا يدور في بيوت الخلفاء مثل الهادي والرشيدي والمأمون ويرى ما رآوا عليه من لهو وترف لا يساوره أدنى شك بأن هؤلاء عاشوا لذاتهم ولذاتهم وحسب.

قد نقسو على خلفاء مثل المهدي، لكن المنصور بتشدده والمهدي بتوفير سبل العبث في قصره يتحملان كامل المسؤولية عن ما نشأ عليه الهادي والرشيدي وغيرهم من الخلفاء العباسيين. وعندما ننظر إلى شخصية الرشيدي الذي يعتبر من الخلفاء العظام في الدولة الإسلامية، لا نجد ما يبرر هذه العظمة على الأقل على صعيد حياته الشخصية، فما بال المصادر الإسلامية التي تصوره وكأنه قلّ نظيره بين الخلفاء. فالرشيدي الذي أراد أن يحقق سعادته الشخصية بالجمع بين جعفر البرمكي وأخته العباسية في نفس المجلس، انتقم من جعفر وأسرتة لأنه أقدم على الاختلاء بزوجته "العباسية"، مع أن ما قام به جعفر لم يكن مخالفاً

للشرع في شيء لكن الرشيد، وحسب تصوره الشخصي فإن جعفر تجاوز كل الحدود، عندما لم يلتزم بأوامره فما كان من الرشيد إلا أن قتله ونكب البرامكة.

وما يحسب لخلفاء مثل المهدي والهادي والرشيد والمأمون بنظر المؤرخين كرمهم "الحاتمي" والسخاء الذين اشتهروا به، مع أن ذلك يحسب ضدهم وليس لهم، فهو لاء الخلفاء لم ينفقوا من أموالهم الخاصة بل أنفقوا أموال المسلمين على المادحين والمقربين لديهم. في مقابل ذلك لم يجهز الخليفة عبد الملك زوجته "عاتكة" بموكب يليق بها في الحج، رغم علمه بوجود من لها موكب أفضل من موكبها. هذا مقارنة بما كان يعطي الخليفة الرشيد زوجته زبيدة كل ما تريد من أموال المسلمين، ومع ذلك تعتبر من أبرز النساء المحسنات اللواتي كانت لهن أيادي سخية في إنشاء الآبار والمشاريع الخيرية في طريق الحج وفي نفس الوقت عاشت حياة بذخ ورفاهية لا توصف. إن ما ينطبق على الرشيد ينطبق على أبنائه الأمين والمأمون، فكيف يقال بأن الأمين كان مسرفاً ولا يوصف المأمون بنفس السمة، مع أن الأخوين تربيا في نفس البيئة ومع أن المأمون كان مبذراً أكثر منه ويكفي للتدليل على ذلك عرسه الخيالي من زوجته بوران الذي لا يكاد يسمع بمثله بقصص ألف ليلة وليلة.

على ما يظهر أن ما لعب دوراً كبيراً في التمييز بين الأخويين هو المحطة الأخيرة في حياة كل منهما، فالأمين الذي قتل على يد المسلمين المؤيدين لأخيه المأمون، لم يعمر طويلاً في الحكم كي تتسج الكتب التاريخية والأدبية الروايات والقصص حول شخصيته، بينما المأمون الذي غلب في الصراع الذي نشب مع أخيه كان الطرف المنتصر في هذه المعادلة،

وبالتالي هو من أغدق الأموال على المؤرخين والعلماء كي يكتبوا عن سيرته وأعماله. أما المعتصم الذي تشبه شخصيته إلى حد كبير شخصية الوليد بن عبد الملك، فمدحه المؤلفون فقط لأنه اتصف بالفروسية والشجاعة وبنخوته في التاريخ الإسلامي. ومع أن شخصية الوثائق شخصية مقارنة جداً لشخصية المأمون، حيث امتاز بعلمه، وحبه للعلم وبغفوه وتسامحه، ومع ذلك لم يحظ بتلك الأهمية التي حظي بها عمه المأمون، وقد يعود ذلك إلى أن الوثائق اهتم بالغناء وبصناعة الألقان، رغم أنه تميز عن المأمون بأنه لم يخطط بعلم العرب شيئاً، كما فعل عمه المأمون الذي تأثر كثيراً بالفلسفة وخلط بينها وبين علوم العرب.

إن خلفاء المسلمين من أبي بكر وحتى الخليفة الوليد بن يزيد كانت أمهاتهم عربيات. وبالنسبة للخليفة يزيد بن الوليد فلا نستطيع القول بأن أمه كانت جارية، لأنها كانت ابنة ملك الفرس، وبالتالي يكون الخليفة مروان بن محمد وحده بين الخلفاء الراشدين والأمويين الذي كانت أمه جارية. أما العباسيين فكانت أمهات السفاح والمنصور والمهدي والأمين عربيات في حين كانت أمهات الخلفاء الآخرين جواري وعلى وجه الخصوص جواري فارسيات وتركيات. وبالتالي لم تكن الثقافة العربية هي التي صقلت شخصيتهم، بل تأثروا بما حملته أمهاتهم من ثقافات مختلفة، إضافةً لما لعبه موظفو الدولة البارزين في التأثير على أبناء الخلفاء وليس أوضح من تأثر الرشيد والمأمون بالبرامكة.

كانت هناك عوامل عديدة لعبت في نعت بعض الخلفاء بالعظماء، لكن النماذج المطروحة والتي مثلت حالة "تمودجية" بين الخلفاء على الصعيدين الشخصي والسياسي

الخليفتين عبد الملك بن مروان، وأبو جعفر المنصور. أما الخلفاء هشام والرشيدي والمأمون والمعتصم فلعبت عوامل أخرى في نعتهم بالعظماء وأهم ما لعب دوراً في ذلك الأقلام التي كتبت عنهم. أما من يمثل الخليفة النموذج بكل شيء، بابتعاده عن الترف والجواري فترة خلافته، واهتمامه بأبنائه وأسرتهم، ومراعاته لمصلحة الأمة فهو عمر بن عبد العزيز، الذي مثل نموذجاً يستحق الاحترام والتقدير والإقتداء به على صعيد أخلاقه واهتمامه بتعليمه وتنقيف نفسه، والعمل بما تعلم وعدم اتخاذ ذلك لمجرد المباهاة، كما أنه لم يتأثر بالأجواء المحيطة به، بل عرف أن الخلافة مسؤولية كبيرة ويجب إعطاؤها حقها.

هناك ظاهرة أخرى تسترعي الانتباه في حياة الخلفاء، فالخلفاء الذين وصفوا بالعظمة كانوا هؤلاء الذين شددوا على المسلمين أثناء حكمهم، وشددوا على أبنائهم وزوجاتهم في عملية الإنفاق. ومن هؤلاء نذكر عمر بن الخطاب وعبد الملك وهشام والمنصور. في حين من اتصفوا بالعظمة من الخلفاء وتميزوا بكرمهم مثل الرشيد والمأمون وآخرون هم من أغدقوا الأموال على العلماء والفقهاء والمؤرخين وبالتالي لا يمكن المقارنة بين المجموعة المتشددة من الخلفاء الذين حكموا بحزم وبين من أعطوا الأموال ليكتب عنهم. علينا القول بأنه لا توجد قاعدة معينة لاعتبار أن خليفة بعينه عظيم دون غيره، لكن المؤرخين هم الذين من لعبوا دوراً كبيراً في تحديد العظماء من بين الخلفاء. بالمقابل هناك خلفاء ظلموا من قبل المؤرخين مثل الخليفة الوليد بن يزيد و الهادي.

في المحصلة يتبين أن حياة الخليفة الشخصية من علم وثقافة ونشأة وطول أو قصر العمر والمعاملة الحسنة أو السيئة لنسائه وأولاده ومدى التزامه بالقيم الدينية لم تكن إحدى العوامل الأساسية التي جعلت منه خليفة ناجحاً أو عظيماً في نظر المؤرخين وأتباعه المسلمين، وإنما ما جعله ناجحاً وعظيماً كان كثرة إنجازاته في المجالات السياسية والإدارية والعسكرية، مما يعني طول مكوته في سدة الحكم وإغداقه الأموال والهبات والخلع على أتباعه وعلى وجه الخصوص على الأدياء والشعراء والمؤرخين والعلماء الذين غمروه بدورهم بمدحهم ووصفهم إياه بالنجاح والعظمة. أما ثقافته ونشأته والتزامه بالدين وحسن تربيته لأبنائه فكانت مفاتيح لتبجيل الخليفة ورفع أسهمه.

## المصادر والمراجع

- (1) ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن الشيباني. أسد الغابة في معرفة الصحابة. بيروت دار المعرفة. ط1، 1418-1998.
- (2) ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن. الكامل في التاريخ. الرياض: بيت الأفكار الدولية.
- (3) ابن أعثم، أحمد الكوفي. الفتوح. بيروت: دار الفكر، ط1، 1992.
- (4) ابن الجوزي، أبو فرج الأصفهاني. سيرة ومناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. تحقيق هاني الحاج. المكتبة التوفيقية.
- (5) ابن الجوزي، أبو الفرج الأصفهاني. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. بيروت: دار الكتب العلمية.
- (6) ابن حجر، العسقلاني. أحمد بن علي بن أحمد العسقلاني. الإصابة في تمييز الصحابة. بيروت: دار الجيل، 1992.

- (7) ابن خلدون، عبد الرحمن: تاريخ ابن خلدون. القاهرة: دار الكتاب المصري وبيروت: دار الكتاب اللبناني، 1999.
- (8) ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة. بيروت: دار الفكر، ط1، 1424-2003.
- (9) ابن خلكان، شمس الدين. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. بيروت: دار الثقافة.
- (10) ابن خياط، أبو عمرو خليفة بن أبي هريرة الليثي العصفري. تاريخ خليفة بن خياط. بيروت: دار الكتب العلمية، 1995.
- (11) ابن سعد، محمد: الطبقات الكبرى. بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1410-1990.
- (12) ابن طباطبا، محمد بن علي. الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية. بيروت: دار صادر، دار بيروت، 1960.
- (13) ابن عاصم، محمد القيسي. حدائق الأزهار. تحقيق. عفيف عبد الرحمن. بيروت: دار المسرة.
- (14) ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد. بهجة المجالس وأنس المجالس وشذوذها. تحقيق محمد مرسى الخولي. بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1981.



(15) ابن عبد ربه الأندلسي، أحمد بن محمد. العقد الفريد. تحقيق عبد المجيد الترحيني. بيروت: دار الكتب العلمية.

(16) ابن عساكر، علي بن الحسن أبو القاسم. تاريخ مدينة دمشق. دراسة وتحقيق محب العمروي. بيروت: دار الفكر، 1995.

(17) ابن قتيبة، الدينوري. الأخبار الطوال. دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1960.

(18) ابن قدامة، موفق الدين. التوابين. القاهرة: دار الأمين، ط1، 1993-1414.

(19) ابن قيم، شمس الدين. أعلام الموقعين عن رب العالمين. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. بيروت: المكتبة العصرية، ط1، 1424هـ - 2003م.

(20) ابن كثير، أبو الفداء. البداية والنهاية. بيروت: دار الكتب العلمية.

(21) ابن محمد الأندلسي، أبو عبد الله محمد بن يحيى بن أحمد. التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان. بيروت: دار الكتب العلمية.

(22) ابن مسكويه، أبو علي بن محمد بن يعقوب. تجارب الأمم. بيروت: دار الكتب العلمية، ط1.

(23) ابن هشام، أبو محمد عبد الملك. السيرة النبوية. القاهرة: دار الفجر للتراث، ط1، 1999-140هـ.

(24) أبو خليل، شوقي. الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة. بيروت ودمشق: دار الفكر.

(25) الأصبهاني، أبو نعيم أحمد أسحاق. معرفة الصحابة. بيروت، ط1، د.د.ن 1422هـ-2002م.

(26) الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله. فضائل الخلفاء الأربعة. تحقيق محمد حسن إسماعيل. بيروت: دار الكتب العلمية.

(27) الأصبهاني، أبو القاسم إسماعيل بن الفضل. سير السلف الصالحين. الرياض وجدة: دار الرؤية، ط1، 1999-1420.

(28) الأصفهاني، أبو الفرج. الأغاني. بيروت: دار الفكر، ط2.

(29) باشا، عبد الرحمن رأفت. صور من حياة التابعين. بيروت: دار النفائس، 1419هـ-1999.

- (30) البغدادي، الخطيب. تاريخ بغداد. بيروت: دار الكتب العلمية .
- (31) البلاذري، أحمد بن يحيى. أنساب الأشراف: تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار النشر فرانتش شتانيير ستوتكارت، 1417-1996م.
- (32) التوحيدي، أبوحيان. أخلاق الوزيرين. بيروت: دار صادر، 1412-1992.
- (33) الثعالبي، عبد العزيز. الرسالة المحمدية من نزول الوحي إلى وفاته. تحقيق صالح الخرفي. دمشق وبيروت: دار ابن الأثير، 1418-1997م.
- (34) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب: رسائل الجاحظ الرسائل الأدبية. بيروت: دارمكتبة الهلال.
- (35) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب. رسائل الجاحظ الرسائل السياسية بيروت: دار مكتبة الهلال، ط3، 1995.
- (36) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب. البيان والتبيين. بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1419هـ-1998.

(37) الجوابرة، فاطمة. موسوعة الخلفاء. ج1. عمان: دار صفاء للنشر والتوزيع، ط1، 2003م.

(38) حسن، إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي. بيروت: دار الجليل والقاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ط13، 1991.

(39) الحصري، أبو أسحاق إبراهيم بن علي: زهر الآداب وثمر الألباب. القسم الأول. ج1. قدم وعلق على النصوص قاسم محمد بن وهب. دمشق: وزارة الثقافة، 1996.

(40) حميدة، طه عبد الحسيب. أدب الشعية إلى نهاية القرن الثاني الهجري. القاهرة: مطبعة السعادة. ط2، 1388-1968م.

(41) الحميدي، عبد العزيز. التاريخ الإسلامي مواقف وعبر. ج17. جدة: دار الأندلس والإسكندرية: دار الدعوة، ط1، 1998-1419هـ.

(42) الحنبلي، أبو فلاح عبد الحي. شذرات الذهب في أخبار من ذهب. ج1. بيروت: دار المسيرة، ط2، 1979.

(43) الخضري، محمد بك. الوفاء في سيرة الخلفاء. بيروت: دار الفكر، ط1، 1991.

- (44) الدار القطني، أبو الحسين علي بن عمر. فضائل الصحابة ومناقبهم. المدينة المنورة: مكتبة الغرباء الأثرية، 1419هـ-1998م.
- (45) دعبول، رضوان. تراجم أعلام النساء. بيروت: مؤسسة الرسالة، وعمان: دار البشير، 1419-1998.
- (46) الذهبي، شمس الدين. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. بيروت: دار الكتاب العربي. 1993.
- (47) الذهبي، شمس الدين الذهبي. سير أعلام النبلاء سير الخلفاء الراشدين. حققه بشار معروف. بيروت: الرسالة. ط2، 1418هـ-1997م.
- (48) الذهبي، شمس الدين. العبر في أخبار من عبر. بيروت: دار الفكر، 1997.
- (49) الذهبي، شمس الدين. نزهة الفضلاء- تهذيب سيرة أعلام النبلاء. إعداد محمد موسى الشريف. جدة: دار الأندلس الخضراء، 1421هـ-2000م.
- (50) الذهبي، شمس الدين. سير أعلام النبلاء. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1409هـ-1988م.

(51) رضا، محمد. أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين. بيروت: دار الكتاب العربي، 2003.

(52) رفاعي، أحمد. عصر المأمون. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1997.

(53) زيدان، جورج. تاريخ التمدن الإسلامي. بيروت: دار الحياة.

(54) الزركلي، خير الدين. الأعلام. بيروت: دار الفكر.

(55) السخاوي، شمس الدين. استجلاب ارتقاء الغرف بحب أقرباء الرسول وذوي الشرف.

تحقيق خالد بن أحمد الصمي. بيروت: دار البشائر، 1412هـ-2000م.

(56) السيوطي، جلال الدين. تاريخ الخلفاء. بيروت: دار القلم، ط1، 1986م.

(57) شرف، محمد جلال. نشأة الفكر السياسي وتطوره في الإسلام. بيروت: دار النهضة

العربية، 1982.

(58) الشريفي، ابراهيم. التاريخ الاسلامي خلال أربعة عشر قرناً. منذ العهد النبوي حتى

العصر الحاضر. 1971.

(59) شندب، محمد حسين. تاريخ الخلفاء الراشدين "تجربة الجيل القرآني الأول". رام الله: دار الشروق، 2003م.

(60) شلبي، أحمد. التاريخ الاسلامي والحضارة الإسلامية. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1959م .

(61) الشوكاني، محمد بن علي. ذُر السحابة في مناقب القراية والصحابة. تحقيق حسين العمري. دمشق: دار الفكر، ط2، 1426هـ-2005م.

(62) الشيخ، عبد الرحمن وحبش، حسن وآخرون. موجز دائرة المعارف الإسلامية. ج24. الشارقة: مركز الشارقة للإيداع الفكري، 1998.

(63) الصلابي، علي محمد. تيسير المنان في سيرة عثمان بن عفان شخصيته وعصره. القاهرة: دار الفجر.

(64) الصفدي، صلاح الدين خليل: الوافي بالوفيات. بيروت: دار إحياء التراث العربي .

(65) الطبري، محمد بن جرير. تاريخ الرسل والملوك. مراجعة وتقديم: صدقي العطار. بيروت: دار الفكر، ط1، 1998.

(66) الطنطاوي، علي. وناجي الطنطاوي. أخبار عمرو وأخبار عبد الله بن عمر. المكتب الإسلامي.

(67) العاصمي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك الشافعي. سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي. بيروت: دار الكتب العلمية، 1998.

(68) العامري، يحيى بن أبي بكر اليمني. الرياض المستطابة. بيروت: مكتبة المعارف، ط3، 1983.

(69) العاملي، زينب بنت علي: معجم أعلام النساء. تحقيق منى الخراط. مكتبة التوبة، ومؤسسة الريان.

(70) عبد الهادي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن. طبقات علماء الحديث. بيروت: الرسالة، 1417هـ-1996م.

(71) العث، يوسف. تاريخ عصر الخلافة العباسية. بيروت: دار الفكر المعاصر ودمشق: دار الفكر، 1418-1997.

(72) العشماوي، محمد سعيد. الخلافة الإسلامية. القاهرة: مكتبة مدبولي، 1996.



(73) العمري، ياسين بن خير. الروضة الفيحاء في تواريخ النساء. بيروت: دار العربية للموسوعات، ط1، 1997.

(74) غليون، برهان. نقد السياسة الدين والدولة. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1991.

(75) فروخ، عمر. تاريخ صدر الاسلام والدولة العباسية. بيروت: دار العلم للملايين، 1970م.

(76) فريد، أحمد. من أعلام السلف. الإسكندرية: دار الإيمان، 1418-1998.

(77) القالي، أبو علي اسماعيل بن القاسم. الأمالى. القاهرة: دار الكتب العلمية.

(78) القلقشندي، أحمد بن علي أبو العباس. مآثر الإنافة في معالم الخلافة. بيروت: دار الفكر، 1997م.

(79) القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق. العمدة في محاسن الشعر وآدابه. تحقيق محمد قرقزان. بيروت: دار المعرفة، ط1، 1408-1988.

(80) الكاندهلوي، محمد يوسف. حياة الصحابة. بيروت: دار ابن حزم.

- 81) الكتبي، محمد بن شاكر. فوات الوفيات والذيل عليها. بيروت: دار صادر.
- 82) الكيالي، عبد الوهاب وآخرون: موسوعة السياسة. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات، 1983.
- 83) الماوردي، أبو الحسن. الأحكام السلطانية. 1973.
- 84) المباركبوري، أبو المعالي أظهر. العقد الثمين في فتوح الهند ومن ورد فيها من الصحابة والتابعين. القاهرة: دار الأنصار.
- 85) المحب الطبري، أبو جعفر. الرياض النضرة في مناقب العشرة. بيروت: دار الكتب العلمية، 1405هـ-1984م.
- 86) ميخائيل، حنا. السياسة والوحي الماوردي وما بعد. تعريب محمد شكري رحيم. بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1970.
- 87) محمصاني، صبحي. تراث الخلفاء الراشدين في الفقه والقضاء. بيروت: دار الملايين، ط1، 1984.

88) محمد، صلاح عبد الغني. موسوعة المرأة المسلمة - تربية الأولاد وبر الوالدين وصلة

الرحم. القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب، 1998.

89) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين. مروج الذهب ومعادن الجوهر. بيروت: دار

الأندلس.

90) النويري، شهاب الدين أحمد. نهاية الأرب في فنون الأدب. بيروت: دار الكتب العلمية،

ط1، 1424-2004م.

91) النيسابوري، أبو منصور بن محمد بن إسماعيل الثعالبي. خاص الخاص. تقديم حسن

الأمين. بيروت: دار مكتبة الحياة.

92) الوكيل، محمد السيد. الأمويون بين الشرق والغرب. بيروت: الدار السنينة. ودمشق: دار

القلم، 1995.

93) اليعقوبي، أحمد بن اسحاق بن جعفر. تاريخ اليعقوبي. بيروت: دار الكتب العلمية، ط2،

2002م.

94) اليعقوبي، أحمد بن اسحاق. مشاكل الناس لزمانهم. بيروت: دار الكتاب الجديد، 1980.